د. بلقاسم طبّابي

دراســـات في السلطة والمجتمع

في العصر الإسلامي الوسيط

(مصر والشام في العهد المملوكي أنموذجا: 1250 - 1517 م)



الدار التونسية للكتاب

2013

سلسلة تاريخيّة

دراسات في السلطة والمجتمع
في العصر الإسلامي الوسيط
(مصر والشام في العهد المملـوكـي أنموذجا: 1250 - 1517 م)

✵عـنـوان الـكـتـاب: دراسات في السلطة والمجتمع
المؤلف: بلقاسم طبابي
النـوع: تاريخ
الطـبـعـة: الأولى (2013)
✵الناشر: الدار الـتونـسيـة للكتاب
العـنـوان:43-45 شارع الحبيب بورقيبة-
الـطابـق الأول مدرج "د" الكولـيزي
الـهـاتـف/الـفـاكـس:71339833(216+)
البريد الالكتروني:mtl.edition@yahoo.fr
✵الـمـوزع داخل تونس وخـارجها:
الشركة التونسية للصحافة SOTUPRESSE
ر.د.م.ك: 978-9938-839-68-5 : ISBN

بلقاسم طبابي

دراسات في السلطة والمجتمع في العصر الإسلامي الوسيط (مصر والشام في العهد المملـوكـي أنموذجا: 1250 - 1517 م)



2013

المقدمة

سجلت الدراسات المتعلقة بالسلطنة المملوكية تقدما واضحا منذ أوائل القرن الماضي وتجاوزت المشغل السياسي الذي كان مهيمنا - والذي لا يمكن التقليل من شأنه - إلى حقول أخرى فتطرقت إلى قضايا كبرى (اقتصادية واجتماعية وثقافية وعلاقات دولية...)، مما سمح بفهم أفضل لهذه الحقبة المفصلة في تاريخ المنطقة وتجاوز الأحكام المسبقة والصور النمطية.

وهذا الكتاب هو مجموعة مقالات كتبت في فترات مختلفة، كان الغرض منها الإسهام في دراسة هذه المرحلة من تاريخ مصر والشام، آملين أن نقدم إضافة مفيدة. ويتألف الكتاب من ثلاثة محاور، يتطرق المحور الأول منه لنواحي جغرافية وأخرى سياسية وعسكرية عرفتها السلطنة خلال هذه الحقبة الطويلة، فقد شكلت مصر من البداية قاعدة ومركز الحكم المملوكي،بل وقلب العالم الإسلامي آنذاك، فكانت جاذبة لرحالين من مختلف الأصقاع، وقد ترك لنا الرحالون المغاربة الذين ينتمون لفضاء حضاري مشترك مع السلطنة، صورة عن هذا البلد وأهله، تمكننا من تفحص النظرة القائلة بأن أرض الإسلام واحدة ولا تمايز بينها، وبالتالي التساؤل عن مدى صحة القول بأن لمصر والمصريين شخصية مميزة صنعتها الجغرافيا، والإرث الحضاري العريق والمتنوع، وأن هنالك تنوعا للمجال العربي الإسلامي رغم وحدته الحضارية.

كما مثلت السلطنة الجبهة التي تحملت عبء مواجهة الأخطار الخارجية، وكان آخرها عند تسلم المماليك مقاليد الحكم وصول الاجتياح المغولي إلى بلاد الشام قادمين من أقاصي الشرق، وقد توفر لنا مصدر أرمني معاد للمماليك، يروي وقائع هذا الاجتياح والمواجهات التي تلته بين هؤلاء الغزاة الجدد وسلطنة المماليك. كان صاحب هذه الرواية لا فقط شاهد عيان، بل أحد الفاعلين

في الأحداث، يقدم رواية أخرى عن وقائع هذا الاجتياح والوقائع السياسية والعسكرية التي تلته، وما يهمنا هنا هو الدور الذي اضطلعت به بعض القوى المسيحية الشرقية في هذه المواجهة الكبرى وتحديدا مملكة أرمينيا، والدور الذي اضطلعت به سلطنة المماليك في مواجهة هذا الغزو، في زمن أصبح فيه العالم الإسلامي ومنذ زمن في وضع دفاعي.

ويتطرق المحور الثاني إلى تطور وضع بعض مؤسسات الحكم المملوكي، ولا شك أن المؤسسة العسكرية تظل دوما أهم هذه المؤسسات على الإطلاق، باعتبارها الركيزة التي يقوم عليها هذا الحكم وهي التي تزوده باستمرار بعناصر الطبقة الحاكمة، لن نتعرض إلى تنظيم هذه المؤسسة وإنما إلى ظاهرة طريفة وخطيرة تتعلق بالتمرد والعصيان كانت تقوم به فئة مميّزة وذات حظوة خاصة في هذه المؤسسة وهي المماليك السلطانية، وأثرها على استقرار نظام الحكم واستمراريته. ومن المؤسسات الأخرى التي لم يطلها البحث، ولم تظهر في الواجهة في حين أنها تمثل الوجه الخفي للسلطة الحاكمة، بممارستها للعنف غير المرئي، ألا وهي مؤسسة السجن، فدراسة هذه المؤسسة يساعد على الكشف عن أساليب لعقاب والردع والتطويع للخارجين عن السلطة، وفي الكشف عن طبيعة السلطة الحاكمة، وآليات تحكمها في المجتمع.

ويهتم المحور الثالث ببعض الجوانب من التاريخ الاجتماعي الحضري، إنّ الشيء الأكيد أنه رغم تعدد الدراسات عن المجتمع "المملوكي" فإنّ ظلالا لا تزال تحجب الرؤية ولا تمكّن من رسم لوحة دقيقة واضحة بما فيه الكفاية عن البنية الاجتماعية والمهنية سواء تعلق الأمر بفئة الخاصة أو فئة العامة، فهذا التقسيم يخفي تنوعا وتعقدا في البنية الاجتماعية، والبديهي أن المجتمع آنذاك كان ويقوم على تراتبية يفعل فيها قانون الحراك الاجتماعي وخصوصا إذا ما تعلق الأمر بحواضر كبرى مثل القاهرة المملوكية.

وعلى كل فإننا انتقينا في عملنا هذا ثلاث عينات قد تكون معبرة إلى حد ما عن التنوع والتعدد في هذه التركيبة الاجتماعية، لكن لا ندعي أن هذه الفئات ممثلة لمكونات المجتمع والتراتبية القائمة داخله، يمثل الأشراف جزءا لا يتجزأ من "فئات الأعيان "، لكنها فئة " مغلقة " إن جاز القول، باعتبار الخصوصية المميزة لهل والمعترف بها لانتمائها لآل البيت، وبالتالي امتلاكها لرأسمال رمزي تستفيد منه في زمن تعاظم فيه دور الأشراف في بعض مناطق البلاد الإسلامية. أما العينات الأخرى فتنتمي إلى جمهور العامة أي الأوساط الشعبية التي تعد كما مهملا غير جدير بالاهتمام، وإن ذكرت في المصادر المختلفة فبصفة عرضية، والمجموعة الأولى منها هم السقاءون، الذين يشكلون " صنفا مهنيا واجتماعيا "، كغيرهم من أهل الحرف والصنائع، ويعود وجودهم إلى ما قبل هذا العهد وظلوا موجودين، يقومون بالتزويد اليومي للحاضرة المصرية بالماء، ولم ينقرض إلا في زمن غير بعيد، وفي أسفل السلم الاجتماعي أين يقبع الهامشيون، تم التعرض إلى شريحة لم تنل حظها من البحث، وربما عدّت من المحظورات، وتتعلق بصنف النساء البغايا، فإضافة لخصوصيتهن الجنسية، وانتماءهن للفئات الهامشية المنسية، فإن وجود الظاهرة نفسها في مجتمع ترتكز قيمه على مكافحة الرذيلة، يعد ظاهرة ملفتة للانتباه حقا وجديرة باهتمام الدرسين، للتعرف أولا على هذا "العالم" لذي يلفه الغموض وعلى مدى تقبل السلطة الحاكمة والمجتمع بمختلف أطيافه لهذا النشاط الذي يدخل ضمن مجال المدنس.

تلك هي بعض القضايا والمسائل التي نسعى للبحث فيها، وهي محاولة لتقديم بعض الإجابات عن قضايا يثيرها البحث التاريخي، وأملنا نقدم الإضافة المرجوة.

المحور الأول

الإطار السياسي والجغرافي
ودور السلطنة في التصدي للمغول

الإطار التاريخي

في سنة 648هـ /1250 م تمكن الجند المملوكي من الاستيلاء على الحكم على حساب سادتهم الأيوبيين في مصر أولا، ثم امتد حكمهم إثر ذلك إلى بلاد الشام والحجاز وبذلك ظهرت أقوى إمبراطورية إسلامية في العصر الوسيط المتأخر، إمبراطورية يديرها نظام عسكري،و الطريف في الأمر أن عناصره دخيلة عن المنطقة، وتنتمي إلى فئة العبيد، كما تميّز بطوله من الناحية الزمنية إذ كانت نهايته في سنة 923 هـ /1517م. تقسم هذه الحقبة من تاريخ المنطقة عادة إلى عهدين عهد المماليك البحرية وعهد المماليك البرجية.

* عهد المماليك البحرية (648هـ - 784 هـ / 1250 -1382م): سمي بهذا الاسم نسبة إلى جزيرة الروضة قرب القاهرة أين كان المماليك يقيمون، كما أطلق عليهم اسم المماليك الأتراك،باعتبار أن أغلبهم كانوا من هذا العنصر إذ كانوا يجلبون وهم صغار السن من بلاد القبجاق شمال شرق البحر الأسود ومن آسيا الوسطى، ويقع إعدادهم لعدة سنوات إعدادا صارما على المستوى الديني بتعليمهم مبادئ الإسلام باعتبار أنهم سيكونون حماة لدار الإسلام، وعلى المستوى العسكري بتعليمهم فنون القتال والفروسية فمهنتهم هي الحرب والقتال ثم يقع عتقهم إثر ذلك ومنحهم تجهيزات الفارس وجامكية، ثم إقطاعا – في نطاق الإقطاع العسكري-، حين يتدرج في مراتب الإمرة.

أثناء الحملة الصلبية السابعة على مصر(1248م) لمعت فرقة المماليك الصالحية التي أنشأها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (ت.شعبان 647هـ /1249م) إذ كان لها دور أساسي في سحقها، إثر ذلك قامت بانقلاب دموي على السلطان تورانشاه وبذلك انتهى العهد الأيوبي في مصر ليبدأ العهد المملوكي الأول. كان على المماليك وهم غرباء عن البلاد ومن أصول رقية إثبات جدارتهم بحكم البلاد إذ أن سادتهم الأيوبيون ببلاد الشام سعوا لاستعادة

مصر لكنهم هزموا في سنة648هـ/ فيفري 1250م، وبـذلك تبخّـر وبشـكل نهـائي حلـم استعادة الأيوبيين لمصر، كما واجه المماليك في مطلع عهدهم انتفاضة واسعة قامت بها القبائل العربية في مصر بقيادة أحد الأشراف الجعافرة وهـو حصـن الـدين بـن ثعلـب هدفها الإطاحة بحكم من "مسّهم الرق"، لكنهم تمكنوا من القضاء عليها بقسوة بالغة، وبذلك ترسخ الحكـم المملـوكي بصـفة نهائيـة في مصر. وكـان عـلى المماليـك اكتسـاب الشرعية التي يفتقرون إليها وقـد تـوفرت فـرص ذهبيـة لتحقيـق ذلـك، أولهـا وصـول الإعصار المغولي المدمر إلى بلاد الشام قادما من العراق، حيث أزيلت الخلافة العباسـية في بغداد سنة 656هــ/ 1258م، وبـدت "دار الإسـلام" أرضـا مسـتباحة لكـن المماليـك تمكنوا بقيادة السلطان قطـز مـن إلحـاق هزيمـة مدويـة بـالقوة التـي " لا تقهـر"، في معركة عين جالوت بفلسطين سنة658هـ/ 1260، وقد أعلى هذا النصر المؤزر من شـأن دولة المماليك وبدوا بالفعل حماة للإسلام في هذه المنطقة، وبذلك كسبوا الجولة الأولى لشرعنة حكمهم، بل إن دحرهم للمغول ودفعهم إلى ما وراء نهر الفـرات مكـنهم مـن توسيع مجال سلطنتهم بضم بلاد الشام والقضـاء عـلى الإمـارات الأيوبيـة أو وضـع مـا تبقى منها في وضع التبعية إلى حين، وضموا كذلك بلاد الحجاز حيث البقـاع المقدسـة، وقد عزّز ذلك بشكل كبير قضية شرعية حكمهـم. لم يكتـف السـلطان الظـاهر بيـبرس بذلك فهاجس الشرعية لازال قائمـا لـذلك بـادر مـن ناحيـة بإحيـاء الخلافـة العباسـية ليستمد من الخليفة الشرعية المطلوبة دون أن تكون له أيّ سلطة فعلية، ومن ناحيـة ثانية باستئناف حركة "الاسترداد الإسلامي" بتصفية بقايا الوجود الصلبي ببلاد الشـام، وقد تمكن المماليك فعلا مـن تصـفيته نهائيـا بسـقوط عكـا في عهـد السـلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة1291م، وبدت سلطنة المماليك أقـوى الـدول الإسـلامية عصرئـذ بالتصدي لأطماع إيلخانية فارس المجاورة لهم خاصة في عهـد حاكمهـا محمـود غـازان

الذي عمل على استئناف مشاريع التوسع القديمة باتجاه الغرب، ومدخله في ذلك منافسة الدولة المملوكية على زعامة العالم الإسلامي بعد أن أصبح الإسلام الدين الرسمي لهذه الإيلخانية.

ولئن قام نظام الحكم المملوكي على رفض مبدأ توريث الحكم واعتبار منصب السلطنة مشاعا بين كبار الأمراء، يصل إليه أقوى الأمراء "شوكة" والأكثر دهاء إلا أن ذلك لم يمنع ظهور سلالة حاكمة هي أسرة السلطان قلاوون الألفي، وحتى في هذه الحالة، ففي الحقيقة إذا ما استثنينا السلطنة الثالثة للناصر محمد (1309 -1341م)، والذي يعد بحق أوج قوة دولة المماليك إذ توسع نفوذ المماليك ببلاد النوبة جنوب مصر وفي آسيا الصغرى وتوارى خطر ايلخانية فارس بعد عدّة محاولات توسعية خاصة في عهد محمود غازان، فإن أبناء وأحفاد هذا السلطان لم يكن لهم في الغالب من السلطنة إلا الاسم في حين أن السلطة الفعلية كانت بيد الأوصياء على العرش وخاصة أتابك الجيش. كما أنه ومنذ مطلع العهد القلاووني سيحصل وبالتدريج تبدل ملفت في تركيبة الجيش المملوكي سيكون لها الأثر البالغ على مستقبل حكم المماليك الأتراك، إذ منذ ذلك العهد بدا استجلاب الرقيق من المماليك من بلاد الجركس الواقعة في بلاد القوقاز إلى الجنوب من البحر الأسود وأصبحوا مع أواخر القرن الرابع عشر يمثلون الأغلبية وهذا التفوق العددي سيمكنهم من خوض صراع على السلطة بقيادة برقوق العثماني والاستيلاء على السلطة سنة1382م، وبذلك قضى على فكرة كانت راسخة في الأذهان "بعدم الخروج على وراثة العرش في البيت القلاووني ". وبذلك يبدأ العهد الجركسي.

* <u>عهد المماليك الجراكسة (784 -923هـ /1382 -1517م):</u> في الحقيقة لا تعد البداية الرسمية للعهد الجركسي، إذ أطيح ببرقوق من قبل المماليك الأتراك في 1388م، لكن في السنة الموالية تمكن من العودة إلى

العرش وبصورة نهائية وصمم على "جركسة" الدولة كليا باستبعاد الأمراء الأتراك بشتى السبل والوسائل، وضم قسم من مماليكهم إليه ونفي أو قتل البقية الباقية منهم .

كانت بداية صعبة لهذا العهد إذ كان على الظاهر برقوق مواجهة خطر داهم الأطراف الشمالية للسلطنة بتقدم قوات القائد المغولي تيمورلنك، في وقت كانت فيه السلطنة منهكة بفعل الحرب الأهلية وكانت خزائن الدولة فارغة لكن الخطر التيموري سريعا ما توارى بصفة مؤقتة عندما عاد تيمورلنك إلى بلاده بعد أن هاجمها طقتمش صاحب بلاد القبجاق. سعى برقوق (توفي سنة1398م)، لإقامة حكم وراثي على شاكلة البيت القلاووني لكن يبدو أن الأمراء الممالك كانوا مصممين هذه المرة على التصدي لمثل هذا المشروع إذ واجه خلفه السلطان فرج مقاومة من قبلهم في مصر وبلاد الشام،لكن ما كاد يقضي على المؤامرات و"الثورات" التي قامت ضد حكمه حتى ظهر تيمورلنك مجددا شمال بلاد الشام في مطلع القرن15م، ناشرا في طريقه القتل والخراب مستبيحا مدينة دمشق التي تركها السلطان تواجه لوحدها مصيرا بائسا.

كان من نتائج هذه الغزوة الرهيبة نقص كبير في عدد السكان والقرى ببلاد الشام، وليزداد الوضع قتامة فقد أصيبت البلاد المصرية بمجاعة لنقص فيضان النيل واندلاع الوباء الذي شمل فيما بعد كل أقاليم السلطنة. ويعتبر المقريزي هذه السنة 806هـ/ 1404م بداية انكماش العمران في مصر. انتهى هذا العهد المضطرب سنة 1412م عندما تمكن الأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس من إنهاء حكم فرج وإنهاء فترة انتقالية قصيرة سلمت فيها السلطة للخليفة العباسي المستعين، وكان لابد من مهلة زمنية طويلة تلتقط فيها السلطنة الأنفاس وشيئا من عافيتها. تولى الحكم إثر ذلك إجمالا سلاطين متقدمون في السن ويمتلكون خبرة ودراية بشؤون الحكم، فقلّت الانقلابات العسكري للإطاحة

بالسلاطين فامتدت نسبيا سنوات حكمهم. منذ سلطنة برسباي 825ـ-834 هـ/ 1422 -1437م بدأت السلطنة تستعيد تدريجيا لكن بصعوبة شيئا من عافيتها وبـدأت تظهـر علامات نهضة جديدة لم تكن لتحصل لولا توفر جملة من الظـروف والعوامـل الملائمـة فلم يعد خلفاء تيمورلنك يمثلون خطرا جديا على السلطنة كـما أن الإمـارات والقبائـل التركمانية المستقرة على جانب الحدود الشمالية لبلاد الشام ورغم القلاقل التي كانـت تثيرها من حين لآخر إلا أنهـا في الحقيقـة لم تشـكل ضـغطا مهـدّدا للسـلطنة، ومثلـت السياسة التجارية التي شرع برسـباي في انتهاجهـا والمتمثلـة في احتكـار بضـائع الشرق وخاصة التوابل موردا ماليا هاما عـزز بـه السـلطان موقعـه إزاء كبـار الأمـراء إلا أنهـا ألحقت ضررا بالغا بفئة تجار الكارم، ولضمان نجاح هذه السياسة كان لابد من مراقبة صارمة للملاحة في البحر الأحمر وموانئ الحجاز ومقاومة النشـاط القرصـني والمشـبع بروح صلبية، ومنطلقه بعض الجزر في الحوض الشرقـي للبحـر المتوسـط مثـل قـبرص ورودس وكريت، لذلك سارع برسباي بتنظيم حملات بحرية تأديبيـة ضـد قـبرص عـلى الأقـل في مناسـبتين في 828هـــ/1425م وفي سـنة 829 هـــ/1426م. انتهـت بإخضـاع الجزيرة. وعند وفـاة برسـباي كانـت أوضـاع السـلطنة قـد تحسـنت بانتعـاش الحيـاة الاقتصادية والعمرانية واستقرار الوضع الأمنـي إذ لمـا تـولى الأشرف قايتبـاي السـلطنة (872 -502هـ/ 1468 -1496م) كـان العهـد الجـركسي قـد بلـغ أوجـه رغـم النكبـات الديمغرافية المتعاقبة، وتجسم ذلك على المستوى العمـراني بتعـدد المنشـآت المعماريـة المتعددة والمتنوعة التي شيدت في عهـد في القـاهرة وغيرهـا مـن مـدن السـلطنة مـن مدارس ومساجد وخوانق وترب، وعلى المستوى الخارجي التصـدي للأطـماع العثمانيـة بإلحاق هزيمة ثقيلة بالجيش العثماني سنة896هـ /1491م. هذا التجدد في قوى الدولة سيكون الأخير، وتم في ظل أزمة هيكلية بدأت عوارضها تظهر فـيما تبقـى مـن العهـد

المملوكي إذ أن التوازن الداخلي بدأ في الاختلال يضاف إلى ذلك النكبات الديمغرافية المتكررة بسبب الطواعين التي أصبحت دورية منذ الطاعون الجارف لمنتصف القرن 14م والمجاعات وما خلّفه ذلك من تداعيات سلبية على الاقتصاد والمجتمع وعلى المؤسسة العسكرية الحاكمة، التي تسرب إليها التفكك والصراع على العرش إثر وفاة قايتباي وتجدد انتفاضات القبائل وسكان الأرياف. ولن تكون فترة حكم السلطان قانصوه الغوري الطويلة (906-922هـ/1501 -1516م) والذي أظهر مقدرة في إدارة أزمة الدولة والعودة النسبية إلى حالة من الاستقرار.

ومع ذلك فحالة الضعف والوهن بدت ظاهرة للعيان بتكرر حركات التمرد الداخلي، وازدياد جرأة الإمارات التركمانية على الحدود الشمالية لسوريا على التعدي على أراضي السلطنة بتشجيع من العثمانيين، وجاءت الضربة المؤلمة من الناحية الاقتصادية والمالية بتمكن البرتغاليين في إطار حركة الاكتشافات الجغرافية من الوصول إلى مصادر تجارة بضائع المحيط الهندي لاسيما التوابل وعجز المماليك عن طردهم من المنطقة بهزيمة الأسطول المملوكي في معركة ديو سنة 1505م، وعندما أراد السلطان الغوري التدخل في منطقة الأناضول مستغلا مصاعب ظرفية للعثمانيين لم تكن له الإمكانيات المادية والعسكرية لتحقيق ذلك وفي آخر عهده دخلت السلطنة حالة الاحتضار التي سيوضع حد لها عندما انهزم المماليك بقيادة الغوري أمام القوات التي يقودها السلطان العثماني سليم الأول في واقعة مرج دابق شمال سوريا في 1516م وقتل فيها السلطان العجوز ومرة ثانية في واقعة الريدانية قرب القاهرة في سنة1517م وبذلك طويت صفحة طويلة من تاريخ المنطقة لتبدأ صفحة جديدة في إطار الدولة العثمانية الفتية.

صورة مصر والمصريين
من خلال كتابات بعض الرحالة المغاربة *

مقدمة:

عندما نتحدث عن صورة الآخر فنعني به الآخر المغاير لنا. فهل يجوز الحديث حينئذ عن صورة المصري والمصريين في العهد المملوكي في حين أن ما استقر قي الذهن هو ان دار الإسلام واحدة في العصور الوسطى وأن المسلم مهما كان موطنه انه حينما يرتحل لاي غرض كان داخل هذه الدار فإنما هو يتنقل داخل "وطنه " بغض النظر عن الحدود السياسية التي كانت قائمة. فحيثما حل هذا المسافر المسلم فإنما يحل بين أهله وإخوانه في الدين. هذه الصورة النمطية هي في الحقيقة تحتاج إلى تمحيص وتدقيق ومن بين المصادر التي يمكن الاعتماد عليها هي ما تركه الرحالة من كتابات عن الأقاليم التي زاروها. وبالنسبة لمصر فإنها كانت ارض عبور للمغاربة الذين كانوا يتجهون للحج كما كانت قبلة هؤلاء المغاربة أيضا لأغراض أخرى مثل طلب العلم أو التجارة باعتبار أن مصر كانت في العهد المملوكي مركز إشعاع علمي وثقافي ومركزا للتجارة العالمية وقد ينتهي الأمر ببعض المغاربة إلى الاستقرار والاندماج في النسيج السكاني والاجتماعي لهذا البلد.

وقد ترك لنا بعض الرحالة المغاربة مؤلفات تتفاوت قيمة مادتها بشان هذه البلد وأهله ومن بين هؤلاء ابن جبير الذي مر بمصر في طريقه للحج سنة 578ه / 1183م وابن سعيد المغربي الذي اقام بمصر بضع سنوات وذلك قبل عام 652 ه/1254م والرحالة العبدري الذي زارها في طريقه إلى الحج في 689ه/1290م ثم الرحالة المشهور ابن بطوطة الذي مر بمصر عام 725ه/ 1325م ثم البلوي والذي زارها سنة 738ه/1337م وأخيرا الحسن الوزان الشهير بليون الافريقي الذي اقام بمصر في نهاية العهد المملوكي وبداية العهد العثماني أي 923ه/ 1517م[1].

---

* نشر هذا المقال ضمن أعمال الملتقى الدولي الذي نظمه "مخبرالعالم العربي الإسلامي الوسيط بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، بعنوان كالرحلة والرحالة في العالم العربي الإسلامي" أكتوبر2006، نشر المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد139، سنة2010،عدد خاص." .

1 - بشان تراجم هؤلاء الرحالة انظر: كراتشكوفيسكي (ا،ي) ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1987

I) تجانس البلاد:

1) بلاد واضحة الحدود الطبيعية:

إذا ما استثنينا الحسن الوزان فان بقية الرحالة لا يلتفتون إلى هـذا الجانـب، ومـع ذلك فانه بالإمكان أن نتبيّن أن لهم تصورا للحدود الطبيعية لهذه البلاد فهـم يعتـبرون أن وصولهم إلى الإسكندرية هو بداية اللقاء مـع مصر والمصريـين فهـذه المدينـة هـي بدايـة العمران والحضارة بعد اجتياز "القفر الموحش الذي يلي بلاد برقة"[1]، وهي إلى جانب ذلك نقطة وصل وفصل بين المشرق والمغرب حسب ابن بطوطة[2]، هذا من الجهة الغربية أمـا من الجهة الشرقية فان بلبيس الواقعة على طرف الفرع الشرقي لـدلتا النيـل هـي نهايـة الحدود الطبيعية لهذا القطر فبعدها يدخل المسافر عبر صحراء سيناء إلى جنوب فلسطين، فمن بلبيس تبدأ بلاد المفازات[3]، وبالتالي فان مصر تمتد من ناحية الشمال بين فرعي النيل الشرقي والغربي أي بين الإسكندرية وبلبيس، أما من الناحية الطوليـة أي مـن الشـمال إلى الجنوب فان المسافة هي مسيرة شهر "لمجد السير"[4]. وخلاصـة القـول فـان مصر في عـرف هؤلاء هي الدلتا والوادي أين يتركز الخصب والسكان والعمارة.

ولا يختلف الحسن الوزان عن هذا التصور لحدود مصر حين قـدم عرضـا مفصلا شيئا ما عن حدود البلاد وأقسامها، معتمدا في ذلـك عـلى معطيـين الأول طبيعي وتحديدا تضـاريسي ومـائي (ايكولـوجي) والثـاني هـو المشـهد ألفلاحـي، فيحدّ مصر غربـا صـحاري برقـا ونوميـديا وليبيـا ومـن ناحيـة الشرق المفـازات الواقعة بين النيل والبحر(الأحمر) وشمالا البحـر المتوسـط وتنتهـي حـدود مصر

---

1 - العبدري (محمد بن محمد الفاسي)، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط 1968، ص 89-90.

2 - ابن بطوطة (محمد بن عبد الـلـه)، تحفة النظار ...، دار الكتاب اللبناني، بيروت – دار الكتـاب المصري، د.ت، ص 23.

3 - نفس المصدر، ص 43.

4 - نفس المصدر، ص 43.

جنوبا عند بداية "بلاد البجاة[1]" أي بداية أخرى للخلاء و" التوحش ". ولئن حدد العبدري هذه الحدود بين أقصى شمال مصر وأقصى جنوبها مستخدما مقياس الزمن فان الوزان يحددها بنحو 450 ميلا[2]. ويضيف بان عرض البلاد يكاد يكون منعدما "فلا يشكل سو ى القليل من الأراضي الزراعية على ضفتي النيل بين جبال يابسة وصحار لكن لها بعض العرض قرب البحر شما ل القاهرة[3]" فتكون حدود مصر في شكل خط متعرج بداية من أقصى الجنوب ويأخذ شكلا مروحيا شمال القاهرة حتى البحر المتوسط [4] فتبدو بذلك مصر "هبة النيل" ولاشك أن صغر هذه المساحة وضيق هذا المجال يساهم في وحدة البلاد من الناحية الطبيعية .

2 – وسط طبيعي متجانس:

إذا كانت حدود مصر تتميز بالوضوح والصرامة فإنها تشكل أيضا وحدة طبيعية فهذه البلاد التي توجد في شبه عزلة عن العالم الخارجي هي أشبه ما تكون بواحة أو بستان متصل حسب وصف العبدري " فالبستان بسامي البستان والقرية تناظر القرية[5] "، ورغم هذه الوحدة الطبيعية فان هذا المجال الممتد والضيق في أن واحد يخفي بعض التنوع إذ أن الحسن الوزان يقسمه إلى عدة أقسام طبيعية :

- قسم أول ويشمل الأراضي الممتدة ما بين مدينتي القاهرة ورشيد من الجهة الغربية ويسميه الريف أي الساحل.

---

1 - نفس المصدر، ص 43.

2 - الوزان (الحسن)، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج2، ص 185.

3 - نفس المصدر، ج 2، ص186-187.

4- Hamdane(G), *La personnalité de l 'Egypte* ; Traduit de l'arabe par Ragaa Yacout, Dar al hilal - le Caire, 1987,p44-47

5 - العبدري، نفس المصدر، ص 145.

- قسم ثان ويمتد بين الفرع الثاني والثالث المتجه إلى دمياط ويسميه البحيرة لأنها اقرب إلى البحر.

- قسم ثالث يمتد من عالية مصر والقاهرة إلى تخوم بلاد البجة[1]، وهو ما يعرف ببلاد الصعيد. أما العبدري فيميز بين ثلاثة أقسام من مصر وذلك في إطار ذمه لسكان عاصمة السلطنة هذه الأقسام هي مصر والقاهرة عاصمة البلاد والريف أي منطقة الدلتا والصعيد أي وادي النيل بداية من جنوب القاهرة[2].

و يتفق هؤلاء الرحالون على أن أرض مصر هي سهل منخفض في غاية الخصوبة يرتوي بصفة طبيعية من فيضان النهر الذي تدين له مصر بكل شيء تقريبا.

3- النيل: أعجوبة مصر الكبرى:

إذا كان بالإمكان تعريف العجيب بإيجاز بكونه"الشيء غير العادي وغير المألوف والمثير للدهشة والانبهار[3] فان نيل مصر الذي لفت أنظار هؤلاء الرحالين وشد انتباههم بدون استثناء، هو بحق أعجوبة مصر الكبرى، فهو النهر الوحيد حسب هؤلاء يسمى بحرا ويما، مستندين في ذلك إلى ذكر هاتين التسميتين في القرآن[4]، يقول البلوي:"وما ظنك بمدينة عذب فيها البحر[5] .

وهذا النهر "الأعجوبة منابع مياهه ليست أرضية بل سماوية، مما يكسبه مكانة رفيعة بين انهار الأرض، ويجعل منه نهرا مباركا ينظر إليه بالإجلال والتقديس، ومصدر هذا النهر- مع ثلاثة انهار أخرى - هو سدرة المنتهى، فمن هنالك ينطلق نهران باطنان هما سيحون وجيحون ببلاد ما وراء النهر -

---

1 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 188.

2 - العبدري، نفس المصدر، ص 148.

3 -Voir, *L'etrange et Le Merveilleux Dans Lislam Médiéval* – Paris 1978.

4 - القصص، آية 7، العبدري، نفس المصدر، ص 145.

5 - البلوي (خالد بن عيسى بن أحمد)، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، مطبعة فضالة، المغرب (د.ت).ج1، ص217.

(أموداريا وسيداريا حاليا) - ونهران ظاهران، الفرات بالعراق والنيل بمصر[1]، بل يذهب البلوي إلى ابعد من ذلك بجعله مياه الجنة مصدر هذا النهر مستندا إلى حديث نبوي[2] فقداسة هذا النهر لا تخص العهد الإسلامي فقط وإنما هي في الحقيقة امتداد للعهود الماضية في تاريخ مصر وتجعل لماء النيل عذوبة خاصة ينفرد بها عن انهار الأرض الأخرى[3] وهذه الأعجوبة الكبرى تتضمن بدورها مجموعة أعاجيب صغيرة أخرى:

- الأولى هي اتجاه مجرى النهر فخلافا لكل انهار الدنيا يجري هذا النهر من الجنوب إلى الشمال[4].

- الأعجوبة الثانية تتمثل في فترة فيضانه إذ خلافا للأنهار الأخرى – باستثناء نهر السند- فان فيضانه يكون في فصل الحر والجفاف أي في فصل الصيف[5]. طبعا لا يقدم الرحالون تفسيرا لهذه الظاهرة وإنما تدرج ضمن الغريب والمعجز للتدليل على القدرة الإلاهية، ويفصل الحسن الوزان هذه الظاهرة خصوصا أثرها على البلاد والعباد، فيذكر انه لا يتم الخصب والرخاء إلا عندما يصل النهر حد الوفاء وهو 15 ذراعا وبضع أصابع، حين ذاك يطمئن المصريون إلى مصير الموسم الزراعي وإذا ما تجاوز هذا المستوى، فتلك هي الكارثة إنه الاستبحار الذي يدمر الأراضي الفلاحية، ولا يقل عنه خطرا سوى ظاهرة الشراقي أي الجفاف، عندما يقل مستوى الفيضان عن حد الوفاء المذكور، وفي كلا الحالتين يكون الموسم سيئا مما يكون له أسوأ الأثر على معاش الناس، إذ ينتج عن ذلك ندرة في المواد الغذائية وارتفاع مشط للأسعار، مما يؤدي إلى اختلال قاعدة العرض والطلب، ولجوء بعض أصحاب مخازن الحبوب وتجارها احتكار هذه المادة الأساسية جدا في غذاء السكان، بغاية

---

1 - ابن بطوطة، نفس المصدر، ج1، ص 55.

2 - البلوي،نفس المصدر ،ج 1،ص 220.

3 - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص 34.

4 - نفس المصدر، ص 35.

5 - ابن بطوطة ،نفس المصدر، ص 34 - 35 – العبدري، نفس المصدر،ص 148.

تحقيق أقصى ما يمكن من الأرباح، وإذا ما تواصل الحال بضع سنوات متتالية تحدث المجاعة، وما يترتب عن ذلك من وفيات جماعية، تزيد في حدّة الانهيار الديمغرافي، لذا كان المصريون يتتبعون بقلق بالغ مستوى فيضان النهر وتعم البلاد فرحة غامرة حينما يبلغ حد الفيضان حد الوفاء[1]. وهذا الاحتفال بوفاء النيل تقليد مصري قديم، ويتخذ طابعا رسميا وشعبيا، ويعد بحق بمثابة "عيد قومي" لكل المصريين بمختلف طوائفهم ونحلهم، والذي تواطأ أهل البلاد على الاحتفاء به منذ أزمنة بعيدة. ولتحديد مستوى الفيضان، ابتكر المصريون منذ القديم أداة لقياسه وهي" المقياس" [2] الذي وصفه بعض هؤلاء الرحالة بدقة بالغة.

ونظفر في رحلة العبدري بإشارة موجزة بشان أسلوب الري المتبع في مصر فيذكر أن لكل مدينة أو قرية على النيل خليج يعمد أهل البلاد إلى فتحه – عند الوفاء-لتغمر المياه الأراضي الفلاحية[3]، وهو أسلوب قديم في الري يعود إلى عهود غابرة يعرف بري الحياض(Irrigation par bassin)[4]. ومن أعاجيب هذا النهر أيضا أنه تعيش فيه حيوانات "عجيبة" مثل التمساح "الذي يوجد بكثرة في منفلوط"، ويعده الحسن الوزان أحد أسباب اضمحلال عمران المدينة بالتهامه العديد من سكانها[5].

وما يمكن اعتباره أعجوبة صغيرة أخرى هو استخدام النيل في حركة النقل بين نواحي مصر فيساهم في وحدة البلاد وتجانس سكانها إضافة إلى دوره في التجارة الدولية وقد تمت الإشارة إلى الدور الحيوي للنقل النهري لدى بعض هؤلاء الرحالة[6].

---

1 - الوزان،نفس المصدر،ج2، ص 213-214.

2 - نفس المصدر، ج2، ص 213 .

3 - العبدري، نفس المصدر، ص 146.

4 - Hamdane(G),*op cit* ,p 25-27

5 - الوزان، نفس المصدر، ج 2، ص 236.

6 - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص 32، - العبدري، نفس المصدر، ص 51، - الوزان (الحسن)، نفس المصدر، ج2، ص 192.

هـذه الوحـدة الطبيعيـة التـي وهبهـا النيـل لمصر لـن تكتمـل إلا بالإشـارة إلى الجانب المناخي من حرارة وأمطـار، لا تتعـرض مصـادرنا إلى هـذا الجانـب إلا بصـورة عرضية جدا، فلا نعثر على مادة إخبارية كافية تتحدث عن الأمطار ومواسم سـقوطها، ولعل ذلك دليل على شحتها في هذا البلد الصحراوي الذي يكتفي إجـمالا بمـياه النيـل. ومقابل ذلك هنالك تلميحات عن جو مصر الحار في فصل الصيف فابن سعيد المغـربي يتحدث عن صيف القاهرة القائظ ، والذي يخفف مـن وطأتـه وسـط المدينـة بعـض أسواقها [1]، وتكون هذه الحرارة مفرطة في اتجاه أقصى الصعيد وهي بين أسباب مـيلان بشرة سكان أسوان إلى السواد حسب الحسن الوزان[2].

أما ابن بطوطة فقد فضـل المبيـت عـلى سـطح الزاويـة بمدينـة فـوّة الواقعـة بالدلتا بسبب شدة الحر[3].

و يبدو أن هنالك فوارق حرارية بين فصلى الصيف والشتاء، ونتبـين ذلـك مـن خلال ذكر الحسن الوزان لبعض قطع الملابس التي يرتـديها بعـض سـكان العاصـمة في هذين الفصلين[4] ولا شك أن للقاهريين وغيرهم مـن سـكان الـبلاد المصريـة وسـائلهم المبتكرة للتخفيف من وطأة الحر والقرّ[5].

و صـفوة القـول أن مصر رغـم بعـض التنـوع في وسـطها الطبيعـي إلا أنهـا متجانسة إلى حد بعيد جدا وهو ما يسهل عملية الانصهار السكاني.

---

1 - ابن سعيد (علي بن موسى المغـربي)، النجـوم الزاهـرة في حـلي حضرة القـاهرة، تحقيـق حسـين نصار، القاهرة 1970، ص 25.

2 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 241.

3 - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص 27-28.

4 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 216.

5 - نفس المصدر، ج2، ص 191.

II) حشر بشري وشبكة حضرية كثيفة جدا:

1) الحشر البشري:

ضبط بعض رحالتنا "بداية ونهاية" حدود مصر بكثافة الاستقرار البشري وبالعمارة، وقد شدّ انتباههم جميعا تكدس السكان في هذا المجال الجغرافي الضيق للغاية .لقد أدهشتهم هذه الظاهرة السكانية والعمرانية التي لا نظير لها في بلاد المغرب، لكن مع ذلك فلا نظفر في هذه الرحلات عن أرقام ولو تقديرية عن عدد السكان سواء لكل البلاد أو لمدنها، نستثني من ذلك الحسن الوزان بخصوص العاصمة. يعبر ابن بطوطة عن دهشته لهذا العدد الضخم لسكان مصر والقاهرة فهي "بلد تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها [1]"

أما العبدري فيشير إلى استحالة تقدير عدد السكان مدينة كبيرة[2]. "ويؤكد هؤلاء الرحالة أيضا على ظاهرة فريدة تتميز بها مصر عن غيرها من بلدان المنطقة، وهي اتصال العمارة في منطقة الدلتا وعلى طول وادي النيل، فحسب ابن جبير يسير المسافر "من دمنهور إلى القاهرة في بسيط من الأرض افيح متصل ... والقرى فيه يمينا وشمالا لا تحصى كثرة، " ويضيف " ومن جزيرة الروضة – بجوار القاهرة- إلى قوص – أقصى الصعيد – تكون القرى منتظمة ... في شطي النيل[3].

ويؤكد العبدري هذه الظاهرة السكانية والعمرانية، فأنت "... تسافر إلا في عمارة متصلة فكأن المسافر لم يزل في مدينة[4] " إنه حشر بشري بأتم معنى الكلمة "Fourmiliére humaine "، فكل السكان تقريبا محصورون في شريط الوادي ومنطقة الدلتا، وهي ظاهرة قديمة مرتبطة بضيق المجال، واعتماد زراعة مروية بواسطة النهر، وهي على ما يبدو سمة اختصت بها المناطق النهرية الكبرى .

---

1 - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص 33.

2 - العبدري، نفس المصدر، ص 125.

3 - ابن جبير، نفس المصدر، ص 47.

4 - العبدري، نفس المصدر، ص 145.

2) شبكة حضرية شديدة الكثافة:

هذا التكدس البشري سيكون له تأثيره المباشر على شبكة المدن والقرى والتي أدهشت هي الأخرى هؤلاء الرحالين حينما أكدوا على "اتصال العمارة" على طول الوادي وبالدلتا. ويأخذ هذا التكدس من خلال مصادرنا شكلين اثنين:

- استقرار بشري ذو طابع قروي، يعبر ذلك عن كثرة القرى في الدلتا والوادي وتجاوره، مع العلم إننا لا نعرف ما هي المقاييس المعتمدة لهذا التصنيف، ويعبر العبدري عن حالة الاندهاش بقوله :" فما ظنك بأرض ما بها قرية إلا وهي تناظرا[1]، مما يعني أن غالبية سكان مصر هم من القرويين الذين يمارسون أساسا النشاط الفلاحي، وهي ظاهرة قديمة في هذا البلد. ووصف ابن سعيد بإيجاز شديد المظهر الخارجي لهذه القرى، والذي يوحي بالقبح والبؤس فهي داكنة اللون[2]، وهذه الملاحظة لاشك أنها مستعجلة، باعتبار إن مادة البناء متأتية من الطين الذي يرسبه النهر في فترة الفيضان، ويستخدم في البناء بعد خلطه بماد نباتية وتجفيفه وهو ما يعرف باللبن. أما الشكل الثاني، فهو الاستقرار ذو الطابع الحضري والمتمثل في المدن بمختلف أحجامها، كما أن هذا المفهوم يبدو غير واضح ولا نعلم ما هي المقاييس المعتمدة أيضا في هذه التصنيف، فربما يكون المقياس هنا الانطباع الشخصي انطلاقا من المظهر الخارجي لهذا التجمع السكاني أو ذاك، في حين أن المدينة عند الجغرافيين المسلمين هي تلك التي بها منبر أي جامع وقاض. ويمكننا ابن جبير من خلال ملاحظة ثمينة بهذا الشأن، تبين بعض هذه المقاييس وإن كانت تفتقر إلى الوضوح الكافي، فعند وصفه لمدينة أبوتيح مثلا، يذكر أنها تتوفر على مجموعة من المنشآت الدينية والمدنية تجعلها في مصاف المدن[3].

---

1 - نفس المصدر، ص 145.

2 - ابن سعيد، نفس المصدر، ص 22-23.

3 - ابن جبير، نفس المصدر، ص 58.

أما ظاهرة البداوة، ونقصد بـذلك سـكان الخيـام- المترحلـين أو شـبه المترحلـين- فيبدو أنها منعدمة في هذا البلد، فلا نجـد لهـا آثـرا في مصـادرنا، ولعـل ضـيق المجـال وأسلوب الزراعة المعتمد، وقدم التعمير، هو الذي حـال دون بروزهـا رغـم أن ذلـك لا يعني انعدام الظاهرة القبلية في هذا البلد .

والخلاصة أن مصر بلد ذو طابع حضري بامتياز، ويتمتع بشبكة كثيفة جدا مـن المدن من مختلف الأحجام، فقد وصف ابن جبير بإيجـاز 19 مدينـة مـر بهـا أو أقـام فيها لبعض الوقت، أما ابن بطوطة فذكر 29 مدينـة مـرّ بهـا في طريقـه إلى الحـج، في حـين أحصى الحسـن الـوزان 33 مدينـة، تقـع في القسـم "الإفريقـي"، ولم يـذكر المـدن الواقعة في القسم "الآسيوي" من مصر.

و مرة أخـرى يلتـبس علينـا الأمـر بشـا ن تصـنيف أحجـام المـدن مـن صـغيرة ومتوسطة وكبيرة وربما لا يخرج الأمر مرة أخرى عن دائرة الانطباع الشخصي، والمظهـر الخارجي للتجمعات السكانية، فعلى سبيل المثال تعـد أبـوقير مدينـة متوسـطة، يبلـغ عدد كوانينها نحو 300 كانون، وإذا اعتمدنا معدل خمسة أفراد للكانون الواحـد فـان المجموع 1500 شخص[1]. ويمكن وضع أعداد تقديرية وجزئية للمدن المصرية في هذه الفترة من خلال ابن بطوطة والحسن الوزان باعتبار أن الأول لم يذكر سوى المدن التي مر أو أقام بها لبعض الوقت في حين أن الثاني لم يصـف سـوى "اشـهرا لمـدن عـلى ذراع النيل الكبير[2] .

الرحالة	حواضر كبرى	مدن كبيرة	مدن متوسطة	مدن صغيرة	مدن لم يحدد حجمها
ابن بطوطة	01 مصر والقاهرة	13	_	05	11
الحسن الوزان	01 مصر والقاهرة	09	07	_	10

1 - الوزان ، نفس المصدر ، ج2، ص 197.

2 - نفس المصدر ،ج2، ص 193.

وبدون شك فان هذه المعطيات لا تعكس الصورة الحقيقية للشبكة الحضرية بسبب جزئية الإحصاء من ناحية وعدم وجود تصنيف واضح للمدن حسب أحجامها فكل الأمر مرتبط بالتقدير الشخصي للرحالة. وعلى كل فيمكن القول بان مصر عبارة عن مجرة حضرية ليس لها ما يضاهيها في المنطقة وعلى حد تعبير العبدري "فكأنك لم تزل في مدينة[1]" وتحظى منطقة الدلتا بالقسم الأوفر من المدن مقارنة مع الوادي وذلك لاعتبارات طبيعية تاريخية - سياسية واقتصادية. وهذه المجرة تمتد كما ذكر الحسن الوزان على نحو 450 ميلا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وترتبط هذه المدن بنشاط اقتصادي واحد أو أكثر.

مصر والقاهرة	الإسكندرية	منفلوط	منية الخصيب	المحلة	قوص	ديروط	برنبال	الخيام	محلة قيس
التجارة والحرف	التجارة والحرف	الفلاحة والتجارة مع بلاد السودان	الفلاحة والتجارة مع بلاد السودان	صناعة النسيج	الفلاحة وتجارة المحيط الهندي	الفلاحة وصناعة السكر	زراعة الأرز و تجار	تربية الدواجن	الصيد البحري

إلا إن هذه الشبكة الحضرية قد عرفت تقلبات عدة خلال الفترتين الأيوبية والمملوكية وتأثرت بالأحداث السياسية وتقلباتها وتطورات الحياة الاقتصادية وبالكوارث الديمغرافية التي أصبحت تضرب مصر بصفة دورية حسب الحسن الوزان[2]، وقد لاحظ هذا الرحالة أيضا التدهور العمراني في أواخر العهد المملوكي، فمدينة أبوقير أصبحت خربة، أما مدينة رشيد فأضحت حسب قوله اقرب إلى القرية منها إلى المدينة[3].

1 - العبدري، نفس المصدر ص 145.

2 - الوزان (الحسن)، نفس المصدر،ج2، ص 192.

3 - نفس المصدر،ج2،ص197-198.

ويبرز هذا التراجع العمراني خاصة في عاصمة السلطة،إذ انتشر الخراب في العديد من أحيائها وقل عدد سكانها، أما ربض القرافة قد تراجع حجمها وعدد سكانها بفعل الكوارث والمحن فيذكر الوزان" انه كان قديما عامرا أكثر مما هو عليه في الوقت الحاضر اذ يكاد يكون خربا[1]" ومهما يكن من أمر فان هذه المجرة الحضرية تعد بدورها احد مواطن وحدة البلاد المصرية أرضا وبشرا لكن مع بعض التنوع ويبدو ذلك بالخصوص على المستوى الديني فرغم إن عملية الأسلمة قطعت شوطا بعيدا بتحول الأغلبية القبطية إلى أقلية إلا انها مازالت واضحة الوجود في بعض المدن فسكان مدينة الخيام في الصعيد هم من النصارى اليعاقبة والمسلمون الوحيدون بها هم، الوالي وأفراد أسرته[2].

واحتفظت بعض المدن الاخرى بوجود مسيحي قوي نسبيا من خلال الكنائس والأديرة العامرة مثل أسيوط[3]، في حين إن مدنا كبيرة مثل مصر والقاهرة والإسكندرية كانت يتعايش فيها المسلمون مع أهل الذمة من يهود ونصارى[4] .

وضمن هذه الشبكة الحضرية تحتل العاصمة مصر والقاهرة مكان الصدارة لا باعتبارها الحاضرة الكبرى للسلطنة بل الحاضرة الحاضرة الكبر ى للعالم الإسلامي المتوسطي وقد شدت أكثر من غيرها من المدن أنظار الرحالة المغاربة .

3) مصر والقاهرة: حاضرة عالمية كبرى :

هي في الحقيقة مركب عواصم منذ الفتح الإسلامي إلى آخر العهد المملوكي فالمقصود بمصر هنا هي الفسطاط والعسكر والقطائع تضاف لها

---

1 - نفس المصدر،ج 2،ص 210-211.

2 - نفس المصدر ،ج2،ص 239.

3 - نفس المصدر ، ج2،ص 236-237.

4 - نفس المصدر ،ج2 ،ص 196.

القاهرة منذ انتصاب الخلافة الفاطمية في مصر ويبدو أن مدينة مصر لم تلتحم بشكل تام عند زيارة ابن جبير لهذا البلد [1] إلا أن وتيرة الاندماج بين المدينتين كانت متسارعة. هذه العاصمة كانت مصدر اندهاش وإعجاب من قبل الرحالة فيصفها الوزان بالقاهرة العظمى العجيبة[2]، أما البلوي فيصفها بكونها " قاعدة بلاد المشرق وأم المدائن[3] لكن رغم هذا الإعجاب فان ابن سعيد لمغربي لا يتردد في التقليل من شانها إذ يرى أن شهرتها فاقت الواقع الحقيقي للمدينة ف"اسمها أعظم منها[4] "، أما العبدري فرغم عدم إخفاء إعجابه بالمدينة وامتدادها وضخامتها إلا انه يحط من شانها فيرى بان ضخامتها مسيئة لها اذ أن عمارتها "خرجت عن الحد واتساعها ..." عن الحد المألوف[5]، فهو تضخم مرضي .

و لئن اتفق جميع الرحالين على شساعة المدينة،و امتداد عمارتها في كل الاتجاهات، فان الاختلاف حاصل بينهم بشان مكانة المدينة، فعدّها ابن جبير والبلوي وابن بطوطة مدينة "مباركة" لما احتوته من منشآت وعمائر دينية، وما ضمته بين جنباتها من قبور ومزارات ومشاهد للأنبياء وبعض الصحابة وبعض آل البيت والعلماء والصلحاء[6]، بل هي أكثر من مدينة مباركة، فبعض أرضها "روضة من رياض الجنة" ويقصد بذلك جبل المقطم والقرافة (المقبرة الكبرى للعاصمة)[7]، كما أن ماء نيلها – كما أسلفنا القول– عذب زلال مصدره الجنة .

---

1 - ابن الجبير، نفس المصدر ،ص 52.

2 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 203.

3 - البلوي ،نفس المصدر،ج1،ص 203.

4 - العبدري، نفس المصدر،ص 22.

5 - ابن سعيد، نفس المصدر،ص 125.

6 - ابن جبير، نفس المصدر، ص 48-51، - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص 33-34.

7 - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص 34.

مقابل ذلك فان العبدري لا يخفي كراهيته لأهل هذه المدينة وتحامله عليهم، لذلك تبدو مصر والقاهرة على غير الوجه الذي أشاد به الرحالون المذكورون سابقا،فهذه المدينة في نظره" مدينة مظلمة تنعدم في أهلها الفضائل[1]"، بل هي مدينة ملعونة، ومصدر هذه اللعنة مرتبط بمؤسسي القاهرة وهم بنو عبيد (الفاطميون)، فبانيها " هو عبد الزنادقة " حسب تعبيره، ويقصد به جوهر الصقلي، لذلك بقيت المدينة وأهلها يتوارثون عبء هذا التأسيس المذموم، وربما كان هجاء العبدري للمدينة وأهلها هو نتيجة لشخصيته المزاجية الحادة، أو لصدمة الاستقبال في الإسكندرية، الذي "حظي "به من قبل رجال الجمرك إذ تعرض للإهانة والإذلال مثلما حصل سابقا لابن جبير[2].

وفي هذه المدينة المترامية الأطراف شدّ انتباه الرحالين ثراؤها المعماري لما احتوته من عدد كبير من العمائر الدينية والمدنية والعسكرية، والتي يعدّ اغلبها تحفا معمارية في غاية الروعة، مثل قبة الإمام الشافعي ومشهد السيدة نفيسة ومشهد الحسين وجامع ابن طولون وجامع عمرو ابن العاص، وبما زخرت به من ترب خاصة بالسلاطين والأمراء والأعيان، أو من مدارس للتعليم الديني مثل مدرسة السلطان حسن، ومارستانات مثل المارستان المنصوري، وقلعة الجبل مقر الحكم والتي تعد مدينة صغيرة لما احتوته من قصور ودور ومقرات للدواوين الحكومية إضافة إلى المنتزهات العديدة وتعد القرافة أعجوبة لهذه الحاضرة فهي ليست كغيرها من المقابر بل هي مدينة يتساكن فيها الأحياء والأموات جنبا إلى جنب في ألفة غريبة، فمدينة "الأموات" هذه تزخر بالحركة والحياة، بما احتوته من ترب ومدارس ومساجد وأسواق ومتساكنين[3] .

---

1 - العبدري، نفس المصدر، ص 125-127.

2 - العبدري، نفس المصدر، ص 93-94، - ابن جبير، نفس المصدر، ص 44-45.

3 - ابن جبير، نفس المصدر، ص 49-51، - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 210-211.

وحده الحسن الوزان الذي سعى إلى وصف مصر والقاهرة وتقديم مادة متنوعة عن المدينة وسكانها وتقديم أرقام تقديرية لعدد سكان بعض أحيائها وأرباضها والجدول التالي يتضمن هذه التقديرات لعدد الأسر(الكوانين) :

الحي أو الربض	عدد الكوانين	العدد التقريبي للسكان
المدينة المسورة	8000	40000
ربض بولاق	4000	20000
ربض باب زويلة	12000	60000
ربض اللوق	4000	20000
ربض القرافة	2000	10000
جزيرة الروضة	1500	7500

وإذا اعتبرنا معدل انفراد الكانون الواحد 5اشخاص فالمجموع هو 152500 نسمة. ورغم ان هذه الأرقام لا تشمل كل العاصمة إذ لم يقدم الوزان أرقما عن أرباض ذكرها مثل ربض جامع ابن طولون أو مصر العتيقة - (الفسطاط) - ورغم التراجع العمراني الذي عرفته المدينة في أواخر هذا العهد، فإننا نعتقد بأنه غير بعيد عن حقيقة الحال ولا شك أن عدد السكان حتى بالنسبة للأحياء والأرباض أعلى بكثير، فيقدر الرحالة جوتشي دي دينو على سبيل المثال بان عدد السكان أواسط العهد المملوكي بنحو 3 ملايين نسمة، وهو بدوره رقم مبالغ فيه للغاية[1]، ويقدر اندريه ريمون عدد سكان القاهرة في أوائل القرن السادس عشر بنحو 200.000[2]، في حين يقدر ج.ك.جارسان سكان القاهرة الكبرى في القرن الثالث عشر.م. قبل الطاعون الأسود يزيد عن 300000، وفي1517 بنحو 270000 [3] نسمة.

1 - فولكوف (أولج)، القاهرة، مدينة ألف ليلة وليلة، ترجمة أحمد صليحة، القاهرة 1986، ص96.

2 - Raymond(a.)."La population du Caire, de Maqrizi à la Description de - l'Egypte",*BEO*, 28,1977,p205.

3 - Garcin(J.C.) , Notes sur la population du Caire en 1517.*Collection de l'Ecole - Française de Rome*, 2000, p213.

وككل الحواضر الكبرى فإنها كانت تعاني من جملة العيوب حسب بعض هؤلاء الرحالة:

- أولى هذه " العيوب " هو إن مصر والقاهرة حاضرة لا تنام، إذ يتصل ليلها بنهارها فتظل المحلات خاصة في الأرباض مفتوحة طيلة الليل تقدم خدماتها، من ذلك المطاعم وقد استاء العبدري من ذلك، لان الجلبة والضوضاء الصادرة عن هذه المحلات ومن الشارع تمنع الإنسان من النوم[1] ولعل هذا الذم وفي الحقيقة مديح للمدينة.

وتعاني المدينة أيضا خاصة الأسواق من الازدحام الشديد، وسبب ذلك ضيق الشوارع والأزقة من ناحية و"سيول البشر" التي تتدفق على المدينة من ناحية أخرى، مما يعطل حركة السير خاصة وأن بعض الحيوانات مثل الحمير والجمال كانت "تشارك" في استعمال هذه الأزقة، وكان التنقل لمسافات كبيرة داخل القاهرة الكبرى وإلى ضواحيها يؤمنها المكاريون، وهم يعدون بالآلاف، إذ ذكر ابن بطوطة رقم 30000الف مكار يستخدمون أحمرة قوية وسريعة العدو، واشتكى منها ابن سعيد في أحد تنقلاته في هذه الحاضرة الضخمة[2]. وإضافة إلى الجمال التي يستخدمها السقاءون إلى جانب الحمير، بنقل المياه من النيل إلى المدينة.

أما المشكلة الموالية فهي نظافة المدينة، إذ اشتكى العبدري وابن سعيد من الغبارفي فصل الحرّ والناتج عن حركة تنقل البشر والدواب داخل المدينة وكثرة الأوحال عند فيضان النهر، وقد لاحظ الوزان انتشار القمامة وتراكمها في عدة مواضع خربة من المدينة، وهو ما يؤكد مرة أخرى التدهور العمراني للمدينة، وانشغال السلطات الحاكمة عن ذلك خصوصا المحتسب[3].

---

1 - العبدري ، نفس المصدر ،ص 128.

2 - ابن بطوطة، نفس المصدر، 32،- ابن سعيد، نفس المصدر، ص 25، - المقري، نفح الطيب، ج1، ص 486.

3 - العبدري، نفس المصدر، ص 24، - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 210-211.

كما يعد الحر الشديد لفصل الصيف من العيوب التي اشتكى منها الرحالون، فجو المدينة يصبح غير محتمل في هذا الفصل[1].

ورغم أن هذه المدينة تقع كما يقول ابن سعيد "على ارض النيل" فإنها"تعيش الضمأ"[2]، وهو أمر مثير للاستغراب حقا، وقد وصف أغلب الرحالين مشهد السقاءين، الذي يبلغ عددهم حسب ابن بطوطة نحو 12000 سقاء في مشهد لن يختفي حتى نهاية القرن 19م، فكانوا جزءا لا يتجزأ من المشهد الحضري لهذه المدينة، يسوقون الدواب من جمال وبغال وحمير، التي تحمل روايا الماء في حركة ذهاب وإياب بين المدينة والنيل، وهؤلاء السقاءون يبيعون الماء بالجملة(أصحاب الروايا والقرب)، وإلى جانبهم يوجد سقاءون يبيعون بالتجزئة(وهم أصحاب الحوانيت والباعة المتجولون وعرفوا بأصحاب الأكواز)[3].

وعلى غرار المكاريين فإننا لا نعرف الكثير عن تنظيم هذه المهنة ونظام عمل السقاءين. وإذا كانت حاضرة البلاد المصرية قد أثارت الإعجاب والد هشة لدى هؤلاء الرحالين بما احتوته معالم متنوعة للغاية وحركة لا تكاد تهدأ لسكانها وأماكن للنزهة والفرجة فان الآثار السابقة للعهد الإسلامي كانت الأكثر شدا لانتباههم وإثارة لفضولهم لكونها تدخل في باب الغريب والعجيب.

4) غرائب البنيان:

إن الماضي العريق لهذا البلد غير خاف عن كل هؤلاء الرحالة وعند دخولهم مصر، فإنهم يطلعون على غرائب البنيان التي خلفها السابقون، ويرون رأي العين ما يثير الدهشة والانبهار، فلا تخلو كتب هؤلاء من وصف لكثير أو

---

1 - ابن سعيد ، نفس المصدر، ص 24.

2 - نفس المصدر ،ص 25 - المقري ، نفس المصدر ،ج1 ص 483.

3 - البلوي، نفس المصدر، ج1، ص 218، - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص 32، - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 217-218.

قليل من هذه الآثار التي تعود إلى العهود ما قبل الإسلامية، فعند نزولهم بالإسكندرية يشدهم منار هذه المدينة احد عجائب الدنيا السبعة، ولا يخفون التعبير عن إحساسهم بالإعجاب بهندسة وشكل هذا البناء فطالما سمعوا به أو قرؤوا عنه، وهاهم يشاهدون عن قرب[1] هذا المنار الذي كان يستخدم للمراقبة وإرشاد السفن، فكان من غير الممكن زيارة المدينة دون زيارة منارها الشهير فلا يمكن ذكر المدينة دون ذكر المنار، كما أن المسلة الموجودة خارج المدينة أو ما سمي بعمود الصواري كان محل دهشة وانبهار بل إن المدينة كلها مصدر عجب وإعجاب بتخطيطها الذي يعود إلى عهد البطالمة[2].

وعند الإقامة بالقاهرة لم يكن بالإمكان تفويت فرصة مشاهدة الأهرامات الفرعونية بمنطقة الجيزة هذا اللغز المعماري في نظر زائريها في ذلك العصر فقد أشار ابن جبير إلى إعادة استعمال حجارة بعض الأهرامات في تشييد قلعة القاهرة[3] كما وقف بعضهم مشدوها غير بعيد عن هذه الأهرامات تمثال أبي الهول برأسه الآدمي وجسمه الحيواني وقد تضمنت بعض هذه المصادر ابيضا وصف المعابد والآثار القديمة لبعض مدن مصر خاصة برابي اخميم والكتابات الجدارية بمنفلوط، التي أثارت حيرة الحسن الوزان[4].

والحقيقة أن هؤلاء الرحالين أينما حلوا بمدينة من مدن مصر كان يصادفهم غريب البنيان وعجيب الآثار وهي شواهد على عظمة حضارة هذا البلد وشكلت عنصرا من شخصية هذه البلاد وأهلها ولا شك أن شخصية الإنسان المصري في هذا العصر كما في غيره من العصور قد استمدت بعض ملامحها من هذا الماضي العريق.

1 - ابن جبير، نفس المصدر، 45.

2 - نفس المصدر، ص 45، - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 193-195.

3 - ابن جبير، نفس المصدر، ص 54.

4 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 236-237.

III) صورة المصري:

إن المعطيـات المتعلقـة بصـورة الإنسـان المصري في تصـور الرحـالين المغاربـة شحيحة للغاية ولا تكفي لرسم صورة متكاملة عن ملامحه الخارجية وطباعه وأخلاقـه وذهنيته، والإشارات التي نظفر بها تتسم إجـمالا بصـبغتها الانطباعيـة فيغلـب عليهـا المديح بالنسبة لابن سعيد وابن جبير والبلوي وابـن بطوطـة، في حـين يقـف العبـدري موقفا مضادا تماما في انتقاده اللاذع للمصريين وتحامله عليهم إلى حد الهجاء والإعـلان عن رغبته في المغادرة السريعة لهذا القطر، في حين كان موقف الحسن الوزان معتـدلا بمحاولة إعطاء صورة اقرب إلى الحيادية، وأولى عناصر هذه الصورة تتعلق ب:

1- الملامح الجسدية (portrait physique Le):

وهذا الجانب يوفره كل من العبدري وبصورة موجزة في القدح والـذم والحـط من شان المصريين، في حين إن المعطيات التي يوفرهـا الحسـن الـوزان في إطـار وصـفه للبلاد والعباد هي أكثر تفصيلا. ،فحسب العبدري يتميز المصري بسمرة بشرته اذ "قلما ترى رجلا صافي اللون إلا كان من غيرها[1] " وللتأكيد عـلى هـذا الجانـب فعنـد وصـفه للشيخ شرف الدين الدمياطي يصفه ببياض البشرة[2]، ويوافقه الـوزان في هـذا الجانـب، فحسب قوله "يكاد يكون جميـع سـكان هـذا الـبلاد سـمرة ألا المـدنيين فـان بشرتهـم بيضاء[3] " ولا ندري ما المقصود هنا بالمدنيين هل هـم الأجانـب المقيمـون في مصر مـن المنتمين إلى"الجنس الأبيض " مثل الشوام وبعض المغاربة والمماليك.

---

1 - العبدري، نفس المصدر، ص 127.

2 - نفس المصدر، ص 133.

3 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 186.

ويضيف الوزان بان هـذه الـبشرة السـمراء تـزداد سـمرة كلـما تـزداد إلى أقصى الصعيد فهي اقرب إلى السواد ببلاد أسـوان المتاخمـة لـبلاد البجـة، ويحـاول أن يقـدم تفسيرا منطقيا لذلك فيعلّل شـدة سـمرة أهـل أسـوان بعـاملين عامـل منـاخي يتعلـق بالحرارة المفرطة في هذا الإقليم وبعامل اجتماعي واثنولـوجي ويتعلـق بـاختلاط أهـل هذا الإقليم بالنوبيين والأثيوبيين عن طريق المصاهرات والزواج[1] والأهم من كـل هـذا أن الوزان عند تعريفه بأ صل المصريين فانه ينسبهم إلى شخص"مصرائيم بن كوش بـن حام بن نوح[2]" وإذا أخذنا بالتقسيم الكلاسيكي للسلالات البشريـة فـان المصريـين بنـاء على ذلك ينتمون إلى الجنس الحامي الذي يتميز بالسمرة حسب هذا التقسيم. ولسنا هنا بمعرض مناقشة هذه الإشكالية فـلا شـك أن القاعـدة السـكانية لهـذا البلـد وهـم الأقباط قد اختلطـت دمـائهم بـدماء المجموعـات التـي وفـدت إلى الـبلاد منـذ أقـدم العصور حتى عصر الوزان التي جـاءت مـن كـل الجهـات مـن الهكسـوس والعبرانيـين والإغريق والرومان والقبائل العربية التي وفدت على المنطقـة والصـقالبة والأرمـن...،و باختصار فان هذا البلد عرف على المدى الطويـل هجـرات متعاقبـة انصـهرت كلهـا في بوتقة واحدة.

ولا نظفر بمعطيات أخرى تتعلق بالجسد مثل الطول وشـكل الجمجمـة... عـلى أن العبدري يشير إلى الناحية الجمالية في إطار حطه دائما مـن شـان المصريـين، فيـذكر أنهم يمتازون بالدمامة، بل هم الأشدّ دمامة بين البشر[3].

ألا أن الحسن الوزان يناقضه في ذلك فهو يمتدح نساء مدينة طيبة فيـذكر أن "لطفهن لا يقل عن جمالهن"[4].

---

1 - نفس المصدر، ج2، ص 241.

2 - نفس المصدر، ج2، ص 188-189.

3 - العبدري، نفس المصدر، ص 126.

4 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 199.

وإلى جانب هذه المعطيات بشان بعض ملامح المصري الجسدية وتحديدا لون البشرة فان العبدري وحده هو الذي يتعرض إلى اللهجة المصرية.

2- لهجة المصريين:

تجدر الإشارة إلى أن إغفال هؤلاء الرحالة الحديث عن الجانب اللغوي يعني ضمنيا انه لا وجود لعوائق على هذا المستوى في التواصل مع المصريين مما يعني أيضا أن عملية استعراب مصر قد اكتملت تقريبا في العهد المملوكي وآن اللغة القبطية أصبحت في حكم اللغة المندثرة أو تكاد. وعندما يتعرض العبدري للهجة المصريين أو نطقهم لبعض الحروف فان ذلك يندرج أيضا في نطاق التحقير والسخرية فيذكر إنهم ينطقون حرفي القاف والكاف همزة وإذا ما علمنا صحة نطق الحرف الأول (القاف) في بعض مناطق الدلتا وخصوصا في العاصمة فلا ندري صحة نطق الحرف الثاني.

و ربما كان مثيرا للاستغراب عدم تعرضه إلى تلفظ المصريين بالجيم وبغض النظر عن دواعي العبدري من ذكر طريقة المصريين في التلفظ بحرف القاف[1] فان هذه الإشارة هامة إذ تساهم في المساعدة على التعرف على مواطن استقرار المجموعتين القبليتين اليمنية والقيسية اللتان أثرتا بشكل لا شك فيه في اللهجة العربية المصرية والتي أصبحت مميزة عن غيرها من اللهجات العربية الأخرى وبها يتميز المصري عن غيره من الناطقين باللهجات العربية ويتمادى العبدري في هجاءه للمصريين على المستوى اللغوي أيضا فيصفهم بالعيي ونقص الفصاحة ولاندري ما هي المقاييس التي اعتمدها لإصدار هذا الحكم. وإذا كان المصري متميزا إلى حد ما عن غيره من خلال ملامح وجهه وبشرة وجهه وطريقة نطقه فهل ينطبق ذلك أيضا على ملبسه ومأكله ومشربه.

1 - العبدري، نفس المصدر، ج2، ص 205.

3 - لباس المصريين ومطبخهم:

إن هذه الناحية مهمة جدا في تحديد انتماء الشخص أو أي جماعة بشرية، فهو إلى حد ما نوع من بطاقة تعريف يحملها الإنسان على جسده، ولا شك أن لباس المصريين قد تطور خلال هذه الفترة الطويلة (الأيوبية والمملوكية)، إلا أننا نعتقد انه تطور بطيء من حيث إشكاله ومواده، وتطلب منه عادة ناحيتان أساسيتان أن يكون مريحا ووظيفيا، والحقيقة أن المعطيات تعوزنا كثيرا في هذا الجانب فجلهم لم يكن يعيره أي اهتمام، وحده الحسن الوزان الذي يقدم بعض التفاصيل بشان لباس الرجل القاهرة والمرأة القاهرية بدون تحديد واضح للفئة الاجتماعية أو الدينية التي ينتمي إليها، فهنالك حسب هذا الرحالة لباس صيفي يتناسب وحرارة الطقس وآخر شتوي يتناسب وانخفاض هذه الحرارة، فلباس الشتاء عبارة عن قمصان صوفية وأخرى محشوة بالقطن، أما لباس الصيف فهو عبارة عن قمصان كبيرة مصنوعة من القماش الرقيق وتوضع فوقها ملابس من القماش المنسوج بالحرير المخطط بالألوان، وتوضع على الرؤوس عمائم كبيرة من قماش الكريب المستورد من الهند، ويصف الوزان هذه الألبسة بأنها حسنة[1]، ونعتقد أن هذا الصنف من الألبسة خاص بالفئات الثرية من المجتمع من أمراء وعلماء وكبار موظفي الدولة...، ومع ذلك فان هذا الوصف لا يمكننا من تبين الصنف الاجتماعي أو المهني الذي ينتمي إليه من يرتدون مثل هذه الملابس خاصة وأن فئات من المجتمع المصري آنذاك كانت متميزة بملابس تميزها عن غيرها مثل الأمراء المماليك والفقهاء والقضاة ...

أما لباس المرأة القاهرية أو بالتحديد النساء المنتميات للفئات العليا، فيذكر الحسن الوزان انه كن يلبسن الحجاب ويضعن النقاب على وجوههن وربما اشترك في هذه الناحية إلا أن لباس نساء الفئات العليا للمجتمع تميزت

1 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 205.

بالأناقة والفخامة[1]، وهو ما يميزهن عن نساء العامة، ويضيف أنهن يحملن أكاليل على جباههن وعقودا في أعناقهن ويضعن على رؤوسهن غطاءا ثمينا ضيقا بقدر شبر على شكل أنبوب ويتكون لباسهن من فستان من الجوخ فيختلف نوع الثوب لكن الفستان مصنوع بعناية ومزدان بطرز جميلة، ويتدثرن بغطاء من نسيج القطن بالغ الدقة والنعومة مستورد من الهند، ويضعن على وجوههن غلالة سوداء رقيقة جدا أما بالنسبة للنعال فإنهن يلبسن الخفاف أو أحذية جميلة على الطراز التركي. ويشير ابن سعيد في إطار نقده لبعض المظاهر في المجتمع القاهري إلى تبرج النساء المومسات[2]،وهي فئة كان معترفا بها من قبل السلطة الحاكمة بشرط دفع ضريبة تدخل في باب المكوس[3].

وفي إطار التمييز بين أهل الذمة والمسلمين، فقد سعى بعض السلاطين إلى تطبيق ما عرف بالشروط العمرية خاصة فيما يتعلق باللباس فيذكر ابن سعيد بان النصارى الأقباط يتميزون بوضع زنار حزام في أوساطهم أما اليهود فيتميزون بوضع علامة صفراء على عمائمهم[4]، ولا شك إن استمرار العمل بهذه الشروط التي تهم اللباس لم تكن دائمة، إذ كان يقع التخلي عنها في الكثير من الحالات ويستغلها بعض السلاطين لتدعيم مواقعهم في العهد المملوكي، والسعي لكسب العلماء والعامة من المسلمين .

إلى جانب الملبس فان المأكل والمشرب هو احد العناصر الأساسية في إبراز بعض الملامح الثقافية وحتى الحضارية لأي شعب من الشعوب، فهل بالإمكان تبين خاصيات المطبخ المصري والأكلات التي تميز بها؟.

---

1 - نفس المصدر، ج2، ص 216.

2 - ابن سعيد، نفس المصدر، ص 30-31.

3 - المقريزي (أحمد)، المواعظ والإعتبار ...، دار صادر، بيروت (د.ت)، ج1.

4 - ابن سعيد، نفس المصدر، ص 28.

إذا كان المطبخ هو بالأساس عبارة عن مركب حضاري، لما يشتمل عليه من مواد وأدوات وكيفية الطهي وقائمة المأكولات وطريقة تناول الطعام، فهل يمكن التساؤل عن وجود "مطبخ مصري" متميز عن غيره؟، وهل هناك طبق أو أكلة ذات" طابع قومي"؟ ليس من اليسير تبين ذلك من خلال المادة المقتطفة من كتب هؤلاء الرحالة فهي مادة شحيحة رغم بعض المعطيات المهمة نسبيا التي أوردها كل من ابن سعيد والحسن الوزان، فيذكر هذا الأخير أن المصريين يستعملون في إعداد الطعام اللبن الحامض والجبن الطري[1]، ولعل ذلك يعود إلى وفرة الحليب إذ يربي القرويون بكثرة بقر الجاموس، ويستدرك الوزان بأن هاتين المادتين تعطيان نكهة للطعام لا يستسيغها الغريب[2]، لكن ما هي أصناف أطباق الأكل المصرية ؟. لا نظفر لا بنص موجز يذكر فيه ابن سعيد بعض الأكلات التي يتناولها أفراد الفئات الدنيا من المجتمع القاهري وربما المصري وهي :

- الفول المدمس وهي أكلة منتشرة لوفرة إنتاج الفول في هذا البلد ورخص ثمنه.
- الصحناء وهو ايدام يتخذ من السمك المملح.
- الصير وهو السمك الصغير.
- البطارج، Boutourge وهو بيض سمك البوري[3].

وهذه القائمة محدودة ويبدو أن آكلة الفئات الدنيا تعتمد على مادة الفول والسمك الصغير، ويضيف الحسن الوزان أن المصريين يقبلون على تناول لحم الجاموس مع كمية وافرة من الخضر، وأن المسلمين من أصحاب المذهب

1 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص219.

2 - نفس المصدر، ج2، ص 187.

3 - ابن سعيد، نفس المصدر، ص 28.

الحنفي يتهافتون على أكل لحم الحصان التي تربى لهذه الغاية، وربما كان يقصد بذلك فئة المماليك الذين كانوا يستهلكون طعم الخيل والنبيذ المستخرج من حليبها المسمى بالقمز. كما ينتشر بينهم استهلاك لحوم الدواجن حيث كانت هنالك شبه أفران ذات طوابق لتفريخ (الفراريج) والتي تباع بالكيل لا بالواحد على حد قول الوزان[1] إضافة إلى انتشار تربية الدواجن في المدن والأرياف، فأهالي مدينة الخيام مثلا يتخصصون في تربيتها[2].

ولا شك أن جملة هذه الأكلات (الفقيرة) لا تعكس التنوع الكبير في أصناف المأكولات القاهرية والمصرية، وعموما ففي كتاب ابن الإخوة نجد قائمة متنوعة جدا للأكلات المعدة في هذا البلد[3]، ويشكل السماط السلطاني مثالا متطرفا في التنوع والبذخ البالغ في تنوع قائمة المأكولات[4]، ويقدم الحسن الوزان معلومات أخرى عن بعض الأطعمة التي يتناولها المصريين مثل الفطائر والبيض والحساء[5]، ونظفر لدى هذا الرحالة أيضا بمعلومة ثمينة بشان كيفية تناول الطعام إذ يتناول أفراد الأسرة المصرية أكلهم وهم قعود حول سماط مستطيل إذا كان عدد أفراد هذه الأسرة كبيرا، أو يبسط سماط قصير مستدير إذا كان عدد أفراد الأسرة صغيرا[6]. ومن الظواهر التي استدعت انتباه هؤلاء الرحالين، هو عادة إقبال القاهريين على الطعام الجاهز الذي يعد في الأسواق ويذكر الوزان على سبيل المثال انه يوجد في احد شوارع ربض بين القصرين 60 دكان شواء كما أثنى على جودة الطعام المعد في الأسواق ونظافة الأواني التي يطبخ فيها[7]. ويقبل المصريون من مختلف الفئات والطوائف على تناول

---

1 - نفس المصدر، ج2، ص 217.

2 - نفس المصدر، ج2، ص 239.

3 - ابن الإخوة (محمدين محمد بن أحمد)، معالم القربة في أحكام الحسبة، كمبرج 1937، ص 183 و186.

4 - الظاهر (خليل بن شاهين)، زبدة كشف الممالك ...، باريس 1894، ص 125.

5 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 205 و219.

6 - نفس المصدر، ج2، ص 219.

7 - نفس المصدر، ج2، ص 204-205.

أطعمة المحلات أما في المحل نفسه أو بنقله إلى البيت وإضافة إلى هذه المحلات الثابتة فهناك الباعة المتجولون للطعام الجاهز إذ يوضع في الوعاء حتى يبقى الطعام سخنا فمن العادات السيئة للقاهريين الأكل في الأسواق[1].

وإلى جانب محلات الطعام الجاهزة توجد دكاكين لبيع الحلويات المتنوعة وبيع المياه المعطرة بأنواع الزهر وباعة الفاكهة وبذلك يحصل المستهلك على أكلة متنوعة وجاهزة إذا كان من أهل اليسار، لكن بماذا تفسر هذه الظاهرة التي تختص بها مصر والقاهرة، ويعلل الحسن الوزان ذلك بان النساء القاهريات يتمتعن بقسط لا باس به من الحرية فهن غير راغبات في الأعمال المنزلية من غزل وخياطة وطهي وإنما يقضين وقتهن في زيارة الأهل والأقارب والصديقات أو الخروج للتنزه، و يمضين وقتهن في القيل والقال حسب تعبيره[2]، وهو تعليل مبسط وإنما يمكن ربط هذه الظاهرة بكون العاصمة حاضرة كبرى عالمية يأتي إليها الغرباء والزوار العزاب الذين يعيشون بمفردهم من داخل مصر ومن خارجها ويحتاجون إلى مثل هذا النشاط الخدمي كما أن امتداد القاهرة الكبير يجعل العاملين بمختلف المرافق الاقتصادية يجدون صعوبة للعودة إلى بيوتهم لتناول غدائهم ثم العودة إلى العمل فيفضلون تناول الطعام قريبا من مقرات عملهم، كما يمكن أن تكون هذه الظاهرة مرتبطة ببعض عادات أهل القاهرة بالاستراحة من إعداد الواجبات الغذائية اليومية عند نهاية الأسبوع أو في المناسبات. كما يقبل بعض المسلمين ومن أهل الذمة على استهلاك بعض المشروبات المسكرة فحسب الوزان كان بعض المسلمين يقبلون على شراب المزر (البيرة) المصنوعة من القمح في حين كان أهل الذمة يقبلون على شراب الخمر[3]كما أشار إلى وجود خمارات في ربض باب اللوق[4]. ولا

1 - نفس المصدر، ج2، ص 216، - العبدري، نفس المصدر، ص 129.

2 - الوزان، نفس المصدر ،ج2،ص 216.

3 - نفس المصدر ،ج2 ،ص 216.

4 - نفس المصدر ،ج2،ص 208.

تمكننا مصادرنا خصوصا الحسن الوزان الذي انفرد عن بقية الرحالين تقريبا بتفصيل وصف هذه الظاهرة فيما يتعلق بأسعار هذه المأكولات ومراقبة نظافتها من مرحلة الإعداد إلى مرحلة الاستهلاك. هذه الخصوصية القاهرية تمتد لتشمل جوانب أخرى متعلقة بشخصية المصري.

4) طباع المصريين واخلاقهم وبعض عاداتهم :

يتفق هؤلاء الرحالون إذا ما استثنينا العبدري على دماثة أخلاق المصريين ورقتهم، وربما اتفقوا جميعا على خصائص ثقافية وحضارية مميّزة لهم، ويظهر ذلك من خلال:

* تعامل المصريين مع الغرباء:

إذا ما طرحنا جانبا صدمة اللقاء الأول بمصر والمصريين في ميناء الإسكندرية وشعور الخيبة والاستياء بل والشعور بالإذلال الذين يتعرضون له من قبل رجال الجمرك وهم الذين يعتقدون بأنهم في أرض الإسلام فان هؤلاء الرحالين باستثناء العبدري،يذهبون غالى وصف المصريين باللطف وحسن المعاشرة والاحتفاء بالضيف ومؤانسته وإشعاره بأنه بين أهله وعنوان كل ذلك هو الضيافة وحسن القبول، فيذكر ابن بطوطة أنه تمت استضافته من قبل بعض العلماء والأعيان وأكرموا وفادته[1]، أما البلوي فيذكر ترحيب المصريين به، واستضافته وتنظيمهم بجولة نهرية لا تنسى في القاهرة[2]،و يذهب ابن سعيد إلى أنهم أهل للصحبة، أما الحسن الوزان فيرى أنهم أسخياء وكرماء[3]. وهذه السجايا التي يجمع عليها هؤلاء الرحالة ينكرها العبدري وهو لا ينكر وجود هذه السجايا في بعضهم وهو شذوذ عن القاعدة[4]، ويربط العبدري ذلك بكون المصريين مجبولون على الجشع والنفاق والرياء، فهم متلهفون على جمع المال

1 - ابن بطوطة،نفس المصدر،ص 219-220.

2 - العبدري نفس المصدر، ج1، 217-218.

3 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 187.

4 - العبدري، نفس المصدر، ص 99.

يستوي في ذلك خاصتهم وعامتهم بـل أيضـا "علمائهـم وزهـادهم ونسـاكهم، "فالـدنيا عندهم جوهر- حسب قوله- والآخرة عرض، " وهم متكالبون على جمـع المـال وعـدم التعفف عن النفاق لدى أصحاب الجاه والسلطان والظفر[1].

و تتباين مواقف هؤلاء الرحالين إزاء ممارسة المصريين لإسـلامهم، فالعبـدري في حملته عليهم يصفهم بقلة التدين بل يكـاد يخـرجهم مـن الملـة الإسـلامية باعتبـار أن المصريين حسب رأيه والقاهريين بالخصوص عارون عن كل فضـيلة، و مـن أدلـة ذلـك إهمالهم المساجد التي تبقى بدون تنظيف وتلقى في بعضها القمامـة وهـو مـا يتنـافى إطلاقا مع قدسية المكـان، بـل أكـثر مـن ذلـك تنـاولهم الطعـام و قيـامهم بالعمليـات التجارية في المساجد.

ومن المظاهر الأخرى أيضا خروج النساء من بيوتهن وذهابهن حيث يردن مـن دون رقيب أو حسيب.

والأخطر من كل ذلك ما قد يخرجهم من الملة الإسـلامية،" تشـاغلهم بـالمعقول عن المنقول في انكبابهم على علم المنطق...ولله درّشيخنا شرف الدمياطي فانـه مبـاين لهم في ذلك منزه لنفسه عن تلك المسالك، وقد أنشدني في هذا المعنى لنفسه:

وما العلم إلا في كتاب وسنة* وما الجهل إلا في كلام ومنطـق[2]. وفي ذلـك إشـارة واضحة إلى سيادة العلوم النقلية ببلاد المغرب، في حـين أن العلـوم العقليـة مـازال لهـا بعض الحـظ في بـلاد المشرق، رغـم أن الحسـن الـوزان يخبرنـا أن التعلـيم يرتكـز عـلى الفقه[3].

1 - نفس المصدر، ص 126-127.

2 - نفس المصدر، ص 130-131.

3 - الوزان، نفس المصدر،ج2، ص 219-220.

إن هذا الموقف غير الودي بل والعدائي من العبدري تجاه المصريين وخاصة القاهريين لا نعثر على مثيل له عند بقية الرحالة، وإن انتقدوا بعض الظواهر الاجتماعية والسلوكيات التي يرونها متنافية والتدين الحق[1]، إذ يمارس المصريون إسلامهم بدون مغالاة، يشهد على ذلك كثرة الجوامع والمساجد والزوايا والخوانق والمشاهد والمزارات التي يقبل عليها المصريون، وإقامتهم الموالد وكثرة علمائهم وصلحائهم، وانتشار الفقراء المتصوفة[2]. ومن المظاهر التي استنكرها هؤلاء الرحالون إهمال المساجد وعدم العناية بها، وخروج النساء إلى الأماكن العامة دون مرافقة أزواجهن، وركوبهن الحمير يرافقهن مكاريون اشتهروا بالصفاقة[3]، وهو ما لا يتوافق مع "تعالم الشرع" واستنقاص من قيم الرجولة حسب بعضهم، ولعل يكشف عن صورة مجتمع منفتح بعض الانفتاح، وتمتع المرأة القاهرية بالخصوص بهامش من الحرية، وأن الفصل بين الجنسين لم يكن بالصرامة التي ربما ألفها رحالتنا في بلادهم، فيذهب ابن سعيد إلى أن الدين الحق يمارس في بلاد المغرب في ظل الموحدين وهو ما لا نجده في بلاد المشرق ومنها مصر[4].

ولعل هذا الموقف متأثر بحركة الإصلاح الموحدي التي لا يخفي هذا الرحالة تعاطفه معها وباعتبار انه من كبار دولتها في بلاد الأندلس.

* بعض خصال المصريين وبعض عادتهم:

ومن الخصال الأخرى التي يتوقف عندها كل من العبدري والحسن الوزان هي كل من قيمتي الجبن والشجاعة عند المصريين، فلا يتردد العبدري في نعتهم بالجبن لكن لا يقدم دليلا على ذلك، أما الحسن الوزان فهو يرى أن القاهريين تنقصهم الشجاعة وهم أميل إلى الجبن والخنوع، وتفسيره الوحيد هو عدم حمل المصري للسلاح[5]، وهذا مقياس غريب، وإذا ما تمعنا في هذه المسالة

---

1 - العبدري، نفس المصدر،ص 127 و130، - ابن سعيد، نفس المصدر، ص 20-22.

2 - ابن جبير، نفس المصدر،ص 49-52، - ابن بطوطة، نفس المصدر، ص 34.

3 - الوزان، نفس المصدر، ج2، ص 216-217.

4 - ابن سعيد، نفس المصدر،ص 31-32.

5 - الوزان، نفس المصدر،ص 26-27.

شيئا فقد كـان حمـل السـلاح محرمـا عـلى جـل المصريـين تحتكـره الطبقـة المملوكيـة الحاكمة التي يمتهن أفرادها مهنة الحرب والقتال ومنع المصريـين مـن حمـل السـلاح، ربما يدخل ضمن إستراتجيتهم في الحيلولـة دون أن يقـوم أهـل الـبلاد بـالثورة علـيهم باعتبارهم فئة دخيلة استأثرت بالحكم والثروة، إضافة لذلك فهنالك إرث تاريخي وهو أن الفـلاح المصري كـان يعـيش ومنـذ أقـدم العصـور في ظـل أنظمـة حكـم توصـف بالاستبداد أو ما يسميه البعض بالاستبداد الشرقي.

ومن المميزات البارزة "للشخصية المصريـة" والتـي يكـاد يجمـع عليهـا هـؤلاء الرحالون هي أن المصريين شعب يحب الحياة من خلال إقباله عـلى اللـهو والتسـلية والترفيه البريء منها وغير البريء، ويصفهم الوزان بأنهم أهل ظرف[1] يشهد عـلى ذلـك كثرة المناسبات التي يحتفي بها المصريين مثل الأعياد الإسلامية والمسيحية والتي تكـون فرصة للخروج إلى المنتزهات مثل الاحتفاء " بـكسر الخلـيج "عنـد وفـاء النيـل[2]، وهـو بمثابة عيد قومي. أما أماكن التنزه والترفيه فهـي عديـدة خاصـة في العاصـمة فهنالـك النيل الذي يعد اكسر أماكن الترفيه وبالقيام بجولات نهرية ترفيهية[3]، ومـن المنتزهـات التي ذكرها بعض هؤلاء الرحالة بركة الفيل وأرض الطبالة وجزيرة الروضـة والقرافـة [4] التي تعد رغم كونها المقبرة الكبرى للقاهرة من اكبر المنتزهـات في المدينـة، تـأتي إليهـا العائلات والباحثون والباحثات عن اللذة الحرام.

ولا تنحصر أماكن الترفيه والتسلية في المنتزهات بل يعثر عليها في بعـض ميادين القاهرة مثل ميدان الأزبكية[5] بربض اللـوق حيـث يعـرض البهلـوانيين وغيرهم ألعابـا بهلوانيـة مسـلية وعروضـا حيوانيـة وقصاصـا شـعبيين يـروون قصص مسلية ومشوقة يحضرها متفرجون ومتفرجـات مـن الجنسـين، وربمـا كانت مثل هذه الميادين مكانا للقاءات بين الجنسـين. وإن كـان مـن أهـداف

---

1 - ابن بطوطة ، نفس المصدر ، ص 31.

2 - الوزان، نفس المصدر ، ج2،ص216.

3 - نفس المصدر، ج2، 213-215.

4 - البلوي، نفس المصدر،ج1،ص 217-218.

5 - ابن سعيد، نفس المصدر، ص 26-27

الإقبال على التسلية والمرح، الترويح عن النفس وقطع الرتابة وتناسي هموم الحياة اليومية وتفريغ الشحنات المكبوتة والإفلات الظرفي من رقابة المجتمع، (شرب الخمر، اختلاط النساء والرجال...)، كما تساهم في التلاحم الاجتماعي والطائفي خاصة في المناسبات التي يشترك فيها المسلمون والأقباط في الاحتفاء بها، وقد يكون هذا الإقبال على التسلية إخفاء للوجه الآخر للمصري وهو الاستغراق في الحزن العميق زمن الأتراح، وللمصريين طقوس قديمة في الحزن وبكاء الموتى.

ومن خلال ما سلف يبدو أن المرأة المصرية في ذلك العصر تتمتع بوضع قد يختلف شيئا ما عن أوضاع النساء في بلاد المغرب فقد أشار الرحالة إلى وجود النساء في الأماكن العامة في الشوارع والأسواق والمقابر، وانتقد بعض هؤلاء وجود المرأة بالقاهرة وبعض مدن مصر خارج البيت المرأة بدون زوجها، وركوبهن الحمير، " صدمة " لهؤلاء الرحالين، فالحسن الوزان يذكر آن نساء طيبة يمكن مشاهدتهن في شوارع المدينة، أما نساء مدينة "فوة "، فإنهن "يغادرن بيوتهن " ولا يعدن إلا في المساء، فلا يسألها زوجها أين كانت، إذ تقضي نهارها حيث طاب لها "[1]. كما يشير هذا الرحالة إلى انعدام "الحشمة" لدى المرأة القاهرية،إذ هي لا تتورع عن شكوى زوجها إلى القاضي في شؤون خاصة جدا، ويرى أن ذلك يدخل في طباع هذه المدينة التي لا يراعون الحشمة والحياء في أحاديثهم[2] ويبدو أن ظاهرة خروج النساء من بيوتهن إلى الأماكن العامة كان متفشيا وظاهرة عادية فابن جبير يمتدح نساء مدينتي دشنة و"قنالصون...أنفسهن ولزوم بيوتهن"[3].

1 - الوزان، نفس المصدر ، ج2، ص199-200.

2 - نفس المصدر،ج2،ص 218.

3 - بان جبير، نفس المصدر، ص 60-61.

ويتعرض الحسن الوزان إلى عادة مصرية تتعلق بالنساء، وهـي عـادة "خفـض" الفتيات أي ختانهن،(Excision) وتتمثل في إزالة عضو من الجهاز التناسلي من الأنثى يتسبب حسب الاعتقاد الشائع في زيادة اللذة الجنسـية لـدى المـرأة. هـذه "العمليـة الجراحية" تقـوم بهـا نسـاء عجـائز يحـترفن هـذه المهنـة، يطفـن في الشـوارع لعـرض خدماتهن[1]، وهذه العادة رغم إضفاء طـابع إسـلامي عليهـا في مصر وبـلاد الشـام مـن العادات القديمة في مصر والتي كانت تمارسها ولا زالـت بعـض قبائـل إفريقيـا جنـوب الصحراء[2]، واستمرار العمل بها هو الحفاظ على موروث قـديم يـقضي بقطـع الشـهوة الجنسية لدى المرأة، وتمكينها من الحد الأدنى من هذه المتعة وذلك من خلال ممارسة نوع من العنف المسلط على جسد المرأة فضلا عن تداعياتها النفسـية السـلبية فإنهـا قد تفضي أحيانا إلى الوفاة.

أما ما أثار استنكار بعض هؤلاء الرحالة هي ظاهرة البغاء، و قد حـدد الحسـن الوزان بعض المدن التي ينشط فيها هذا الصنف من النسـاء وهـي ربـض بـاب اللـوق وكذلك في ربض خارج مدينة فوة وانتقال بعض هؤلاء إلى برنبـال لممارسـة نشـاطهن[3]، ويلقى هذا ا لنشاط إقبالا من شرائح اجتماعية واثنية ودينية مختلفة.

تلك بعض ملامح الإنسان المصري وخصوصـا القـاهري التـي أمكـن تبينهـا مـن خلال المادة المتوفرة في مؤلفات الرحالة ولا شك أن بعض هذه الملامح تجعل من هـذا الإنسان متميزا عن غيره من أقطار بلاد الإسلام المجاورة.

---

1 - الوزان، نفس المصدر،ج2، ص 221.

2 - Groult(B.),*Ainsi soit-elle*, edition Grasset et fasquelle ,Paris1975,p97-100

3 - الوزان،نفس المصدر، ج2، ص 199 و208.

الخاتمـة :

تبدو مصر رغم كونها جزءا من دار الإسلام بلادا تتمتع بخصوصيات تمنحها شيئا من التفرد والتمايز عن الأقاليم الإسلامية المجاورة لها، بفعـل الوحـدة الطبيعيـة التـي تتمتع بها فاغلبها ينتمي إلى النطاق الصحراوي الجاف وبالتالي فهـي تـدين بكـل شيء تقريبا لوادي النيل. فعلى هذه الرقعـة الضـيقة أي الـوادي والـدلتا تشـكلت شخصـية مصر والمصريين، ولعب النيل الدور الأساسي في ذلك: بلاد ذات سهول فيضية تقوم على زراعة مروية ويكون وقع الحياة ووتيرتها مرتبطان إلى حد بعيد بفيضان النهر العظيم. وبفضل النيل يتكدس السكان في هذا المجال الضيق حتـى ضـاقت بهـم الأرض، وهـي ظاهرة قديمة فمصر بلد قديم التعمير قديم التحضر، وتتمتع بشبكة كثيفـة جـدا مـن القرى والمدن المتجاورة والمتلاصقة أحيانا خصوصا في الدلتا، لذلك فانـه يمكـن وصـف هذه الظاهرة التعميرية ولو بشيء من المبالغة بالمجرة الحضرية التي تمتد عـلى مئـات الكيلومترات من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وتقوم العاصمة بـدور القـاطرة مـن كل النواحي، وإشعاع هـذه الحـاضرة يتخطـى حـدود الـبلاد المصريـة إلى بقيـة العـالم العربي الإسلامي وحو ض المتوسط. وتميزت مصر بالتعدد الشديد والتنوع فـيما يتعلـق بالمعالم الإسلامية دينية أو مدنية وكانت المعالم ما قبل الإسلامية هي الأكثر شدا وجذبا للانتباه حيث أن بعضها يرقى إلى مستوى العجائب الكونية.

كـما شـكلت هـذه البيئـة الطبيعيـة إضـافة إلى العوامـل الثقافيـة والحضارية شخصـية الإنسـان المصري. ورسـمت كتابـات الرحالـة صـورة تكـاد تكون متميزة الملامح سواء على مستوى المظهـر الجسـدي الخـارجي أو طباعـه وأخلاقه المتميزة باللين والصبر والمرح وربما بمكر، والذي يعد وسيلة من وسـائل الـدفاع عـن الـذات كـذلك هـي شخصـية يغلـب عليهـا التـدين، ولعلـه اسـتمرار لإرث

قديم، وجمعت بين متناقضات عديـدة، لكـن هـذه الصـورة التـي يكـاد يجمـع عليهـا هؤلاء الرحالة هل هي حقا صورة المصري أو صورة أمينة للمصري ؟

قد تكو ن تلك بعض ملامـح الإنسـان المصري لكـن لا يجـب أن يغيـب عنـا أن ملاحظات هؤلاء الرحالة في مجملها ذات منحى انطباعي متعجـل باعتبـار قصر إقامـة أكثرهم بهذا البلد، كما أن بعضـهم ركـز اساسـا عـلى لقاءاتـه برجـالات العلـم والـدين والأدب، ربما تكون هذه الصورة أكثر دقة باعتماد عدد آخـر مـن الرحالـة سـواء كـانوا مغاربة أو مشارقة أو من الرحالة الأوروبيين الذين وفدوا عليها في هذه الفترة وتركـوا مؤلفات بشأنها .

إمبراطورية المغول ودور الأرمن في غزواتهم للمشرق الإسلامي من خلال كتاب" زهرة تواريخ أرض الشرق" *

يعد كتاب "زهرة تواريخ أرض الشرق" أو "تاريخ أمم الشرق"[1] من المصادر المسيحية الشرقية القليلة التي تتعرض إلى مرحلة مفصلة في تاريخ منطقة المشرق الإسلامي منذ منتصف القرن السابع هجري/منتصف القرن الثالث عشر ميلادي إلى أوائل القرن الثامن هجري/القرن الرابع عشر ميلادي، والعلاقة بين الشرق والغرب بظهور المغول على مسرح التاريخ وإقامتهم لأوسع الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ البشري. وفضلا عن الجوانب الجغرافية والتاريخية والسياسية، التي تنم عن معرفة دقيقة بشؤون بلاد الشرق، فإن المؤلف يتعرض بإسهاب إلى الدور الدبلوماسي والسياسي والعسكري لمملكة أرمينيا الصغرى في هذه المجابهة الكبيرة والطويلة بين المغول والدول الإسلامية بالمنطقة لاسيما سلطنة المماليك.

فقد بذلت هذه المملكة جهودا مضنية لدفع التتار لمواصلة اجتياحاتهم لباقي المشرق الإسلامي ومشاركتهم في ذلك، والقيام بدور نشط لعقد حلف متين بين الغرب المسيحي وهذه القوة العالمية الجديدة - والتي راهن عليها الأرمن- لضرب طوق محكم على الشرق الإسلامي ووضعه بين فكي كماشة. وكانت مملكة أرمينيا الصغرى واعية تمام الوعي بهذا الدور الخطير الذي تقوم به والذي قد يفوق حجمها وطاقاتها، وكان الأمير هيتون من المتحمسين جدا لهذا الدور ومن النشيطين لتجسيمه وتكريسه. لكن عواقب هذا الموقف ربما كلفت هذه المملكة الصغيرة ثمنا باهظا للغاية.

---

* نص مداخلة تم تقديمها في الملتقى الدولي بعنوان "الخبر"، الذي نظمه مخبر العالم العربي الاسلامي الوسيط، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس ... سنة 2010.

1 سيتم الاعتماد في هذه الدراسة على النسخة الواردة في كتاب :

Bohler (D.R.) ,. (sous la direction), * *Croisades et Pèlerinages*, (*récit chroniques et voyages en Terre Sainte , XII –XVI siècle*), éd .Robert Laffont, 1996, * *La fleur des histoires de Terre de l'orient*, p. 803 -878 .

I- التعريف بالمؤلف وكتابه:

يعود الفضل في التعريف بالأمير هيثون واستغلال مادة كتابه إلى المؤرخين الغربيين المهتمين بدراسة العلاقات بين المشرق الإسلامي والغرب المسيحي في العصور الوسطى المتأخرة. لذلك سنتعرض بإيجاز إلى سيرته، والتعرف بمحتويات كتابه والمحيط السياسي الأرمني الذي عاش فيه.

1) من هو الأمير هيتون Hayton ؟ :

سوف لن نضيف الكثير إلى ما جاء في مقدمة الكتاب[1] إذ تنقصنا الكثير من التفاصيل عن حياته (سيرته)، وسنكتفي "بالخطوط العامة": ينتمي الأمير هيتون إلى الأسرة الحاكمة لمملكة أرمينيا الصغرى، فهو ابن أخ الملك هيتوم الكبير أو الأول (*1226-1269*). ولد المؤلف حوالي1230، وفي قصر عمه أمضى شبيبته الأولى. ومكنه ذلك من الإطلاع على مجريات الحياة السياسية فضلا عن خفايا حياة البلاط، لذلك سوف تتوفر لديه معطيات إخبارية ثمينة للغاية قد لا تتوفر في مصادر أخرى. وتزوج من الأميرة إزابو Isabeau (أي ايزابلا)، ابنة أحد حاكم إمارة أنطاكيا- وهي من أوائل الإمارات الصلبية التي تأسست بأرض الشرق- الصلبيين وابنة ماريه Marie ابنة الملك هيتون. ومثل هذه المصاهرات التي ليست بالنادرة تدخل في استراتيجيات الزواج ذات البعد السياسي الواضح بإقامة التحالفات بين الأسرة الحاكمة والأمراء الصلبيين (اللاتين). وكان له من هذا الزواج ستة أبناء، أكبرهم أوشان Oschin الذي خلفه على رأس إقطاعية fief للعائلة، وهي قلعة حصينة بمنطقة كوريوكوس koryokosعلى الساحل الجنوبي للأناضول، عندما دخل سلك الرهبنة.

1- زيادة، نقولا، رواد الشرق في العصور الوسطى، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ص 118-119. وكذلك: Deluz (ch.)., *La fleur*… , p. 803 -807.

وتولى الأمير هيتون عدة وظائف رفيعة في جهاز الدولة، وكلف بمهام دبلوماسية من ذلك المشاركة في عدة سفارات- لدى ألخانات فارس خلال فترة 1295-1304 وتحديدا في عهد الألخان محمود غازان، ولدى ملوك الغرب الأوروبي. ويبدو أن رحلته على رأس وفد أرمني سنة 1305 لمقابلة البابا كليمنت الخامسClement V بشأن النزاع على العرش الأرمني كانت آخر مهامه الدبلوماسية، وهناك ألف كتابه "زهرة تواريخ أرض الشرق". وكان لهذا الأمير دور عسكري إضافة إلى دوره السياسي والدبلوماسي، إذ شارك في عدة حروب خاضتها المملكة إلى جانب مغول فارس ضد السلطنة المملوكية في إطار العداء المشترك للسلطنة ومن موقع التبعية الأرمنية للمغول.

وكان الرجل إذن فاعلا سياسيا وعسكريا، وصاحب تجربة سياسية وعسكرية ثرية ضمنها في كتابه هذا. ويبدو أنه كان طرفا في صراعات القصر التي اضطرته إلى الابتعاد عن الحياة العامة ودخول سلك الرهبنة في دير للرهبان الكاثوليك هو دير Abbaye des prémontrés de Notre Dame de La païs،الذي كانت به وفاته نحو سنة1310. ويبدو أنه تحول من العقيدة المسيحية الشرقية إلى المذهب الكاثوليكي. لقد كان المؤلف من المتحمسين للتقارب مع الغرب الكاثوليكي، وكذلك المصالحة بين الأرمن وكنيسة روما حتى بالتنازل عن بعض التوجهات المذهبية. ولهذا التقارب وجه سياسي يتمثل في مواجهة القوى الإسلامية آنذاك التي تشكل تهديدا لوجود المملكة نفسه، أي سلاجقة الروم المسلمين الذين رسخت أقدامهم منذ زمن في آسيا الصغرى من ناحية وسلطنة المماليك بمصر والشام من ناحية أخرى. وهو ما يعكسه التحالف الوثيق جدا مع صلبيي الشرق وممالك الغرب المسيحي، والآمال العريضة التي أصبحت تراود الأرمن مع مقدم المغول إلى المنطقة منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد. فكان من الدعاة النشطين لإقامة تحالف وثيق مع المغول القوة العسكرية الكبرى في الشرق آنذاك، وكتابه المذكور يدخل في هذا الإطار.

2) زهرة تواريخ أرض الشرق:

هذا الكتاب ألفه صاحبه عندما كان مقيما بجنوب فرنسا في مهمة لدى البابا كلمنت الخامس الذي كان مقيما سنة 1307 بمدينة بواتيي بفرنسا. ويتضمن دعوة للبابا والحكام في الغرب المسيحي للإعداد لحملة صلبية جديدة ضد السلطنة المملوكية، التي كانت تعد أنذلك أقوى دولة إسلامية في شرق البحر المتوسط ومصدر التهديد الرئيسي لمملكة أرمينيا الصغرى. ويتألف الكتاب من أربعة أقسام:

- القسم الأول: يتضمن وصفا للخريطة السياسية لبلاد الشرق والممتدة من بلاد الخطا شرقا إلى سلطنة القبجاق (القبيلة الذهبية) المغولية بجنوب روسيا.
- القسم الثاني: يقدم فيه تاريخا مختصرا للسلالات الحاكمة في الشرق الإسلامي.
- القسم الثالث: يخصصه لتاريخ المغول، منذ تأسيس الإمبراطورية على يد جنكيزخان إلى أوائل القرن الرابع عشر.
- القسم الرابع: التعرف بسلطنة المماليك وتقديم معطيات دقيقة سياسية وجغرافية واقتصادية وديموغرافية، ويضع خطة لحملة عسكرية يحدد فيها خط سير الحملة والتوقيت.

إن المعطيات الواردة في الكتاب تنم عن معرفة دقيقة بأحوال الشرق والقوى الفاعلة آنذاك، خصوصا ما يتعلق بالمغول والمماليك. ويمكن نعت الكتاب بأنه من كتب الدعاية والتحريض الديني والسياسي والعسكري ذو النزعة الصلبية. وبما أن الأمير هيتون يريد أيضا أن يكون عمله عمل مؤرخ، لذلك تتعدد المصادر التي استقى منها مادته الإخبارية والتي ذكرها في كتابه. فشملت الرواية الشفهية وهي جملة ما كان يحكيه عمه الملك هيثوم الأول (ت

1270) لأبنائه وأبناء إخوته من الذكريات الشخصية، والتي أمر فيما بعد بكتابتها المؤلف وذلك لحفظ الذاكرة بشكل دقيق. أما المصدر الثاني هو شهادته الشخصية، إذ يروي المؤلف مجموع ما عاينه وعايشه من الأحداث التي شارك في صنع بعضها والمواقف التي كان يبديها، بفعل موقعه السياسي والعسكري. وهذان المصدران هما من الدرجة الأولى من حيث القيمة الإخبارية، وبالتالي فهما على غاية من الأهمية. أما المصدر الأخير فهي مؤلفات تاريخية إخبارية، مثل أخبار التتار وكتاب الأرض المقدسة الذي هو مواصلة لكتاب غليوم الصوري.

3) مملكة أرمينيا الصغرى: دور نشط وفاعل في الحروب ضد المشرق الإسلامي:

يتعرض الأمير هيتون عند وصفه لممالك الشرق إلى مملكة أرمينيا الكبرى أو أرمينيا التاريخية[1] والمجال الجغرافي الذي كانت تشغله، لكنه لا يتعرض إلى تفكك هذه المملكة التي كانت تمتد ما بين جبال القوقاز والبحر الأسود. وهي مملكة شاسعة بمنطقة جبال القوقاز إلى بحر قزوين، وكانت باستمرار ضحية لموقعها الجغرافي بتعرضها بشكل متتالي منذ العصور القديمة لأطماع القوى الكبرى المتنافسة مثل الفرس والرومان ثم الفرس والبيزنطيين. وكانت في بدايات العصور الوسطى هدفا للفاتحين العرب المسلمين على حساب البيزنطيين، ثم إلى اجتياح المنطقة من قبل السلاجقة الأتراك الذين أسسوا بآسيا الصغرى إثر هزيمة البيزنطيين في واقعة مانزكرد سنة 1071[2] سلطنة سلاجقة الروم والتي يسميها المؤلف مملكة الأتراك.

1- Deluz(ch.)., *La fleur* …, p. 814-815.

2 - راجع مقال: *Encyclopédie Universalis*, vol I, article « Arménie », p. 1001-1013.

وكانت آخـر السـلالات الحاكمـة لـبلاد أرمينيـا هـي سـلالة البقراطـونيين Les Bagratonides التي سوف لن تستمر طويلا، نتيجة الزحف السلجوقي باتجـاه آسـيا الصغرى من ناحية وضغوط حماتهـم البيـزنطيين- أعـداؤهم في المـذهب- مـن ناحيـة أخرى. وتفككت مملكتهم وتلاشت بصفة نهائيـة في هـذه المنطقـة تحديـدا. ولتبحـث مجموعات مهاجرة من الأرمن عن موطن جديد خـاص بهـا. انتقلـت مجموعـات مـن الأرمن إلى منطقة قبادوقيا بآسيا الصغرى. وتحت ضغط البيزنطيين ستضطر مجموعـة منهم قادها أحد الأمراء الأرمـن وهـو الأمـير روبـانRouben للهجـرة مـن جديـد إلى منطقة قيليقيا Cilicie غرب آسيا الصغرى، وتأسست مملكة أرمينيا الصـغرى بمنطقـة جبلية وعرة عاصمتها سيس وحكمتها في البداية السلالة الروبينيـة خـلال فـترة 1080-1225[1].

وتم هذا التأسيس قبيل الحملة الصلبية في سنة 1096. وما إن وصلت جموع الصلبين إلى المنطقة حتى كان الأرمن في انتظارهم لتقديم العون بكل أشكاله في وجه أعدائهم سلاجقة الروم، وربما طردهم خارج المنطقـة واسـتعادة أرض أرمينيـا الـوطن الأم، وفي نفس الوقت لتخفيف الضغوط المسلطة عليهم من قبل البيزنطيين حماتهـم غير المرغوب فيهم. وشـكلت المصـاهرات العائليـة أحـد أوجـه التحـالف بـين الأرمـن والصلبيين خاصة مع إمارة أنطاكيا التي تأسست أثناء هذه الحملة، وأصبحت إحـدى القوى الصلبية الفاعلة بالمنطقـة وقاعـدة ارتكـاز يعتمـد عليهـا الغـرب المسـيحي في مواجهة قوى المقاومة التي ستظهر ضد الصلبيين (الزنكيون، الأيوبيون، ثم المماليـك). وأفرزت سياسات آخر حكام هذه السلالة ظروفا متوترة بسبب ميوله المفرطة للفرنجـة وسـعيه إلى "فرنجـة" المملكـة مـما هـدّد طابعهـا الأرمينـي، وأدى هـذا الأمـر إلى ردود فعل عنيفة من قبل الأرستقراطية الأرمينيـة. فتمـت الإطاحـة بـه وسـلم الحكـم سـنة

1راجـع: Grousset (R.), *L'Empire de Levant*, Paris, 1949, p. 173-175, 387-397; Garcin(J .CL.), (sous la direction), *Etats, Sociétés et Cultures du Monde Musulman Médiéval*, Paris, 1995, T.I, p. 317.

1226 للأمير هيثوم ابن كبير الأمراء الأرمن قسطنطين دي لمبرن Constantin de Lambron [1]، وهو الذي سيكون مؤسس سلالة جديدة هي السلالة الهيثومية التي ستحكم حتى سنة 1375.

وتزامن هذا الحدث مع ظهور المغول كقوة صاعدة جديدة على مسرح الأحداث في الشرق، لذلك سيغتنم هيثوم الأول هذه الفرصة الذهبية "بنسج علاقات وثيقة معهم خاصة أن هؤلاء كانوا يتقدمون بسرعة فائقة باستيلائهم على بلاد ما وراء النهر وانهيار سلطنة خوارزم، ونحو القوقاز وآسيا الصغرى، ووضعهم سلطنة سلاجقة الروم تحت وصايتهم منذ هزيمة هؤلاء في واقعة كوسي داغ Köse Dagh سنة 641 هـ/1243، بل وضمها عام 780 هـ/1308، في حين أضحت مملكة الأرمن الصغرى محمية مغولية. وفي إطار رؤية سياسية قدرت عاليا ظهور هذه القوة الجديدة على مسرح الأحداث ببلاد الشرق، وأنها القوة التي يجب المراهنة عليها، سعي الملك هيثوم الأول لتوثيق العلاقة معهم ومحاولة إقامة حلف سياسي وعسكري بين المغول والغرب المسيحي لوضع المشرق الإسلامي بين فكي كماشة[2].

II- ظهور المغول واتصال مملكة أرمينيا الصغرى بالقوة العالمية الجديدة:

لازال تاريخ تأسيس وتطور الدولة المغولية وحركة التوسع العسكري المدهش التي أسفرت عن إقامة أكبر إمبراطورية- من حيث سعة المجال الجغرافي- في العصور الوسطى يلفها شيء كثير من الغموض بسبب ندرة الوثائق، ولعل المادة التاريخية التي يوفرها كتاب "زهرة التواريخ..." تساهم ولو بقدر يسير في إنارة بعض الجوانب من هذا التاريخ.

---

1 العبادي، احمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى، بيروت 1986، ص 229-231؛
Grousset(R.)., *op. cit.*, p 326-327, 395-404; *E.U.*, T. I. p.1001-1004.

2 - راجع: Deluz(ch.)., *la fleur* …; p 807, 871-873

1) إمبراطورية المغول: من القبيلة إل الإمبراطورية الكونية:

يشير المؤلف عند تعرضه لممالك الشرق إلى حدود بلاد المغول، حيث يذكر بأنها تقع خلف جبال بلجيان/ بلجونا Baljuna[1] من جهة الشرق والواقعة جنوب شرق بحيرة بايكال، وتمتد هذه البلاد من جبال ألتاي إلى جبال كنقان. فهي بلاد معزولة جغرافيا وذات ظروف مناخية قاسية جدا، إذ تقع وسط ظهير Hinterland شاسع هي هضبة منغوليا المتكونة من سهوب وصحاري باردة تحيط بها جبال شديدة الارتفاع. ويمتاز هذا الظهير بالجفاف والفوارق الحرارية الكبيرة بين الفصول وبين الليل والنهار، فيسود البرد القارص إلى حد التجمد في الشتاء ويكون الصيف شديد الحرارة والجفاف. ولهذا الإقليم رغم هذه العزلة اتصال بالأقاليم المجاورة عبر ممرات جبلية باتجاه الشرق إلى الصين وباتجاه الجنوب الغربي نحو بلاد ما وراء النهر، واللتان تمثلان بلاد الخصب والرخاء المثيرة لشهية هذه القبائل التي تعيش على موارد شحيحة.

ولهذا العامل الطبيعي أثر حاسم على أسلوب عيش السكان وتركيبتهم الاجتماعية، حيث توزعوا على مجموعات قبلية بدوية تمارس تربية الماشية الشاسعة ومنها تربية الخيول[2]، وتعد الحرب وعمليات الإغارة والغزو والفروسية جزءا أساسيا من أسلوب عيشهم. ويشير المؤلف عند حديثه عن أخبار الإسكندر وغزوه لمنطقة الجبال المحيطة بهذه البلاد إلى المستوى الحضاري العام للسكان، فهم ينقسمون اثنيا إلى سبع أمم يشكل التتار إحداها. ويضيف المؤلف بأن سكان منغوليا على مستوى بسيط من التحضر، حيث أنهم على حالة من "...البدائية والتوحش..." ويعيشون مثل السوائم.

1 -أنظر: Deluz(ch..), *La Fleur*…, p. 825; *E.U*, T. XV, article « *Mongolie* », p. 656-657.

2 Deluz (ch.)., *La Fleur*…, p.. 826; *E. U.*, *op.cit.*, 657; Collectif, *Le Monde et son histoire*, Paris, 1971, p. 887, 890.

وهذا المستوى البسيط من الحضارة تعكسه أيضا مجموع المعتقـدات الدينيـة، إذ يعيش هؤلاء "...بدون وازع ولا شرع..."[1] حسب المؤلف، وكانت المعتقدات الوثنيـة (أي المعتقدات الشامانية) تسود بينهم. ولم تكن هـذه الـبلاد رغـم العزلـة الجغرافيـة بمنأى عن التيارات الحضارية (خصوصا الدينية منهـا) التـي كانـت تصـلهم مـن الـبلاد المجاورة وحتى البعيدة، حيث تسربت إلى هذه المنطقة الديانة المسيحية الشرقية على المذهب النسطوري بفضل نشـاط مـبشرين جـاؤوا مـن منـاطق الشرق الأدنى. كـما أن المعتقدات البوذية لم تكن غريبة في هذا الوسط شـبه المعـزول، إلا أن مـا ميّـز المغـول آنذاك هو التسامح الديني على الأقل في مستوى الطبقة الحاكمـة. فكـان بالإمكـان أن تتعايش المعتقدات الدينية دون أن يقصي أحـدها الأخـرى[2]، لـذلك فـإن المؤلـف كـان يعتقد في إمكانية كسبهم وتحويلهم إلى المسـيحية. وكـان هـذا أحـد رهانـات الأرمـن، وبالتالي فيمكن اكتساب قوة عسكرية تدافع عن العالم المسيحي في وجه الإسلام.

2) تكوين إمبراطورية "الاسكندر الآسيوي" أو إمبراطورية السهوب:

أ - من العشيرة إلى الإمبراطورية:

اتسم وضع الإقليم من الناحية السياسية بخضوعه لهيمنة القوى المجـاورة (بلاد الصين، بلاد ما وراء النهر) في غالب الأحيان بفعـل تشرذمهـم وغيـاب كيـان سياسي يجمع شـتاتهم. ولكـن متـى تـوفرت بعـض الظـروف الملائمـة إضـافة إلى ظهـور شخصـية كاريزميـة أي ذلـك الـزعيم القـادر عـلى توحيـد هـذه العشـائر والقبائل في كيان سـياسي واحـد، وتوجيـه طاقاتهـا القتاليـة نحـو عـدو خـارجي، حينذاك فقط يتمكن المغول من التحرر من حالة الاستعباد بل إنهم ينتقلـون إلى

1 Deluz ch., *La fleur*…, p. 857.

2 Garcin(J.CL.)., op.cit, p. 318; Collectif, *op.cit.*, p. 890.

مرحلة التوسع على حساب جيرانهم[1]. ويبدو أن هذه الظروف الملائمة قد توفرت، وأن القائد المخلص قد ظهر إلى الوجود ليوحدهم ويقودهم للغزو والتوسع وبناء الإمبراطورية.

ب. جنكيزخان الزعيم الكارزمي "الملهم" الزعيم القومي موحد المغول:

على غرار الرجال العظام الذين يضعون بصماتهم في سير أحداث التاريخ الكبرى، فقد حفت بشخصية جنكيزخان مجموعة أحداث ذات طابع أسطوري واختلط ما هو واقعي بما ليس كذلك. إن الاسم الحقيقي لجنكيزخان هو تيموجين أي الرجل الحديدي، أما أصله الاجتماعي فيبدو حسب المؤلف أنه من وسط متواضع باعتبار التراتبية الاجتماعية لقبائل هذه المنطقة. فهو يشتغل حرفيا في مهنة الحدادة[2] الشيء الذي يتناقض مع روايات أخرى تذهب إلى أنه ينحدر من الأرستقراطية، وهو رب أسرة إذ كان له أربعة أبناء. ومع تقدمه في السن، تحدث "المعجزة"عبر التدخل الإلهي في سير أحداث التاريخ بالشرق والعالم [3]، إذ أن العناية الإلهية ستصطفيه دون غيره ليكون زعيما للمغول وباني إمبراطوريتهم. ففي رؤية أولى ظهر لجنكيز خان فارس بلباس عسكري يمتطي صهوة جواد، يخبره أن الإرادة الإلهية اختارته ليكون سيدا وحاكما لأمم المغول، وينبئه أنه سيخضع الشعوب التي مارست سيطرتها على بلاده. وهذا الإله هو بالطبع إله المسحيين، وما جنكيزخان إلا هبة إلهية ظهرت لنصرة المسيحية ودحر أعدائها. وتكررت هذه الرؤيا مرة ثانية في وضح النهار لقادة المغول الذين لم يصدقوا ما رواه لهم جنكيزخان، عند ذاك أجمعوا على تنصيبه زعيما لكل قبائل المغول.

---

1 العمري، أحمد بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق احمد عبد القادر الشاذلي، أبو ظبي، 2003، السفر الثالث، ص 124-197؛ كاهن، كلود، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، 1995، ص 255-256؛

Garcin(J.Cl.)., *op.cit*, p. 317-318.

2 Deluz(ch.)., *La fleur* …, p. 825.

3 Deluz ch., *La fleur* …, p. 826.

وتم انتخاب جنكيزخان في مجلس عام لقادة منهم، وهو "القرلتاي" الذي يعقد عادة في فضاء واسع. وقد حضر المؤلف مثل هذه المناسبات عند اختيار بعض الأباطرة المغول، وقد ترك لنا وصفا "لرسوم اعتلاء بعضهم العرش" والتي تبدو على غاية من البساطة[1]. وكانت الخطوة الموالية بعد هذا الإجماع على زعامة جنكيزخان، هو تحقيق وحدة هذه القبائل وإخضاعها لسلطة عليا تكون فوق الجميع. ولاشك أنه كان لجنكيزخان مشروع سياسي كبير تتمثل خطواته الأولى في تجاوز الانقسامات الداخلية بإخضاع حقيقي لمجموع القبائل المغولية تحت قيادته، ويفضي هذا إلى تأسيس "الدولة القومية" وإنشاء سلالة حاكمة تؤمن استمرارية مشروعه السياسي. وتدعمه وتثبت خطاه في كل ذلك "العناية الإلاهية" في مواجهة القوى المناوئة في الداخل من ناحية أولى بتحقيق الوحدة المنشودة عن طريق استخدام القوة العسكرية، ووضع حد لاستعباد "شعبه" من القوى والدول القوية المجاورة من ناحية ثانية. وكانت هذه الخطوات ضرورية لنجاح الخطوة الموالية والأهم، وهي حلم التوسع وإنشاء الإمبراطورية العالمية.

ج. نحو الغزو والتوسع وإنشاء الإمبراطورية :

بعد توحيد قبائل المغول أصبح تحت تصرف جنكيزخان القوة المسلحة الضاربة والطاقات القتالية الكبيرة التي تنتظر من يحسن استغلالها[2]. وكانت موارد البلاد المجاورة (أي أرض الصين وواحات خوارزم) مغرية وإليها اتجهت أنظار جنكيزخان، وذلك لإنقاذ "شعبه" أولا من شظف العيش ورفع

1 العبادي، نفس المرجع، ص 145؛

Deluz (ch.)., *La fleur*…, p. 826; Grousset(R.)., *op.cit*., p 397.

2 E.U, vol. XV, p. 656; Collectif, *op. cit*., p. 888-890 ; Garcin J. .cl., *op. cit*., p. 316-317.

التحديات التي كانت تسلطها شعوب تلك البلاد على بلاده[1]. ستكون حركة التوسع هذه تحت أنظار "الإله" وتوجيه منه بالتدخل مجددا في سير الأحداث من خلال رؤى جديدة تظهر للقائد المغولي، وإحداها حددت وجهة هذا التوسع وهو الغرب أي نحو بلاد الإسلام[2].

ومما يسترعي الانتباه هو السرعة الفائقة للتقدم المغولي بالاستيلاء على مجال جغرافي شاسع للغاية في حيز زمني قصير، وتولى أبناء جنكيزخان القيادة وبنوا إمبراطورية شاسعة تمتد من بلاد الصين إلى جنوب روسيا (أي جنوب نهر الفولغا)، ولها عاصمة مركزية هي قراقروم ثم خان بلق فيما بعد. ومع قوبلاي الخان الأعظم الذي خلف جنكيزخان (1256-1294) وصل التوسع المغولي أقصى مداه. ولكنها ستتجزأ بسرعة إلى أربعة ممالك مغولية أو أليخانية (Khanat[3]) هي على التوالي :

- أليخانية الصين وعاصمتها خان بلق (بكين) بعد التخلي عن قراقروم.
- مملكة جغتاي أوالتركستان: تتكون من بلاد التركستان وأفغانستان
- أليخانية القبجاق بجنوب روسيا: وعاصمتها سراي.
- أليخانية فارس وتكونت بعد غزو بلاد فارس والعراق (وعاصمتها تبريز).

وتأثرت كل مملكة بالوسط الذي نشأت فيه. وبتطور الأوضاع سريعا ما تفجرت الصراعات فيما بينها.

---

1 كاهان، نفس المرجع، ص 254-256؛ Garcin (J.Cl.)., *op. cit*., p. 315.

2 Deluz(ch.)., *La fleur*…, p. 828-829.

3 العبادي، نفس المرجع، ص 155-156؛ Garcin (J.Cl.)., *op. cit*., p. 317.

III - اتصال الأرمن بالتتار والتحريض على غزو بغداد:

يبدو أن اتصال مملكة أرمينيا الصغرى بالمغول بدأ بصفة متأخرة نسبيا، مقارنة بتلك المساعي التي شرع فيها الغرب المسيحي بصورة مبكرة لإقامة تحالف"استراتيجي" مع هذه القوة الدولية الجديدة. هذا الاتصال بدأ مع إخضاع التتار لسلطنة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى،. فهل كان الأرمن ينشدون من وراء ذلك إقامة تحالف رغم عدم التكافؤ بين الطرفين، أم هو مجرد عرض لخدمات في مواجهة عدو مشترك؟.

1) اتصال الأرمن بالمغول وتقديم مجموعة التماسات:

حسب ما يذكره المؤلف فإن بداية الإتصالات بدأت في عهد الملك الأرمني هيثوم الأول (*1269-1226*)[1]، الذي أدرك مبكرا أهمية هذه القوة السياسية والعسكرية الجديدة في العلاقات الدولية آنذاك، خصوصا أن هؤلاء المغول بدأت جموعهم تصل إلى منطقة القوقاز وآسيا الصغرى ووضع سلطنة سلاجقة الروم تحت وصايتهم بعد هزيمة هؤلاء في واقعة قوسي داغ. لقد رأى الملك الأرمني في المغول هدية من السماء وأداة يمكن استخدامها لتحقيق أهداف المملكة وأهداف الغرب المسيحي.

وكانت آمال الملك هيثوم الأول كبيرة لتغيير الخريطة السياسية للمنطقة، كما كان اعتقاده كبيرا بإمكانية إقامة حلف عسكري وسياسي بين الغرب المسيحي والمغول، وفوق كل ذلك كانت آماله كبيرة بإمكانية نشر المسيحية بينهم وقناعته الدينية بأنهم سيف الإله الذي سيسلط على "أعداء المسيح". وعلى كل فقد بدأت اتصالات المملكة. ويشير المؤلف إلى اتصالات جرت بين الملك

1 Deluz (ch.)., *La fleur*…, p. 827; Grousset(R.)., *op.cit.*, p. 173, 385.

الأرمني والقائد المغولي بالمنطقة[1] للتمهيد لزيارة سرية يقوم بها الملك هيتوم الأول. وتم تشكيل سفارة على رأسها شقيق الملك المسمى سمباد Sempad ليقابل الخان الأعظم الكبير مونكا-خان. وحسب المؤلف فإن هذه الرحلة كانت سرية وكانت ناجحة إذ استقبل الوفد الأرمني استقبالا حافلا قرب العاصمة كاراكروم، التي أعقبتها زيارة الملك الأرمني لبلاد المغول. وحسب المؤلف فهو أول ملك مسيحي يعبر جبال بلجون. فقد استقبل بحفاوة بالغة من قبل القان الكبير، وأثناء هذه الزيارة قدم الملك مجموعة من الالتماسات تعكس طبيعة العلاقات بين الطرفين[2]:

إلتماس أول ويتمثل في دعوة القان الأعظم ومجموعة التتار إلى اعتناق المسيحية، وهنا يظهر الدور التبشيري للملك الأرمني وحماسه الشديد لنصرة هذه الديانة.

أ. التماسات تتعلق بالمسيحيين إجمالا :

بإقامة سلم دائمة بينهم وبين التتار. أن تكون الكنائس تحت حماية التتار وأن يكون رجال الدين المسيحيين أحرارا ومعفيين من كل "استعباد"، وذلك في كل الأراضي التي أخضعوها أو التي سيخضعونها. وأخيرا تقديم النصح والمساعدة لتخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وإعادتها للمسيحيين، وإصدار الأمر "لتتار تركيا"- ويقصد بهم التتار الذين استولوا على سلطنة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى- بغزو أراضي الدولة العباسية وتدمير بغداد والخلافة باعتبار أن "بغداد مثل روما الخليفة مثل البابا" من الناحية الروحية.

---

1 Garcin(J.Cl.)., *op. cit.*, p. 317.

2 كاهان، نفس المرجع، ص 226؛

Deluz (ch.)., *La fleur*…, p. 836; Grousset R., op. cit., p. 397.

ب. التماسات تتعلق بمملكة أرمينيا الصغرى:

تحظى مملكة الأرمن بامتياز الحصول على العـون العسـكري للتتـار القريبـون من أراضي المملكة متى تطلب الأمر ذلك، ويسلم التتار الأراضي الأرمنية التي كـان قـد استولى عليها المسلمون في السابق. وحسب الأمير هيتون فإن التماسات الملك الأرمنـي لقيت صدى طيبا واستعدادا للاستجابة لها. ولا فائدة في القول أن الملك الأرمنـي يبـدو من خلال هذه الرواية وكأنه يتعامل على قدم المساواة مع القان الكبير، وليس كمجرد تابع من أتباعه الجدد في آسيا الصغرى أو هكذا يريد أن يوهمنا المؤلف.

2) الـدور الأرمنـي فـي اجتياحـات التتـار خـلال النـصف الثاني للقرن الثالث عشر:

أ. غزو بلاد فارس :

لم تمض سوى بضع سنوات حتى انطلق من جديد الإعصار المغولي، ويبـدو وكأن القان الكبـير ينفـذ مـا التمسـه منـه الملـك الأرمنـي. والحقيقـة أن تقاطعـا للمصالح قد حصل في هذا المستوى، أو أن هذه الالتماسات توافقت مـع الخطـة التوسعية للمغول. فقد قام القان الكبير بتكليف أخيه هولاكو بغـزو بـلاد فـارس والعراق، وطلب من مملكة أرمينيا مشـاركة الأرمـن في الغـزو. وتبـدو المشـاركة نشطة وغير رمزية مشاركة عسكرية، قيادة الملك لجيش أرمني ليشارك في الغـزو ووصـوله إلى نهـر يسـمى فيـزون isonhP أيـن تجمعـت القـوات المغوليـة مـع الوحدات الأرمنيـة. وبـدأت مـن هنـاك عمليـات الاجتيـاح باتجـاه بـلاد فـارس[1]، وكان لابد من التمهيد لـذلك بإزاحـة واستئصـال فرقـة الإسـماعيلية التـي كانـت

1 ابـن تغـرى بـردى، النجـوم الزاهـرة...، ج 7، ص 47؛ Deluz (ch.)., *La fleur*…, p. 836-837; Grousset(R.)., *op. cit.*, p. 397-398.

تتمتع بنفوذ وسطوة في هذه المنطقة ذات التضاريس الوعرة، بفضل رجالها المدربين على عمليات الاغتيال والتصفية الجسدية لمناوئيهم.

وتمكنت القوات المشتركة من الاستيلاء على قلاع فرقة الإسماعيلية المنتشرة بهذه المنطقة، وأهمها على الإطلاق "قلعة أ لموت" المنيعة مقر القيادة والمعقل الرئيسي للإسماعيلية والتي يقيم بها "شيخ الجبل" قائد الجماعة والقضاء على فرقة الإسماعيلية بعد حصار طويل وتدميرها بصفة نهائية وإعدام شيخ الجبل وقادة قيادة الباطنية واستئصالهم من المنطقة، هل شارك الأرمن في هذه العمليات؟ الأمر غير واضح، ولكن على الأرجح فإنهم ساهموا في العمليات العسكرية. ويبدو أيضا أن الدور والجهد العسكري الأرمني قد توقف بعودة الملك هيثوم الأول إلى مملكته قبل اجتياح العراق. فما هي الأسباب الدافعة لذلك ؟ لا نظفر بإجابة من المؤلف. المؤكد أن الملك هيثوم غير قادر على أخذ قرار الانسحاب دون العودة إلى القادة المغول فلعله أمر من القائد المغولي بالاكتفاء عند هذا الحد "بالعون" الأرمني، ولعل الأوضاع الداخلية للملكة كانت تستدعي هذه العودة بعد الحصول على إذن بذلك من هولاكو. وعلى كل فليس لدينا الخبر اليقين.

ب. اجتياح العراق وبلاد الشام (1258 - 1260):

يمضي المؤلف وبإيجاز في تقديم أخبار استيلاء المغول بقيادة هولاكو على بغداد ومقتل الخليفة العباسي مما يعني نهاية الخلافة، وهو حدث كانت أصداؤه كبيرة للغاية في بلاد الإسلام إذ كان بمثابة أحد علامات الساعة. ولم يتعرض المؤلف لأخبار القتل والتدمير الذي تعرضت لها المدينة، على أنه يذكر أن هولاكو سارع لإعادة تنظيم البلاد بتقسيمها إداريا وتعيين بعض قادة الجيش نوابا عنه في مختلف جهات العراق. ولا ينسى الأمير هيتون الإشادة

بدور زوجة هولاكو طقزخاتون التي يعدها المؤلف مؤمنة ورعة بما أظهرته من عطف على المسيحية والمسيحيين أثناء هذا الاجتياح: فقد أمرت بإعادة بناء الكنائس المهدمة وتهديم مساجد إسلامية واسترقاق المسلمين، وهو ما يؤكد خدمة قضايا المسيحية[1].

ويستمر المؤلف في رواية أحداث الاجتياح الكبير، فبعد استراحة المقاتل لمدة عام بالرها استدعى ملك الأرمن القريب من هذه المدينة ليعلمه بنيته في غزو الأراضي المقدسة و"إعادتها للمسيحيين" وبنصيحة من ملك الأرمن الخبير بالمنطقة الذي أشار على هولاكو بالبدء في غزو سلطان حلب. وكان بحوزة ملك الأرمن حسب المؤلف 12000 فارس و60000 من المشاة على استعداد للمشاركة في الحملة، ويؤكد المؤلف مشاهدته لمثل هدا العدد[2]. وعلى كل فقد عمل هولاكو بنصيحة الملك الأرمني، إذ تمت محاصرة حلب واقتحامها عنوة وإرسال سلطانها الذي كان بدمشق مع أفراد عائلته إلى بلاد فارس. وكان هولاكو مضطرا لمغادرة ميدان المعركة بعد أن وصله رسول من قراقروم ينبئه بوفاة أخيه منكا خان، خصوصا أن هولاكو كان مرشحا لمنصب الخان الأعظم. وقام بتوزيع غنائم كثيرة قبل مغادرة المنطقة، وكان نصيب ملك الأرمن أراض وقلاعا قريبة من مملكته. كما عهد بقيادة القوات التترية التي يبلغ عددها 10 آلاف مقاتل لمتابعة عملية الاجتياح إلى أبغا أحد قواده، وكان القائد الجديد رجلا مؤمنا حريصا على الدين المسيحي.

---

1 المنصوري، بيبرس، التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، 1987، ص41. Deluz(ch..), *La fleur*…, op. cit., p. 838.

2 Deluz ch., *La fleur*…, p. 838-839.

ج. حدث صغير يوتر العلاقة بين المغول والصلبيين :

أدت خلافات القائد المغولي مع بعض الأطراف الصلبية إلى توتر العلاقات بين الطرفين، وكان من بين أسبابه المباشرة تعرض ابن أخ كتبغا إلى اعتداء من قبل بعض الصلبيين قرب قلعة بلفور Belfort[1] بجهة صيدا مما استوجب رد فعل سريع وقاس بمهاجمتهم وإعدام الكثير منهم. وكان هذا الحدث "الصغير" مؤشرا لحالة من عدم الثقة بين التتار وجهات صلبية لم تكن مرحبة بمقدمهم إلى المنطقة، وهذا ما ترجمه توتر العلاقة بين الطرفين. وكانت القوات المملوكية في الأثناء تتقدم نحو بلاد فلسطين بقيادة السلطان قطز، وأدى الاشتباك مع القوات التترية الزاحفة إلى إلحاق أول هزيمة بها سنة 1260 في عين جالوت[2] ومقتل قائد المغول كتبغا نوين حسبما جاء في المصادر العربية.

ولا يبدو أن هزيمة التتار المدوية أثارت اهتماما كبيرا من المؤلف، فهو فلا يتوسع في وصف أطوارها رغم أصدائها القوية. ربما كان الصمت وعدم الاستفاضة في الحديث عنها لغياب الأرمن عن أرض المعركة، أو للتقليل من شأن الانتصار المملوكي، أو لكونها مثلت خيبة كبرى لآمال الأرمن باعتبار أن هذه الهزيمة هي التي وضعت حدا لأسطورة القوة التي لا تقهر. وبالتالي نهاية مشروع استرجاع الأرض المقدسة الذي يعتبره الأرمن على رأس التماساتهم، كما رسمت بشكل نهائي الحدود بين سلطنة المماليك وجارتها الجديدة ألخانية فارس إذ أصبح الفرات الحد الفاصل بين المجالين.

وهنالك أحداث في الشرق كانت تؤشر إلى تصدع وحدة الإمبراطورية بنشوب نزاع مسلح بين هولاكو و"قان القبجاق" (أي القبيلة الذهبية) كان مسرحه على "نهر متجمد". وهذه المعركة هي واحدة من المعارك العديدة التي

---

1 المنصوري،بيبرس، التحفة الملوكية، ص 43-44؛ Deluz (ch.), *La fleur*…, p. 828-839.

2 ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج 7، ص 77-79؛ كاهان، كلود، نفس المرجع، ص 262-263؛ Collectif, *op. cit*., p. 894.

ستندلع بين الإخوة الأعداء، ويعتبر سببها الأساسي التنازع على الحدود والأراضي وتضارب المصالح. وكان من نتائجها المباشرة ظهور خريطة جديدة للتحالفات السياسية والعسكرية في منطقة المشرق، ومن ذلك تحالف سلطنة المماليك وهي الدولة الجديدة بمصر والقوة الصاعدة في المشرق الإسلامي مع خانات القبجاق. وبالتالي فإن انتصار عين جالوت مكّن مماليك مصر من مدّ نفوذهم على كامل بلاد الشام، وأصبحوا على تماس بالأرمن الذين كان عليهم انتظار ردّ قوي من جيرانهم الجدد.

- الحملة التأديبية المملوكية ونقل الصراع إلى آسيا الصغرى لتقويض النفوذ التتري :

إن المشاركة النشيطة لمملكة أرمينيا في حروب التتار ضد بلاد الإسلام وضد الدولة المملوكية بالتحديد سيكلفها ثمنا غاليا، وربما كانت هنالك دوافع تجارية تتمثل في إضعاف الدور التجاري الدولي للمملكة التي كان موقعها الجغرافي يمكنها من القيام بدور الوسيط لكونها أحد الممرات الأساسية للتجارة العالمية خاصة ميناء إياس. ولعل الحملة كانت أيضا رد فعل على الحصار الاقتصادي، لاسيما أن المملكة شاركت قصد منع تصدير الخشب إلى السلطنة. ولم يكن هاجس تأمين الحدود الشمالية من اعتداءات مشتركة مغولية-أرمينية في المستقبل غائبا عن السلطان الجديد الظاهر بيبرس، بالإضافة إلى الظروف الخاصة بالسلطنة المملوكية والتي تتمثل في مقتل السلطان قطز ورغبة خلفه الظاهر بيبرس في إضفاء الشرعية على حكمه بالظهور بمظهر المدافع عن ديار الإسلام ورفع راية الجهاد الديني.

- الحملة التأديبية لسنة 640 هـ/1266[1] :

1 العبادي، أحمد مختار، نفس المرجع، ص 237-238؛ Grousset(R.)., *op. cit.*, p. 398-399.

كانت الظروف ملائمة للحملة التأديبية، بانشغال مغول فارس بترتيب أوضاعهم الداخلية: صراعات مع خانات القبجاق وتحالف هؤلاء مع المماليك مما سيجعل المماليك طليقي الأيدي، وتفكك القوى الصلبية وعدم توقع وصول دعم من الغرب خاصة أن الظاهر بيبرس بدأ يشن حملة استرداد في بلاد الشام. وبالفعل بدأت العديد من المواقع الصلبية في السقوط الأمر الذي عزز مكانة السلطان المذكور في أعين رعاياه بل وفي بلاد الإسلام قاطبة. وكذلك المعنويات المرتفعة للمماليك بعد انتصار عين جالوت والضعف العسكري لمملكة الأرمن، ويضاف إلى ذلك تغيب الملك الأرمني لدى ألخانات فارس لالتماس العون قصد مواجهة التهديدات المملوكية[1].

وكان الظاهر بيبرس على رأس هذه الحملة، ويبدو أن هيثوم الأول كان في زيارة لألخانية فارس، ولذلك تولى ابنه وولي عهده تعبئة القوات والتصدي للجيش المملوكي. وانتهت المعارك بهزيمة الأرمن ومقتل ابن الملك وأسر ابنه الثاني ليون Leon مما اضطر الملك الأرمني إلى طلب الصلح والقبول بالشروط القاسية[2] التي فرضها بيبرس، وأهمها تسليم مجموعة من القلاع الموجودة على الثغور بجهة حلب والتي تتمتع بأهمية إستراتاجية خاصة قلعة دربساقTerpessach والحصينة التي تمنع التواصل بين المملكة ومنطقة الجزيرة الفراتية. وتدخل الملك الأرمني لدى مغول فارس لإطلاق سراح الأمير المملوكي قراسنقر، وذلك مقابل إطلاق سراح ابن الأمير الأسير لدى المماليك ودفع إتاوة مالية لا يذكر المؤلف قيمتها.

1 المنصوري، نفس المصدر، ص 58، 62؛ ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج 7، ص 140-141، 266؛ العيادي، نفس المرجع، ص 230–231؛ 842- 841 Deluz ch., *La fleur* … ; p

2 Deluz(ch.)., *La fleur*…, p. 842–843; Grousset(R.)., *op. cit*., p. 399-400.

ويعني قبول هذه الشروط من الناحية العملية تبعية وإلحاق المملكة بالسلطنة المملوكية. وإزاء فداحة هذا الثمن قرر الملك العجوز تحميل نفسه المسؤولية والتنازل عن العرش لفائدة ابنه، والالتحاق بسلك الرهبنة بدخوله الدير واتخاذه اسم ميقار Mecaire حتى وفاته سنة 1270[1]. كما أدت الحملة إلى انهيار إمارة أنطاكية التي كانت مصدر إزعاج وخطر منذ تأسيسها في الملة الصلبية الأولى.

- ضم مؤقت لسلطنة سلاجقة الروم التي يسميها المؤلف مملكة تركيا[2]:

ينعت المؤلف الأمير هيتون البرواناه (أي شهاب الدين بن معين الدين سليمان وزير السلطان خسره الثالث) بالخائن[3]، حيث استغل هزيمة المغول لتخليص السلطنة السلجوقية من هيمنتهم. وانتهج في ذلك سياسة تقوم على المناورة واستعان بالطرف الذي تبدو كفته راجحة، ولهذا أرسل يطلب المعونة العسكرية من المماليك. وعلى كل حال فإن السلطان الظاهر بيبرس استغل حالة الوهن العسكري المؤقت لألخانية فارس ليعزز نفوذ السلطنة في آسيا الصغرى، وهذا الأمر الذي زاد في إضعاف الأرمن وربما هدد وجود المملكة نفسها. وقاد الظاهر بيبرس حملة عسكرية كبيرة نحو سلطنة سلاجقة الروم بناءا على "استنجاد" البرواناه بالسلطان (675 هـ/1277)، وهناك خاض معارك ضد التتار، ثم سحقهم في واقعة ابلستين.

ودخل الظاهر بيبرس أراضي سلاجقة الروم دخول الفاتحين المحرّرين بتخليص المملكة من التبعية للمغول، وكان تدخل الإلخان أبغا عنيفا وقاسيا بإرسال حملة عسكرية كبيرة لاستعادة النفوذ المغولي. وكان الانتقام مروّعا هذه

1 Garcin(J.Cl.)., *op. cit.*, p. 259, 269.

2 ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج 7 ص 155-156؛ المنصوري، نفس المصدر، ص 80-81؛ Deluz(ch..), *La fleur*…, p. 843 ; Garcin J.Cl., op. cit., p. 269-271.

3 كاهان، نفس المرجع، ص 272؛ العبادي، نفس المرجع، ص 238؛ ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج 7 ص 169-170؛ Deluz(ch.)., *La fleur*…, p. 844.

المرة، وهو ما أحدث تغييرا جوهريا في الوضع السياسي والإداري للسلطنة السلجوقية بوضعها تحت الإدارة المباشرة للمغول. ولا يشير المؤلف إلى أي دور لمملكة الأرمن في هذه الأحداث التي تقع بجوارها، غير أنه يذكر أن أبغا خان اقترح على ملك الأرمن أن يضع "مملكة الأتراك" تحت إدارته، إلا أن الملك رفض ذلك بشكل مؤدب[1]، وذلك خشية من سلطان مصر الذي سيعمل على زيادة إحداث القلاقل وتقويض أمن المملكة إما بالتدخل المباشر أو بتحريك مسلمي المنطقة من التركمان.

IV - الدور الأرمني في الصراع المغولي – المملوكي :

واصل السلاطين المماليك بعد الظاهر بيبرس "حركة الاسترداد" وطرد الصلبيين من بلاد الشام إلى أواخر القرن الثالث عشر، على أن تغييرا بطيئا سيظهر على السطح ويتمثل في تحول التتار الذين استقروا بالمنطقة إلى الإسلام إلى حد إعلان القان محمود غازان الإسلام دينا رسميا[2] وذلك بعد صراعات داخل الطبقة الحاكمة التترية. فهل أن هذا المعطى سيربك حسابات الأرمن ويحول وجهة الصراعات القائمة بانتهاج ألخانات فارس سياسة جديدة تجاه جيرانهم المماليك ؟

في الحقيقة واصلت مملكة أرمينيا سياستها القديمة القائمة من جهة على العداء للسلطنة المملوكية والتحالف مع ألخانات فارس[3] واعتبارهم القوة الوحيدة القادرة على حمايتهم، ومن جهة أخرى على أمل وصول دعم عسكري من الغرب المسيحي خاصة بعد تساقط "الممتلكات اللاتينية بالشرق".

---

1 ابن حبيب، تذكره النبيه، ج 2 ص 90؛ Garcin(J.Cl.), *op. cit.*, p. 269.

2 Grousset R., *op.cit.*, p. 399.

3 المنصوري، نفس المصدر، ص 94-95؛ ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج 7 ص 294-297؛ Deluz(ch.)., *La fleur*…, p. 844-845; Grousset(R.)., *op. cit.*, p. 400; Garcin (J.Cl.)., *op.cit.*, p. 270-271.

1) الـدور الأرمنـي من عهـد أبغا خان إلى بايدو خان أي من 1280 إلى 1295:

استمرت العلاقات سيئة مع المماليك وظلت حالة العداء متحكمة بين الطرفين، وكانت هذه الوضعية مصدر ارتياح في نفوس الأرمن عـبر عنهـا الأمـير هيتـون وتثمـين سياسة القان أبغا. فقد أشاد بسياسة الاستفزاز والتحرش بجيرانه المماليك التـي بلغـت ذروتها بإرسال حملة عسكرية كبيرة إلى سوريا، وهي حملة سنة 680 هـ/1280[1] التـي قاد ها أخوه منكوتمر على رأس جيش بلغ تعداده حسب المؤلف نحو 30 ألف مقاتل. وقدّم الأمير هيتون بعض المعطيات المدققة التي تتعلق بفـترة اختيـار توقيـت إطـلاق الحملة ومدى ملائمة الظـروف الطبيعيـة لـذلك: فقـد كـان الفصـل ربيعـا مـمّا جعـل المراعـي متـوفرة إذ لا مشـكل بالنسـبة لتـأمين علـف الخيـول، ويقابـل ذلـك انتهـاج المماليك في المناطق الحدودية على طول الفترات سياسة دفاعية مـن ضـمنها اسـتخدام استراتيجية الأرض المحروقة. ويظهر أن العمليات العسكرية الرئيسـية لم تبـدأ إلا بعـد فترة من الزمن حين التحق الملك الأرمني عـلى رأس جيشـه بالتتـار منفـذا أوامـر أبغـا، وهو ما يؤكد من جديد تبعية هذه المملكة.

وعلى كل فعند انقضاء الصيف توغلت هذه القوات في بلاد الشـام، وتجهـز السـلطان النـاصر محمـد (السـلطنة الأولى) عـلى رأس جـيش لمقاتلـة التتـار وحلفائهم. وانتهت الوقائع الحربية بهزيمة الجيش المملوكي قـرب حمـص وتعقبـه من قبل وحدات تترية وأرمينية حتى مدينة شارا (شـغر ؟) Chara[2]، الـذي يمكـن أن يكون جبل شعار شرق حمـص. بيـنما ظـل القائـد المغـولي منكـوتمر في ميـدان المعركة، وتعرضت هذه القوات المرابطة قرب حمـص لهجـوم مقـاتلين مـن قبيلـة

1 Deluz(ch.)., *La fleur*…, p. 845.

2 Deluz(. Ch)., *La fleur*…, p. 846 ; Garcin J.C.l., *op. cit*., p. 321.

بدوية عربية أو هكذا توهم القائد المغولي بأنه يتعرض لهجوم حسب المؤلف. وعلى كل فان هذه الواقعة تشير إلى السياسة العسكرية للمماليك في بلاد الشام، وهي القائمة على الاستعانة بالقبائل العربية لمعاضدة الجهد العسكري للدولة في مواجهة المغول. وانتهى الأمر بكارثة عسكرية بفرار منكوتمر ومن معه واجتيازه الفرات وانقلاب النصر إلى هزيمة. ويحمل الأمير هيتون القائد التتري منكوتمر مسؤولية الهزيمة، وعند بلوغ القان أبغا خبر الهزيمة أمر بإعداد حملة جديدة. لكن المنية عاجلته في تلك السنة، وكان ذلك إيذانا بتوقف مؤقت للمواجهات العسكرية الكبيرة بين التتار والمماليك إذ لن تستأنف إلا في عهد القان محمود غازان.

وفي عهود الألخانت التتار الذين تعاقبوا إثر ذلك على الحكم حتى ولاية محمود غازان لم تسجل مواجهات ذات قيمة عسكرية، وتراوح الموقف الأرمني منهم ما بين الإشادة ببعضهم والاستياء من البعض الآخر. فأبدى الأرمن من القان تكدار (682 هـ/1284) الذي خلف أبغا خان قلقا تجاهه وتوجسوا منه خيفة، واعتبروه حاكما سيئا بالنسبة لقضايا المسيحية ولمملكة الأرمن بالخصوص رغم أنه عمّد عندما كان صغيرا[1]. فقد توقفت النشاطات العسكرية الكبيرة ضد المماليك، تمثل الإجراء الوحيد الذي اتخذه في دعوته ملوك أرمينيا وجورجيا وغيرهما من "الملوك المسيحيين ببلاد الشرق" للقائه مما أثار انزعاج هؤلاء. ويثير هيتون الريبة بشأن ميل هذا القان للإسلام وربما اعتناقه هذا الدين، إلا أن الوقت مازال مبكرا ليعلن هذا القان الإسلام دينا رسميا لألخانية فارس نظرا لوجود قوى مناوئة لهذا التوجه داخل الطبقة الحاكمة. ولهذا سرعان ما تمت الإطاحة به.

1 Deluz ch., *La fleur* …, p 846.

أما القان أرغـون (683-690 هــ/1284-1291) فيعـدّه المؤلـف أحـد القانـات الداعمين والمخلصين لقضايا المسيحية والمسيحيين، بإظهاره عداء لا لبس فيـه للإسـلام[1]، وجسم ذلك من خلال سياسة معادية للمماليك وعودة التوتر مع سلطنة المماليك. كما طلب من الملوك المسيحيين ببلاد الشرق (مثل جورجيـا وأرمينيـا) المجـيء إليـه لبحـث إمكانية القيام بحملة عسكرية على بلاد الشام، و"...استرجاع الأرض المقدسة..." حسب المؤلف وإعطاء الإذن بإعادة بناء الكنائس. وفي خطوة أهم من كل ذلك السعي لإقامة حلف مع الغرب المسيحي لمحاصرة الدولة المملوكية والإجهاز عليها، وذلك عن طريـق تكليف الملك الأرمني بالقيام بدور الوسيط لدى البابا هونريوس الرابع. وعلى العكـس من ذلك تماما فـإن الأمـير هيتـون نعـت القـان قيكتـو690) Gaikhatou هــ/1291-1292) بعديم الأخلاق[2]. فهل كان سبب ذلك سياسة هذا القان الرامية لإقامة علاقـات سلام وحسن جوار مع المماليك، إذ كان يظهر "ميله للإسلام" ؟ وربمـا كـان ذلـك يـؤشر لتعاظم عدد ونفوذ من أسلم من الفئة الترية الحاكمة بألخانية فارس، وانـدماجهم في البيئة الثقافية والحضارية التي يعيشون فيها. كـما أن سـقوط إمـارة عكّـا سـنة 1291 وهي آخر معاقل الصلبيين ببلاد الشام، ربما كان أيضا عـاملا مشـجّعا لهـذه السياسـة الجديدة.

ولئن كان القان بايدو- ابن أخ قيكتو- (1295-) قـد حكـم لفـترة قصـيرة إلا أنه كان مسيحيا جيدا، وكان بالإمكان أن يكـون عونـا للمسـيحيين بـالشرق لكنه توفي مبكرا، إذ سريعا ما تمت الإطاحـة بـه في انقـلاب دمـوي مـن خـلال "مؤامرة" دبرتها "المجموعة المسلمة" المتنفذة والقوية ضمن الطبقـة الحاكمـة بالتحالف مع غازان أحد أفراد الأسرة الحاكمة[3]. ويعني وصول غـازان للسـلطة

---

1 Deluz (ch.)., *La fleur*…, p. 847 ; Garcin J.C.l., *op. cit*., p. 321-322.

2 ابن حبيب، نفس المصدر، ج 2 ص 141؛ Deluz ch., *La fleur*…, p. 847.

3 نفـس المصـدر، ج 2 ص 183؛ Deluz ch., *La fleur*…, p. 848; Garcin J.C.l., *op.cit*., p. 321-322.

ضمنيا أن المجموعة المسلمة في السلطة قد حسمت الصراع مع القوى الأخرى بصورة نهائية لفائدتها، وأن الإسلام أصبح الديانة الغالبة على أفراد الطبقة الحاكمة وبين تتار فارس والعراق. وهذا يعني اندماجا في المحيط الذي يعشون فيه وتأقلمهم مع هذه البيئة التي استقروا فيها، وهو ما يعتبر خسارة للممالك المسيحية الصغيرة بالمنطقة.

2) الأرمن والسياسة التوسعية لمحمود غازان (694-704 هـ/ 1295-1304):

كتكريس منطقي للانتصار النهائي للإسلام على غيره من الأديان بين مغول فارس والعراق، أعلن القان الجديد- الذي أصبح يحمل اسم محمود- الإسلام دينا رسميا للدولة، وسينبري غازان من موقع الشرعية الدينية هذه المرة في منافسة المماليك على مركز الزعامة للعالم الإسلامي ومدّ نفوذه إلى الأماكن المقدسة بالحجاز. ورغم إبداء هيتون تحفظاته بشأنه، إذ هو "...رجل وصولي لا يبحث إلا عن مصالحه الشخصية..."، إلا أنه مع ذلك أكثر الخانات فارس فائدة للمسيحية وخدمة لها بفضل سياسته الخارجية وتحديدا سياسة "العدوان" والتوسع على حساب سلطنة المماليك[1]. ولذلك فمن صالح القوى المسيحية في المنطقة وفي الغرب الأوربي استغلال هذه التوجهات مادامت تجمعهما مصالح سياسية، وذلك بإقامة تحالف متين مع مغول فارس بغضّ النظر عن الانتماءات الدينية للطرفين للإجهاز على العدو المشترك. وقد اتسمت العلاقات المغولية- المملوكية في هذه المرحلة بالتقلب رغم تبادل السفارات والرسائل، إلا أن النزاع المسلح كان هو الغالب عليها بعودة محمود غازان إلى سياسة المواجهات العسكرية الكبيرة والإجتياحات المتكررة لبلاد الشام. ولهذا سجل عهده عدة وقائع كبرى مع المماليك :

1 ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج 8 ص 117؛ Deluz ch., *La fleur*..., p. 848-849.

* الواقعة الأولى بوادي الخزندار قرب حمص (699 هـ/1301):

كان الهدف من هذه الحملة "...استعادة الأرض المقدسة..." حسب المؤلف[1]، وكان الأمير هيتون مشاركا فيها إلى جانب الملك الأرمني. وكانت مشاركة الجانب الأرمني كالعادة بطلب من القان، ولم يتخلف عن هذه الواقعة كل من الجيورجيين و"مسيحيي الشرق" الذين انضموا إلى الجيش التتري، وتحدث المؤلف عن إعداد جيد من الجانب الأرمني. أما من الجانب المملوكي كان السلطان الناصر محمد على رأس الجيش، وأسفرت المواجهة عن هزيمة الجيش المملوكي قرب حمص وتعقبت وحدات مغولية وأرمنية القوات المنسحبة إلى مصر. وتوجهت القوات الغازية بعد هذا النصر الباهر إلى دمشق التي دخلها غازان دون مقاومة تذكر، وهو نصر لا يضاهيه حسب المؤلف سوى النصر الذي حققه هولاكو عند اجتياحه للعراق.

ولم تستمر إقامة غازان في دمشق إذ انسحب إلى شمال العراق عند بلوغه خبر تحركات عدوه بايدو، وترك القائد قطلوشاه على رأس القوات المغولية وكلفه بإتمام اخضاع البلاد. وإثر ذلك غادر الملك الأرمني بدوره بلاد الشام متوجها إلى نينوى بشمال العراق بطلب من غازان الذي كان مقيما هناك، والغرض من ذلك على ما يبدو الاحتفاء به ومنحه مكافأة نظير إخلاصه وما بذله من جهد عسكري. وكان الاستقبال حارا حسب المؤلف، وهو ما يدل على المكانة الخاصة التي يحظى بها لدى القان التتري. وكانت المكافأة سخية إذ تمثلت في منحه نصيبا طيبا من غنائم الحرب وتمكينه من وحدة عسكرية مغولية قوامها ألف فارس لحراسة وحماية المملكة من أي عدوان محتمل قد

---

1 المنصوري، نفس المصدر، ص 156-157؛ ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج 8 ص 120-129؛ ابن الجزري، محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه... (المعروف بتاريخ ابن الجزري)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1998، ج 1 ص 424-427.

Deluz ch., *La fleur*…, p. 849-850 ; Grousset R., op. cit., p.401-402.

تتعرض لـه، وأن تتكفـل "مملكـة تركيـا" (أي سـلطنة سـلاجقة الـروم) بتحمـل أعبـاء مئونتهم ودفع رواتبهم[1]. واستجابة لالتماس أرمني قديم ومتكرر، أعطيـت التعلـيمات للقائد التتري (مولاي) الذي خلف قطلوشاه بالشـام أن يتوجـه عـلى رأس قواتـه التـي قوامها 20 ألـف جنـدي إلى الأراضي المقدسـة بفلسـطين وتخليصـها مـن يـد المسـلمين وتسليمها لملك الأرمن، وإعادة تنظيمها بتعيين نواب على بلاد الشام.

ولم يتمكن المغول من استثمار هذا النصر الكبير حسب الأمير هيتون، إذ تمكـن المماليك بسرعة من استعادة زمام المبادرة. ويعزو ذلك إلى خيانـة أمـير مملـوكي اسـمه قبجق[2] كان "لاجئا سياسيا" لدى غازان، إذ يتهمه بالقيام باتصالات سرية مع السـلطان المملوكي الناصر محمد الذي قدم له وعودا مغريـة بمنحـه أمـوالا وتزويجـه مـن أختـه وتعيينه نائبا على الشام في حال نجاحه في تنظيم تمرد ضد التتـار بغايـة طـردهم مـن بلاد الشام. وكان التمرد واسع النطاق، ولم تـتمكن القـوات التتريـة المرابطـة عـلى نهـر الأردن- استعدادا لاقتحام مدينة القدس- من التصدي له واضـطرار مـولاي للانسـحاب شرق الفرات عندما أدرك أن لا طاقة له على مواجهته. وأدخلت هـذه الأخبـار السـيئة الاضطراب على غازان، ولكن لم يكن بإمكانه إعداد حملة جديدة بسبب قيظ الصـيف حسب المؤلف.

وتعويضا عـن النتـائج السـلبية للحملـة السـابقة، أمـر غـازان سـنة 1301 بإعداد حملة كبيرة لمهاجمة أنطاكيـا و"اسـتعادة الأرض المقدسـة". وتمـت دعـوة ملـكي أرمينيـا وجورجيـا" وملـوك الشرق وفرسـان الهيكـل المسـتقرين بقـبرص للمشاركة، وقدمت القوات القبرصية بحرا وتـمّ إنزالهـا بطرطـوس أيـن التحمـت

1 ابن الجزري، نفس المصدر، ج 1 ص 423-424. ,.Deluz(ch.), *La fleur*…, p. 852

2 Deluz(ch.), *La fleur*…, p. 852.

بالقوات الأرمنية، في حين كانت القوات التترية معسكرة على الضفة الشرقية لنهر الفرات. وكان انطلاق الحملة عند اقتراب الشتاء وقوامها 30 ألف تتري بقيادة قطلوشاه، إلا أن مرض غازان المفاجئ واضطراره للعودة إلى العراق أدى إلى إلغاء الحملة وعودة ملك الأرمن إلى مملكته. ولهذا أجهض مشروع استعادة الأرض المقدسة حسب هيتون[1].

* المصاف العظيم: واقعة شقحب (703 هـ/1303):

تم التحضير لهذه الحملة بإعداد قوات مغولية ضخمة،و دعوة الأرمن والجيورجيين للمشاركة فيها. وكان الهدف المعلن من هذه الحملة الجديدة "استعادة الأرض المقدسة"، كما كان الأمير هيتون مرة أخرى إلى جانب الملك ليون الرابع. لقد قام التتار باجتياز نهر الفرات رفقة القوات الحليفة وتوغلوا في الأراضي السورية[2] باتجاه مدينة حمص التي حوصرت مرة أخرى، ثم اقتحمت هذه البلدة وسحقت المقاومة التي أبداها سكانها إضافة إلى أعمال النهب والسلب والقتل. وكانت القوات المملوكية التي تمت تعبئتها قد وصلت قرب حمص بقيادة السلطان الناصر محمد، واتبع المماليك خطة عسكرية دفاعية صرفة تقضي بعدم المبادرة بالهجوم والتمسك بمواقعهم وعدم الانجرار إلى الاشتباك بالعدو، إضافة إلى حسن انتقاء موقع التمترس الذي تميز بالحصانة الطبيعية والوعورة.

وفي المقابل لم تكن للقائد المغولي خطة عسكرية واضحة حسب المؤلف، وإنما كان التعويل على الحجم الكبير للقوات التترية والحليفة من ناحية، وسوء تقدير للإمكانيات العسكرية للعدو والاستخفاف به من ناحية ثانية. وبناء على هزيمته العسكرية السابقة، كان الاندفاع إلى الهجوم دون خطة مسبقة. وكانت

1 Deluz (ch.)., *La fleur*…, p. 852.

2 Deluz(ch.)., *La fleur*…, p. 852-853.

الخطة المملوكية ناجحة إذ نال الإجهاد والإنهاك القوات المهاجمة دون أن تتمكن من زحزحة قوات العدو من الموقع الذي تحصنت فيه، مما اضطر القوات المغولية إلى الانسحاب باتجاه دمشق[1] وما حولها حيث الماء والمرعى. لكن المفاجأة كانت بانتظار التتار وحلفائهم حيث أطلق سكان دمشق قنوات المياه وأغرقوا معسكرات الجند، وهو ما تسبب في غرق عدد كبير منهم وكذلك أعدادا من الخيل والمعدات الحربية. ولهذا أجبرت القوات الغازية على الانسحاب في أجواء من الفوضى الشاملة، وتكبد الأرمن خسائر كبيرة عند الانسحاب فضلا عن تعقبهم من قبل أهالي دمشق بالقتل والأسر والنهب. لكن الملك الأرمني تمكن من اجتياز الفر، واتجه صوب الفرات شمال العراق لملاقاة محمود غازان.

وكانت هذه الواقعة كارثة كبيرة باعتبارها آخر الحملات التترية الكبرى لغزو بلاد الشام في القرن الرابع عشر، ويحمل الأمير هيتون القائد التتري قطلوشاه المسؤولية كاملة عن هذه الهزيمة بسبب سوء قيادته وإدارته للمعركة. وبالتالي فإن مملكة أرمينيا الصغرى ستترك بعد هذه الواقعة لمصيرها، حيث ينتظرها الانتقام المملوكي.

* الانتقام المملوكي: 18 جويلية 1305 واقعة Lajazzo ميناء إياس:

بعد أن تحقق المماليك من عدم استعداد التتار لنجدة حلفائهم وأتباعهم الأرمن، تم التمهيد لغزو أراضي المملكة بتكرار الاستفزازت العسكرية والتوغل في أراضي المملكة مع ما يصاحبها من أعمال نهب وسلب وأسر وقتل. وتتويجا لهذه العمليات العسكرية المحدودة، شن المماليك حملة عسكرية كانت دوافعها التجارية واضحة إذ استهدفت ميناء إياس Lajazzo وهو أهم

---

1 المنصوري، نفس المصدر، ص 163؛ ابن حبيب، نفس المصدر، ج 2 ص 245-252؛ ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج 8 ص 157؛ Deluz(ch.)., *La fleur*..., p. 854-868

ميناء تجاري للمملكة ومنافس لمرافئ السلطنة المملوكية. وكان مجموع الجند المشاركين في الحملة إذا ما صدقنا المؤلف 7000 جندي تقدموا في أراضي المملكة في شهر جويلية سنة 1305، وخاضت ضدهم القوات الأرمنية معركة حاسمة غربي المدينة. وأسفرت تلك المعركة عن نصر أرمني ساحق حسب المؤلف إذ تمت إبادة جل الجند المملوكي ولم ينج منهم سوى 300 فرد، وهو ما يناقض الرواية المملوكية عن هذه الواقعة. وكان من النتائج الباهرة لهذا النصر الكبير تأمين أراضي المملكة، "...فلم يعد بإمكان المماليك التجرؤ على مهاجمتها..."[1].

1 المنصوري، نفس المصدر، ص 174؛ ابن حبيب، نفس المصدر، ج 2 ص 257؛ ألعبادي، نفس المرجع، ص 232؛ Deluz(ch.)., *La fleur*…, p. 854; Grousset R., *op. cit.*, p. 401.

خاتمة:

لا شك أن لهذا الكتاب قيمة عالية من حيث أهميته وغزارة المادة التاريخية والسياسية والجغرافية التي يزودنا بها، إذ تساعد على تدقيق المعطيات التي توفرها المصادر الأخرى ومقارعتها بها بشأن حقبة عصيبة ومفصلة من تاريخ بلاد الشرق. وقد تميزت تلك الحقبة بالانهيار النهائي للخلافة العباسية، وتكوين المغول لأكبر الإمبراطوريات في التاريخ التي سرعان ما انقسمت إلى ممالك متناحرة، وكذلك دخول المشروع الصلبي طور التلاشي والاندثار. وفي هذه الأثناء كانت السياسة الأرمنية تراهن على المغول كقوة عظمى جديدة على مسرح الأحداث العالمية، قصد حماية نفسها وتأمين دور الوساطة بين المغول والغرب المسيحي. لكن هذا الدور كان يتجاوز حجمها وإمكانياتها، وسيكون الثمن مكلفا للغاية لأن هذه المملكة الصغيرة عاجزة عن الصمود طويلا أمام الضغوط الهائلة المسلطة عليها.

المحـور الثـاني

أوضاع بعض مؤسسـات الحكم

ظاهرة عصيان المماليك السلطانية في القاهرة
في العهد الجركسي (825هـ - 896هـ / 1421م-1496م)*

مقدمة:

إن ظاهرة الاقتتال داخل الفئة المملوكية التي حكمت مصر والشام والحجاز ليست بالشيء الجديد فكل التاريخ المملوكي منذ تأسيس هذه السلطنة في 649هـ-1250م وحتى زوالها في 923هـ-1517م، يصطبغ بهذه الظاهرة،التي تعدّ جزءا لا يتجزأ من المشهد السياسي والأمني لهذا العهد. ولئن كان الهدف الأساسي ومحور الصراع الدامي بين الكتل المتنافسة، هوا لصراع على الحكم وتحديدا كرسي السلطنة لما يترتب عن ذلك في صورة نجاح إحداها من مكاسب ومنافع مادية ومعنوية متنوعة لا يستهان بها.

لكن ما يعنينا هنا – في هذا العمل –، هو التعرض لظاهرة العصيان لدى فئة محددة منهم، وهي فئة المماليك السلطانية وخصوصا فئة الأجلاب منهم.إن تحركات هؤلاء وأحداث العصيان التي يكونون وراءها،لا تهدف إلى الإطاحة بالسلطان الحاكم، لأن ذلك يعني عمليا فقدان تلك المكاسب لذلك فلنا أن نتساءل عن دوافع تمردهم وعصيانهم اللذان أصبحا ظاهرة مزمنة ومستوطنة. وكيف تم التعامل معهما والتساؤل عن تداعياتها على نظام الحكم. ويبدو في جل الحالات تقريبا أنّ هدفهم ليست الإطاحة بالسلطان فهو منهم إذ إنهم أصحاب الحكم والانقلاب عليه يعني عمليا انهيار المكاسب والمنافع التي يحصلون عليها.

I - دوافع مطلبيه بالأساس :

تسجل الحوليات المملوكية تحركات عصيان من قبل المماليك السلطانية بمختلف أصنافهم في العهود السابقة لهده الفترة، بغاية الضغط لتحقيق بعض المطالب، لكن هده التحركات اتخذت في العهد الجركسي منحى جديدا، اتسم بتواتر أحداث العصيان وتصاعدها خاصة مند نصف القرن الثاني من القرن 15 م. وقد ارتبط دلك ارتباطا وثيقا بطبيعة نظام الحكم القائم.

1- نظام حكم عسكري وجند أجنبي عن البلاد*:

تتسم الدولة المملوكية وبلا منازع بطبيعتها العسكرية، التي تطلبتها ظروف المرحلة التاريخية التي كانت تمر بها منطقة المشرق، وخصوصا مصر والشام وتتمثل في مواصلة هذه الدولة للجهد الذي بدا مع الزنكيين ثم الأيوبيين في مواجهة الوجود الصلبي ببلاد الشام، وتصفية "الممتلكات اللاّتينية" المتبقية، إذ تمكن المماليك من استعادة آخر الأراضي التي كانت بحوزة الصلبيين في سنة 1291م. كما كان على السلاطين المماليك التصدي لتهديدات بقايا النشاط العسكري الصلبي،الذي اتخذ من بعض جزر الحوض الشرقي للمتوسط،مثل قبرص ورودس وكريت،قواعد انطلاق لمهاجمة سواحل مصر والشام، وهي المواجهات التي يطلق عليها المؤرخون "الحركة الصلبية المتأخرة". يضاف إلى ذلك مواجهة الإجتياحات المتكررة للمغول- القادمين من الشرق البعيد-لأراضي السلطنة، والتي كان أخرها اجتياح تيمورلنك لقسم من بلاد الشام في مناسبتين في أوائل العهد الجركسي. هذه الأعباء العسكرية منحت ولاشك دولة المماليك مزيدا من الشرعية التي تفتقر إليها في نظر "الأهالي" بالنظر إلى أصولهم الرقية. إذ يعد أفراد هذه الفئة العسكرية الحاكمة

* مقال نشر ضمن أعمال الملتقى الدولي الذي نظمه مخبر تاريخ العالم العربي الإسلامي الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 10-12 أفريل 2008، نشر بتونس2011.

منذ 1250م، أغرابا عن هذه البلاد فهم ينتمون إلى إثنيات وأعراق متنوعة،لكن جلّهم كانوا ينتمون إلى العنصر التركي، وذلك حتى القرن7هـ-13م، ثم غلب تدريجيا العـنصر الجركسي.

ويحتكر المماليك "حمل السلاح ومهنة القتال"[1]، إذ أنهم يؤلفون جيشا محترفـا، استبعد منه السكان المحليون، فلم يكن لهم إجمالا أي دور في الحياة العسكرية ويـتم جلب أفراد هذه الفئة في إطار تجارة الرقيق، فيؤتى بهـم وهـم صـغار السـن إلى مصر والشـام، وتـتم تـربيتهم تربيـة دينيـة مـن ناحيـة وإعـدادهم إعـدادا جيـدا للحيـاة العسكرية من ناحية أخرى، و بعد التخرج يتم إدماجهم في فرق الجيش، فشكل بذلك المماليك فئة متميّزة ومحظوظة،باستحواذهم على المناصب والخطط الأساسية في جهاز الدولة، فكانوا الضمانة لاستمرار دولـتهم وديمومتهـا، واقـتصر اسـتخدام الأعيـان مـن الأهالي-لحاجة المماليك إليهم- في الخطط والوظائف الإدارية والمالية والدينية، فمثلـوا الجناح المدني لنظـام الحكـم، كـما قـاموا بـدور قنـاة الاتصـال بـين السـلطة والسـكان المحلّيين.

إن الأصول الرقية لأفراد هـذه "الطائفـة"، والتربيـة القاسـية التـي يتلقونهـا في الطباق، والقائمة على الانضباط، والطاعة، وأسلوب عيشهم الخاص، و"مهنتهم المميّزة"، وتنفذهم في أجهزة الدولة، وحرصهم على المحافظة على هذا التميّز، كـان يـؤدي بهـم إلى اختلاط محدود بالمجتمع المحلي، فكانت صلتهم به ضعيفة،فشكلوا مجتمعا صغيرا "شـبه مغلـق"،وعمومـا فقـد اسـتبعدوا الأهـلي مـا أمكـن مـن التـدخل في صراعـاتهم الداخلية.

وكان المحور الأساسي لـلصراع داخـل هـذه الفئـة هـو كـرسي الحكـم. والامتيازات المترتبة عن ذلك، فحرصوا على منع قيـام أي سـلالة حاكمـة مـن داخلهم، برفض مبدئي لوراثة العرش السلطنة،الذي يعد مبدئيا حقا مشروعـا

---

1 - عاشور(سعيد عبد الفتـاح)، المجتمـع المصري في عصر سـلاطين المماليـك، دار النهضـة العربيـة، القاهرة 1962 ص 11-12

لجميع أفراد الفئة، لكن ذلك لم يمنع ظهور سلالة حاكمة في العهد المملوكي الأول، ونقصد بذلك أسرة قلاوون (1289-1381م)[1]، غير انه لم تكن هنالك قاعدة واضحة وثابتة لتولي هذا المنصب، مما جعله محل صراعات لا تكاد تنتهي بين طوائف المماليك ويرتبط ذلك بتوازن القوى بين سن هذه المجموعات المتنافسة وهو ما يستوجب التعرض ولو باختصار إلى بنية المؤسسة العسكرية ومكانه مماليك السلطان داخلها:

2- بنية الجيش المملوكي وامتيازات المماليك السلطانية:

يعد الجيش في السلطنة المملوكية قاعدة نظام الحكم وضمانة استمراره، لذلك فهو يرتبط ارتباطا عضويا بتواصل تدفق الرقيق الذي كان يجلب في طور أول أساسا من منطقة القبجاق (المماليك الأتراك)، ثم من منطقة القوقاز في طور ثان (المماليك الجراكسة)، وإعدادهم للحياة العسكرية ليتسلموا فيما بعد المناصب الأساسية في الدولة. كان هذا الصنف من الرقيق يؤلفون فرقا متعددة، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام هي كالآتي: ألمماليك السلطانية،ومماليك الأمراء، وأجناد الحلقة[2]:

المماليك السلطانية من ناحية ويمثلون نخبة الجيش وعموده الفقري، إلى عدة أصناف وهم: المماليك الأجلاب وهم صفوة المماليك السلطانية يتم جلبهم إلى السلطنة وهم صغار السن وتتم تربيتهم في الطباق تربية دينية وعسكرية، وتقوم الحياة في الطباق على قواعد متينة مثل النظام والانضباط والصرامة والطاعة.

---

1 - ضومط (انطوان خليل)، الدولة المملوكية: التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثة، بيروت 1982 ص 253-255.

2 - المقريزي، الخطط، ج2، ص214-219.- الظاهري(غرس الدين خليل)، زبدة كشف المالك...، ص115-116./

Ayalon (D)., studies of the stucture of the Mamluk Army ,*B.S.O.A.S*,XV et XVI.London , 1953-1954 , XV 2, p.203-228

وتنشأ بين مماليك الطباق رابطتي الخشداشية أو الزمالة وهي رابطة تضامنية بين هؤلاء ونوع من العصبية تعويضية عن فقدانهم لجذورهم وذلك في مواجهة المماليك الآخرين وفي مواجهة المجتمع المحلي حيث فرض عليهم العيش فيه. كما تنشا بين هؤلاء المماليك وأستاذهم – إي السلطان – رابطة الأستاذية وهي نوع من رابطة الأبوة فالسلطان يعد والدهم وو مصيرهم مرتبط إلى حد كبير بمصيره. وتقوم هذه العلاقة على مجموعة من الحقوق والواجبات تقوم خاصة على الوفاء وطاعة السلطان[1].

وضمن هذه الفرقة أي المماليك الأجلاب، ينتقي السلطان حرسه الخاص الملازم له – الحرس السلطاني – ويطلق عليه: الخاصكية الذين يؤلفون نخبة النخبة فتميزوا عن غيرهم بالحظوة والامتيازات[2] مما جعلهم محل " حسد " بقية الأجلاب فضلا عن بقية أصناف المماليك.

و إلى جانب المماليك الأجلاب وعلى رأسهم الخاصكية، ضمت فئة المماليك السلطانية مجموعتين أخريين أقل حظوة وأقدم استقرارا في السلطنة، وأكثر تمرسا بفنون القتال، ومعرفة بخبايا الحياة العسكرية والسياسية، لكن اقل حظوة ومكانة وهم : المماليك القرانيص وهم بعض مماليك السلاطين السابقين (ممن توفوا او عزلوا ...) فضمّهم السلطان إليه، وهؤلاء يفتقرون إلى التجانس والى الرابطة الخشداشية كما أن رابطة الأستاذية ضعيفة أو معدومة فكانوا عموما محل ريبة وشك من جانب السلطان إلى جانب هؤلاء وفي أسفل المماليك السيفية وهم مماليك الأمراء المتوفى أو الذين سجنوا أو عزلوا وأحيلوا على "التقاعد" (الطراخنة)، وهؤلاء بدورهم يفتقرون لرابطة الخشداشية لعدم تجانسهم – والأدنى حظوة ومكانة أما الصنف الثاني، من المماليك هم مماليك

---

1 - العريني (السيد الباز)، المماليك، دار النهضة العربية،بيروت1967 ص 219-220./ ضومط (انطوان خليل)، نفس المرجع، 39 و50- 54.

2 - لظاهري، نفس المصدر، ص 125 .

الأمراء ولكل أمير عدد من المماليك يتناسب "نظريا" مع رتبته في الإمرة (أمـير عشرة – أمير أربعين، أمير مائة ...)، لكن الأمـراء، لم يتقيّـدوا كثـيرا بالعـدد الـذي يتناسـب مـع رتبتهم خاصة في ظل سلاطين ضعاف. والصنف الأخير من الجيش هو ما يعرف بأجناد الحلقة، كانوا يأتمرون بأمر السلطان دون أن يكونوا ملكا لـه، وينتمـي عنـاصر الحلقـة إلى فئة أولاد النـاس، وأولاد السـلاطين، إضـافة إلى عنـاصر أخـرى متنوعـة مـن العـرب والأكراد والتركمان، وبعض المعمّمـين. وشـكّل أجنـاد الحلقـة مـع المماليـك السـلطانية العمود الفقري للجيش المملوكي .

وإذا كان الجنـد المملـوكي يحصـل عـلى جملـة مـن المنـافع والامتيـازات والتـي تتفاوت من مجموعة إلى أخرى، فـان المماليـك السـلطانية وخصوصـا الأجـلاب مـنهم، كانوا الأكثر استفادة من وجود أستاذهم – السلطان – على رأس الهرم السياسي، فعنـد التخرج بعد عدد من السنوات يقضونها في الطباق، يتم عتقهم ويتـدرجون في مراتـب الإمرة، وهو ما يؤدي مبـاشرة إلى زيـادة مكاسـبهم الماديـة والمعنويـة وكـان المملـوك المتخرج حديثا من الطباق، يحصل على مجموعة من المنح الماديـة والنقديـة - بعضـها قار وبعضها الآخر ظرفي-، والتي شـكلت الـرابط الأكـثر قـوة بـين السـلطان ومماليكـه خاصة الأجلاب منهم، وتتمثل في الجامكية، وهي المرتب الشهري، وتكون عادة الأكـثر انتظاما في الدفع.

– الإقطاع، ويتراوح مابين زمام قرية وزمـام نصـف قريـة قبـل الترقـي إلى رتبـة الإمرة.

– مواد غذائية يومية، مثل اللّحم والخبز والتوابل.

– أضحية العيد.

– الكسوة السنوية، وتسلم نقدا.

- مجموعة من"النفقات"، تدفع في مناسبات معينة، مثل النفقة التي تدفع بمناسبة نزول السلطان لأول مرّة إلى المدينة. والبيعة، والنفقة هي مبلغ مالي محدد حسب رتب الأمراء، يدفع عند اعتلاء السلطان الجديد العرش. ونفقة خاصة عند الخروج في حملة عسكرية، ليتمكن الجند من تجهيز أنفسهم. ونفقة النصر، ويبدو أنّها مستحدثة منذ عهد السلطان قايتباي.

هذه الامتيازات يقابلها مجموعة واجبات تجاه السلطان وعلى رأسها الوفاء والطاعة وتثبيت حكمه مما يعني استمرارا لهذه الحقوق والامتيازات وأداء الخدمة العسكرية سواء تعلق الأمر بالدفاع عن حدود السلطنة أو قمع انتفاضات داخلية.

وقد تأثرت هذه الحقوق والامتيازات التي تمتع بها المماليك السلطانية، وخصوصا الأجلاب، بالتطورات الجديدة التي عرفها الحكم المملوكي منذ إقصاء المماليك "الأتراك" عن الحكم، وانتهاء ما يعرف بعهد المماليك الأتراك، والبداية الرسمية لعهد المماليك الجراكسة مع سلطنة برقوق الثانية في 792هـ - 1389م. كما تأثرت بالظرفية التي طبعت كل عهد من عهود الدولة الجركسية، خصوصا بعد الإطاحة بالسلطان الناصر بن فرج بن برقوق .

فتميزت هذه الفترة التي تهمّنا والممتدة من 825هـ-996هـ / 1421م-1496م، بكونها:

- فترة نهوض جديد بعد حالة طويلة نسبيا من عدم الاستقرار بسبب الاقتتال الداخلي على الحكم، الاجتياح المغولي بقيادة تيمورلنك في مناسبتين،إضافة إلى الوباء والمجاعة[1] اللّذان ضربا السلطنة بقوة بالغة.كل هذه الأحداث أوهنت بشدّة قوى الدولة والمجتمع، و دون أن تمكنها من فسحة من

1.المقريزي، الخطط ...،ج2ص 23

الزمن لالتقاط الأنفاس. تحقق هذا النهوض ألظرفي أساسا في عهد السلطان قايتباي[1]، تخللته بعض الانتكاسات التي لن تؤثر في التوجه. ومن أبرز مظاهر هذا النهوض:

- عودة نسبية إلى حاله من الاستقرار السياسي والأمني، تجلّت في الطول النسبي لفترة حكم سلاطين هذه الحقبة من العهد الجركسي ساعد في ذلك تقدمهم في السن وبالتالي تمتعهم بخبرة لابأس بها في مجال تسيير شؤون الدولة، ويجسمها طول عهد السلطان قايتباي الدي دام نحو 29 سنة. سيطرة السلطنة على قسم واسع من تجارة المحيط الهندي وقيامها بدور الوسيط في هذه التجارة مع دول البحر المتوسط خصوصا مع المدن التجارية الإيطالية.

- تدخل السلاطين المماليك منذ عهد برسباي في هذا النشاط الاقتصادي، بفرض احتكارهم التجاري، الأمر الذي سيزيد من ناحية في مدا خيل السلطنة، ويدعم موقع السلطان المالي، وبالتالي العسكري في مواجهة بقية الأمراء[2]، لكن هذه السياسة التجارية ستكون لها اثأرا كارثية على نشاط التجار الكارمية[3] وزيادة أسعار مواد التوابل والبضائع الشرقية في أوروبا.

- الإصلاح النقدي والذي سيؤدي إلى نوع من الاستقرار في سوق المعاملات المالية بضرب الدينار الأشر في، في عهد برسباي، وهو اقل وزنا وقيمة من الدنانير المتعامل بها في السوق. لكن هذا الإصلاح النقدي لم يمنع

Garcin(J.C),(sous la dir) ;*Société et cultures du Monde Musulman Médiéval* (*X-XV.siècles*), Nouvell cléo , Paris 1995 Ti,344-346 .

1 - Ibid, p.348.

2 -Ibid,; p 348.

3- ضومط (انطوان خليل)، نفس المرجع، ص 220 – 223.

تواصل التلاعب بقيمة العملة، ومن مؤشرات ذلك، الانتشار الواسع النطاق للتعامل "بالفلوس النحاسية" مما ألحق أضرارا بالغة بالتجارة الداخلية.[1]

أما من الناحيتين السياسية والعسكرية: فقد تباعد الخطر المغولي نهائيا بعد الحملة الأخيرة لتيمورلنك أواخر القرن 14 وموطلع القرن15م، كما تضاءل خطر النشاط القرصني الذي كان يهدّد باستمرار سواحل مصر والشام، بعد قيام السلطان برسباي بحملات تأديبية على قبرص827-829هـ_1423-1425م.وجزيرة كريت. إلا أن ذلك لا يعني تامين حدود السلطنة بالكامل، فبعض الإمارات التركمانية المعادية على الحدود الشمالية لبلاد الشام ما فتئت تتسبّب في إثارة متاعب للسلطنة. غير أن هذه الظرفية الملائمة نسبيا ستشهد تبدّلا متسارع الوتيرة في أواخر القرن15م، ومن أهم ملامحه: تصاعد حدّة التوتر في العلاقات المملوكية-العثمانية،بدخولها طورا جديدا،اتّسم بتصاعد المواجهات العسكرية لاسيما منذ عهد قايتباي،إذ أصبح الصراع قائما بين قوة قديمة آفلة،وبين قوة جديدة صاعدة، ذات شهية لمزيد التوسع وضم الأراضي على حساب المماليك وإزاحتها من طريقها.

كما ساهم التراجع المستمر للسلطنة في اتساع نطاق بؤس الأرياف،وتراجع الحركة الاقتصادية في المدن، وانكماش العمران بسبب سياسة المماليك التجارية والجبائية، والتي عضّدتها الكوارث الديمغرافية المتلاحقة[2]. وكانت الضربة القاصمة على المستوى التجاري هي وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي منذ أواخر القرن15م، وبالتالي نهاية احتكار المماليك لتجارة الشرق، ولاشك أن لأحداث العصيان التي زادت وتيرتها دور

---

1 - نفس المرجع ص 245-246 Ashtor (E), *Histoire des prix et des salaires dans l'orient Médiéval* ; Ecole pratique des/ hautes études, Paris , 1962 , p 271-272

2 - طبابي (بلقاسم)، الموت في مصر والشام في العهد المملوكي، أطروحة دكتوراه، جزءان تحت إشراف الأستاذة منيرة شابتو الرمادي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية (السنة الجامعية 1996-1997) ج I ، ص 26 -96.

في انقلاب هذه الظرفية. وعلى كل فلئن كان هذا النهوض حقيقيا، إلا أنه يظل في نطاق الأزمة الهيكلية الطويلة التي شهدها العالم الإسلامي ولم يستطع الخروج منها منذ ذلك الوقت، وبديهي أن دولة المماليك لم تكن بمنأى عنها.

3) دوافع عصيان المماليك السلطانية وأشكال التحرك:

حددنا فيما سبق أن التحركات التي نقصدها هي تلك التي اصطبغت بصبغة مطلبية صرفة، ولم يكن وراءها هدف سياسي، فما هي المصطلحات المستخدمة من قبل مؤرخي ذلك العصر لتوصيف هذه التحركات؟ وما هو المجال الجغرافي والحيز الزمني الذي تمت فيه هذه الأحداث؟

* المصطلحات المستخدمة والمجال الجغرافي والحيز الزمني لهذه التحركات:

إذا ما استندنا إلى حوليات هذه الفترة وأخذنا على السبيل المؤرخين المعاصرين لهذه الأحداث مثل المؤرخ ابن تغري بردي في كتابيه: النجوم الزاهرة ... وحوادث الدهور، ثم ابن إياس في كتابه: بدائع الزهور...[1]..فإننا نتبيّن أن المصطلحات متنوعة،وشديدة التباعد في الدلالة،إلا أن المصطلحات الأكثر شيوعا هي:

مصطلح ثورة واشتقاقاتها 27 مرة.

ومصطلح فتنة 24 مرة .

في حين استخدمت بقلّة المصطلحات التالية، وثوب (4مرات)، تشويش، وأذى وإخراق (مرتان)، واستخدمت مرة واحدة مصطلحات مثل: هجمة – تغويش – كبس – كائنة- شغب- هياج – الحرب.

---

1 - ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين) النجوم الزهراء في أخبار ملوك مصر والقاهرة، القاهرة،1963.

حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، (جزءان)، عالم الكتب، 1990 .

ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة 1984 .

وهو استخدام يبدو عشوائيا وغير مدقق، إذ يلاحظ استخدام أكثر من مصطلح لنعت الحادثة الواحدة. وكلها تعني شيئا واحدا،ولا يتناسب العديد منها وخطورة الحدث.

* المجال الجغرافي والحيّز الزمني:

لم تتعد هذه التحركات حدود عاصمة الدولة المملوكية أي مصر والقاهرة، وداخل هذا المجال فان سعة النطاق الجغرافي للحدث يضيق أو يتسع، حسب أهميته والمدة الزمنية التي يستغرقها، ويمكن تصنيفها كالآتي:

- تحركات اقتصرت على قلعة الجبل، مقرّ الحكم، وهي مدينة صغيرة مسورة ومغلقة عن بقية أنحاء العاصمة .

- تحركات اقتصرت على مواضع محددة ومحدودة من القلعة وما جاورها، مثل: قاعة الدهيشة - الإيوان السلطاني - الإسطبل السلطاني -الزردخانة (وهي المكان المخصص لحفظ السلاح) - خزانة بيت المال، الأهراءات السلطانية -الطباق- ميدان الرميلة (ميدان لتجمع الجند المملوكي).

-تحركات داخل العاصمة(مصر والقاهرة) أنحاء العاصمة أو بعض أقسام منها: * مواضع غير محددة من العاصمة.

* أحياء محدّدة مثل حي باب اللوق (ج ، العاصمة) .

*منشآت عامة أو خاصة مثل المدارس والترب والمساجد والدور والرّباع.

* مراكز اقتصادية حيوية :مثل بولاق الميناء النهري للعاصمة، وتعد الأسواق بعد القلعة أهم فضاءلت هذه التحركات، الأسواق

سـواء بالقـاهرة أو مصر القديمـة وهـي فضـاء شـهد باسـتمرار معـارك بـين فئـات المماليك .

وهذه التحركات لم يكن بعضها يتعدى من الناحية الزمنية بضـع يـوم إلى يـوم وقد استمر لبعض أيام ويرتبط ذلك بمدى تمسك الثائرين "بتحقيق مطـالبهم"، ومـدى استجابة الطرف الثاني لهذه المطالب أو كيفية التعامل مع هذا التحرك أو ذاك ويرتبط ذلك بقوة أو ضعف شخصـية السـلطان، ومـدى مرونتـه، مـثلما هـو الحـال بالنسـبة للسلطان قايتباي، ومـدى قدرتـه عـلى الإقنـاع أو التـأثير، إضـافة إلى طبيعـة الظرفيـة السياسية أو العسكرية والمالية بالخصوص .

وقد بلغ عدد هذه التحركات المطلبية نحو 600 من التحركات عـلى امتـداد 75 سنة فيكون المعدل السنوي لهذا الصنف من التحركات 0.8 تحرك سنويا.

والجدول التالي يوضح التوزيع الزمني لهذه التحركات :

السلطان ومدة حكمه	فترة السلطنة	عدد التحركات	المعدل السنوي
الصالح محمد بن ططر (اقل سنة)	825هـ/1421م اقل من سنة	مرتان	02/س
الأشرف برسباي (15 سنة)	825هـ -841هـ /1422م-1437م 15 سنة	لم يحصل اي تحرك	0.06/س
الظاهر جقمق (16سنة)	836هـ 857هـ/1438م-1457م	8 مرات	0.5/س
الأشرف اينال (8سنوات)	857هـ-865هـ/:1453م-1460م	8 مرات	2.8/س
خشقدم (8سنوات)	865هـ-872 هـ/1460م-1467م	5 مرات	0.87/س
الأشرف قايتباي (28 سنة)	873هـ-896هـ/1468م-1496م	21 مرة	0.78مرة/س

ولم نأخذ بعين الاعتبار الفترات القصيرة جدا لحكم بعض أبناء السلاطين، إذ لم تسجل الحوليات تحركات ذات شأن من قبل المماليك، باستثناء تحرك واحد في السلطنة القصيرة لأحمد بن شيخ المحمودي سنة 825هـ - 1421 م[1] .

ويبدو من خلال الجدول أن عهد قايتباي هو الذي شهد العدد الأكبر من التحركات 21 تحركا لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار طول مدة حكمه فإنها تبدو عموما فترة هادئة على هذا المستوى، في حين يبدو عهد السلطان الأشرف اينال الأكثر اضطرابا،فتصل النسبة إلى 38.3 بالمائة، يليه عهد خشقدم ثم الأشرف قايتباي .في حين لم تسجل لنا الحوليات أيّ تحرك يذكر على هذا المستوى في عهد برسباي الأكثر هدوءا، وربما يعود ذلك إلى عودة الاستقرار والنهوض الاقتصادي السياسي والعسكري، والمتمثل خاصة في بداية سلوك سياسية تجارية احتكارية، مما مكّن خزينة الدولة من موارد أضافية سمحت له باستخدام قسم منها في تعزيز مركزه بين الأمراء المماليك، وتوجيه حملات عسكرية تأديبية إلى مراكز القرصنة المسيحية شرق المتوسط أي قبرص ثم كريت[2]، إضافة إلى قوة شخصيته، وفرض نفسه على كبار الأمراء المماليك. وهذه التحركات ذات الطابع ألمطلبي إجمالا ارتبطت ارتباطا قويا بجملة الحقوق والامتيازات التي أشرنا إليها.

II) مطالب مادية بالأساس وراء تحركات المماليك السلطانية:

إن اغلب تحركات العصيان التي قام بها المماليك السلطانية خصوصا فئة الأجلاب، كان وراءها دوافع مادية بالأساس، وتتعلق إما بمستحقات ثابتة أي

1- العيني (بدر الدين محمود)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، (حوادث 824هـ - 850 هـ)، تحقيق عبد الرزاق الطنطاوي القرموط، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1989، ص 117.

- العيني، نفس المصدر، ص262-287. - / Garcin (J.CL) , op.cit, 361-362

2 - ابن إياس، نفس المصدر،ج2، ص 371-372.

تلك الحقوق التي يتمتع بها هذا الصنف مثل الجامكية، ونفقة البيعة، أو مطالب طارئة ومستجدة مثل نفقة النصر. إلى جانب ذلك سجلت الحوليات المملوكية تحركات ذات دوافع خاصة، مثل الثار أو الانتقام أو تعديات على أفراد أو جماعات من سكان الحاضرة المصرية دون أن يكون لذلك علاقة مباشرة بتحدي للسلطان أو خروج عن طاعته، أو المطالبة بعزل هذا أو ذاك من كبار الأمراء أو الموظفين. وكان قسم من أحداث التمرد يستهدف الضغط مباشرة على السلطان للإيفاء بالتزاماته تجاههم من ذلك:

1) المطالب:

- المطالبة بتسديد نفقة البيعة: وهي "منحة مالية " تدفع للأمراء والجند وكبار رجال الدولة، والتي أصبحت من الالتزامات المالية السلطانية التي لا يمكن للمماليك السلطانية التنازل عنها، وهذه المنحة تتفاوت قيمتها حسب التراتبية والمكانة، فعلى سبيل المثال عندما تسلطن احمد بن السلطان اينال في جمادى الأولى 865هـ / 1460 م وزعت النفقة كالأتي: 4000 دينار لكل أمير، و1500 دينار لكل واحد من أصحاب الوظائف من المتقدمين من الألوف، في حين حصل كل واحد من المتقدمين على 1000 دينار، و500 دينار لكل أمير أربعين، و200 دينار لكل عشرة، أما الجند فقسمت بينهم "على العادة القديمة"،حسب ابن إياس، من 100 دينار إلى ما دون 10 دنانير لكل واحد، ويضيف بأن هذا التوزيع كان له الأثر الطيب لدى الجميع.

على أن توزيع النفقة التي أصبحت حقا مكتسبا وثابتا منذ العهد المملوكي الأول لم يكن يتم دائما بهذه الكيفية "المرضية للجميع"، إذ يحصل أن يحاول احد السلاطين تجاهلها أو التقسيط في دفعها بشكل يثير الاستياء، أو السعي لعدم

دفع القسط الأخير منها إذ ما تم تقسيطها، وعلى هذا الأساس فقد سجل أول تحرك في هذه الفترة من العهد الجركسي في عهد السلطنة القصيرة للسلطان احمد شيخ المحمودي في سنة 825هـ/1451م،إذ قام جماعة من المماليك السلطانية بالسطو على بيت المال بالقلعة، والاستيلاء على " الخزينة برسم نفقة البيعة"، وقد دفع هذا السطو المسلح بالوصي على العرش آنذاك الأمير ططر إلى منح 100 دينار لكل مملوك، وإدعاءه العجز عن الدفع لفراغ الخزينة[1]، كما اضطر السلطان اينال تحت تأثير الضغوط الشديدة التي مارسها المماليك السلطانية، إلى دفع نفقة البيعة في اقل من سنة، بعد أن حصل الجند على نفقتهم أولى في نفس السنة (857هـ/1453م) في عهد السلطنة القصيرة لعثمان بن جقمق، وذلك "بعد تمنع" بدعوى خلو الخزينة من المال[2] وباعتبار أن الجند كان قد حصل على هذه النفقة عندما كان وصيا على العرش.

وكما يندفع هؤلاء المماليك للتحرك ضد السلطان بسبب تقسيط النفقة، كما حدث في شوال 865هـ /1460 م،وبلغ مجموع النفقة المسددة 600.000[3]،إلاّ أن السلطان قايتباي قد خرج عن هذا التقليد الذي التزم به السلاطين السابقون، سواء أ كان ذلك اختيارا أو اضطرارا، فلم يمكن مماليكه من نفقة البيعة، ويشير ابن إياس باستغراب بأن المماليك لم يقوموا بأي تحرك للضغط على السلطان، وكانت حجة قايتباي هي " خلو الخزائن لما أنفقه على التجاريد"[4].

وإلى جانب نفقة البيعة فإن الجامكية كانت من الدوافع القوية لحركات العصيان، رغم أنها كانت أكثر الالتزامات المالية انتظاما في الدفع، وتمحورت مطالب المماليك حول ثلاثة مسائل، وهي: رفض أي تأخير في الذفع، ورفض تقسيط دفعها، وأخيرا الزيادة في قيمتها. خاصة وأن قيمتها لم تكن ثابتة، إذ

1 - .العيني، نفس المصدر، ص 157 .

2 -ابن تغري بردي، حوادث الدهور ...،ج 2، ص 428. / ابن إياس، نفس المصدر، ج 2 ص 383-385 .

3- ابن إياس،نفس المصدر،ج2،ص310.

4- نفس المصدر، ج 3 ص261-263.

كانت نحو ثلاثة دنانير قبل عهد برقوق، الذي رفّع من قيمتها لدوافع سياسية وعسكرية لضمان ولاء الاجلاب أثناء صراعه مع المماليك الأتراك إلى عشرة دنانير، فبلغت قيمتها الجملية في عهده 20000 دينارا، وانخفضت منذ عهد السلطان شيخ المحمودي إلى 1500 دينار / شهريا[1]، والذي أدى إلى حدوث تحركات تمرد وعصيان متتالية، ففي عهد السلطان إينال سنة 858هـ / 1454م، تمّ رجم الأستادار المسئول عن الشؤون المالية "لعجزه عن القيام بالجامكية" فدفعت في خمسة أيام عوض ثلاثة أيام "كما جرت العادة "[2]، وفي السنة الموالية أي 859هـ/1454م في شهر صفر، تحرك الأجلاب مجدّدا للمطالبة بالرفع من قيمة الجامكية إلى سبعة أشرفية بسبب تراجع قيمة النقد، وامتنعوا عن تسلم الجامكية بقيمتها القديمة[3]. وتكرر شغبهم على الأستادار سنة 860هـ / 1455م، بسبب التأخير في صرفها. وبلغ الحال في بعض الأزمات حدّ العجز عن تسديد الجامكية، كما حدث سنة864هـ_1459م، قام الأجلاب " بالاعتداء" على ناظر الخاص[4]، كما كان الوزير عرضة لغضب المماليك و"اعتداءاتهم"في العديد من المرات لهذا السبب في سنتي 860هـ/1455م[5]، و871هـ/1466م.[6]

وإذا كان من "الحقوق المكتسبة" للمماليك السلطانية الحصول على أضحية العيد، إلا أن أنهم كانوا في بعض الأعياد يضغطون على السلطان للرفع من عددها من أضحية واحدة "كما جرت العادة" إلى أضحيتين، كما حصل في عيد الأضحى لسنة 861هـ/1456م وقاموا "برجم السلطان بالحجارة"[7].

---

1 ضومط (انطوان خليل)، نفس المرجع، ص41. Ayalon (D) ; The system of payement in Mamluk military society (*J.E.S.H.O*) ;Leiden 1958 ;p 55

2 ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2، ص481.

3 نفس المصدر،ج2،ص 517 .

4 ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2، ص568.

5 ابن إياس، نفس المصدر، ج 2 ص332-333.

6 نفس المصدر، ج 2 ص44.

7 نفس المصدر، ج 2 ص337.

وترافق ذلك مع مطلب أخر وهو الزيادة في القيمة المالية للكسوة السنوية التي يحصلون عليها، من 2000 درهم إلى 3000 درهم[1]، وسبق ذلك في سنة 855 هـ /1451م، الامتناع عن تسلم قيمة هذه الكسوة وهي ألف دينار آنذاك، مطالبين بمضاعفتها مرتين، وتهديد ناظر الخاص في حال عدم الاستجابة لهذا المطلب[2] .

ويعد الحصول على إقطاع من أهم المنافع البارزة التي يتمتع بها المماليك إذ أن نظام الأرض يقوم أساسا على الإقطاع العسكري، وهو إقطاع استغلال لا تمليك، فكان الصراع على أشدّه بين فئات المماليك للحصول على الاقطاعات من الأراضي الخصبة، إذ أنها كانت المحور الأساسي للصراع على العرش والنفوذ طيلة هذا العهد،ويعد من "الغنائم الكبرى" في هذا النظام[3]، فتعددت الحوادث التي هاجم فيها المماليك المتعمّمين كبار الموظفين والفقهاء، ومطالبة السلطان بان يوزع إقطاعات هؤلاء[4].

كما تكون الكوارث الديمغرافية مثل الأوبئة الطواعين، والتي تأتي على قسم من السكان وضمنهم المماليك، مناسبة لمطالبة السلطان بإعادة توزيع إقطاعات المتوفين منهم، فاندلعت " فتنة كبيرة " بين مجموعات متنافسة بسبب هذا التوزيع،في طاعون 897هـ / 1491م الذي حصد1500مملوك، "وشغرت إقطاعاتهم"، مما أدى إلى اندلاع مواجهة داخلية فيما بينهم، "وبذل السلطان جهده لتلبية طلبات الأجلاب، بغية تجنّب القلاقل، ففرّق أقاطيع المتوفين حتى أرضاهم بكل ما أمكن [5] ".

---

1 نفس المصدر، ج 2 ص337.

2 ابن تغري بردي،حوادث الدهور...،ج2،ص332.

3 - ضومط (انطوان خليل)، نفس المرجع،ص99-100.

4 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2،ص410.

5 - ابن إياس،بدائع الزهور...،ج3،ص292.

وباعتبار أن المماليك هم القاعدة الصلبة لنظام الحكم ، وإن مهمتهم هي "حمل السلاح" والقتال فان من "المنح الثابتة "، والتي لم يكن للسلاطين يتهاونون فيها هي تجهيز هؤلاء عند دعوتهم للمشاركة في حملة عسكرية داخلية أو خارجية والتي بلغت قيمتها المالية بين 30 و40 دينارا للمملوك الواحد وذلك في عهد السلطان الناصر محمد، وانخفضت في عهد السلطان قايتباي إلى عشرة دنانير سنة 893هـ /1487 م[1].

ويعدّ عصيان الأوامر العسكرية أخطر ما يواجه حكم السلاطين، بل وجود الدولة ذاته،لذلك فإن عصيان الأوامر والامتناع عن المشاركة في الحملات العسكرية، أمر يندر جدا حدوثه ومن الحالات اليتيمة تلك التي وقعت سنة 859هـ/1454م، حينما امتنع نحو 500 مملوك من المشاركة في تجريده داخلية بسبب عدم تسلمهم الجمال الضرورية للحملة[2]. ومن المطالبة المستجدة تلك برزت في عهد قايتباي حينما تعددت الحملات العسكرية على الحدود الشمالية لبلاد الشام لتأمينها في مواجهة العثمانيين وبعض الإمارات المتحالفة معهم، فأصبح المماليك السلطانية يطالبون بما يسمونه " نفقة النصر" وهي غير محددة القيمة - كلما حقق هؤلاء نصرا في واقعة من الوقائع العسكرية على الحدود الشمالية لبلاد الشام وفي زمن كانت خزائن الدولة تعاني من تقلص الموارد [3] .

ويكون احتكار بعض المواد وفقدانها في السوق أو الغلاء أو بسبب تسعير بعض المواد ماسا بالقدرة الشرائية للمماليك ومثار تذمر يتطور إلى التمرد والعصيان.. فتكون الأهراءات السلطانية وأهراءات الأمراء والأسواق[4] وغيرها عرضة للنهب واعتداء على الأملاك فحدثت تحركات عنيفة، وسجلت

---

1 - نفس المصدر، ج1،ص301،ج3، ص 251 .

2 - نفس المصدر، ج3،ص251-252/ابن تغري بردي، حوادث الدهور،532-533-538..

3- ابن إياس، نفس المصدر، ج3،ص260-264 .

4 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2،ص548 .

سنة 854هـ/1450م حينما هاجم الأجلاب بعنف بالغ منطقة بـولاق أيـن يقـع الميناء التجاري للمدينة، وقاموا بأعمال نهب وسلب واسعة النطاق، مما أدى إلى أزمة تمـوين للمدينة فارتفعت أسعار القمح،"وانعدم الخبـز مـن الـدكاكين، وصـار لا يأخـذ إلا مـن الأفران إلا بجهد في الليل...، وعزّ وجود القمح بالسـواحل وصـار لا يتوصـل لشرائـه إلا بجهد، ممن له وجاهة وشوكة في الدولة...وسببه أن المماليك السلطانية صاروا يأخذون الغلال من المراكب باليد...، فكفّ أصحاب الغلال عن البيع خوفا من هؤلاء الظلمة"[1]، وليست هي المرة الأولى التـي تتسـبب فيهـا تحركـاتهم في حـدوث مثـل هـذا الغـلاء، والجدول التالي يلخص أهم هذه الأحداث:

السنة	المادة	السبب	المصدر
855هـ/1451م	عليق الخيل (علف)	انعدامه في الأسواق	بدائع الزهور،ج2،ص289.
859هـ/1454م	الشعير (علف)	انعدامه في الأسواق	حوادث الدهور،ج1،ص526.
859هـ/1454م	القماش البعلبكي	غلاء - ندرة	المصدر نفسه،ج2،ص525-526.
859هـ/1454م	حطب التدفئة	غلاء – ندرة أخذه بسعر منخفض	المصدر نفسه،ج2،ص548 .
872هـ/1467م	القمح	غلاء	بدائع الزهور،ج 3، ص17.
890هـ/1485م	الخبز	ندرة في الأسواق	المصدر نفسه، ج 3 ،ص 219.
891هـ/1486م	الخبز – الجبن	تسعيرهما من قبل المحتسب	المصدر نفسه،ج3،ص232.

1 نفس المصدر، ج1ص 289/ ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة...،ج16،ص 74.

وهناك أحداث عصيان أخرى كانت دوافعها متنوعة بعضها موجهة ضد بعض كبار الأمراء يكون وراءها الصراعات الداخلية بين كتل المماليك المتنافسة، أو التصدي لبعض الأشخاص من الأهالي ممن تمكنوا بفضل مالهم وذكائهم من التقرب من السلطان، فتسلقوا المناصب الإدارية والمالية بسرعة ملفتة، وأضحوا من المتنفذين في الدولة، "بدون وجه حق". ومن أشهر القضايا التي شدّت انتباه عديد الأوساط من الخاصة والعامة، وأصبحت حديث القاهريين، قضية أبي الخير النحاس الذي ترقى بسرعة فائقة، وجمع عدّة وظائف في عهد السلطان جقمق، مما أدى إلى ردود فعل غاضبة في أوساط المماليك، مطالبة بعزله وإقصائه، أصبح ذلك مطلبا "عاما"، فقام المماليك بمهاجمته والاعتداء عليه بالضرب، سنة 854هـ/1450م ومطالبة السلطان بتسليمه لهم، بل وصل الأمر إلى محاولة قتله[1].

وكما تمت المطالبة بتسليم الأمير يشبك الداودار في 887هـ/1421م، بسبب اتهامه من قبل مجموعة منافسة له من المماليك بكونه وراء مقتل أحد كبار الأمراء من خصومه، وبسبب رفض السلطان الإذعان لضغوطهم، سعى هؤلاء إلى قتله، وظلت العلاقة متوترة بشأنه لعدّة سنوات[2]. واضطرت الضغوط المتزايدة على السلطان- وربما أيضا بغاية التخلص منه - لإرساله على رأس حملة عسكرية إلى الحدود الشمالية لبلاد الشام، أين لقي حتفه. إنّ هذا الإذعان غير المباشر للضغوط، يعد جرأة بالغة ومسا من هيبة السلطان، وتحويله إلى أداة لتنفيذ رغباتهم بتسليم كبار الأمراء إليهم، والذي يعني عمليا تمكينهم من النيل منهم جسديا بالضرب والتعذيب وحتى القتل.

---

1 .نفس المصدر، ج1ص266-271و273

2 ابن إياس، نفس المصدر، ج3،ص96-152-154-157-165.

وإذا كان الانضباط والطاعة من أهم أسس التنشئة والتربية في الطباق، فان المماليك الأجلاب في هذا العهد لم يعد يتقبلون برضا وتسليم العقوبات التي تسلّط عليهم، فكانت مطالبتهم بتسليم بعض الأمراء المكلفين بالإشراف عليهم، مثل "مقدمي المماليك" و"رؤوس النوّب" المكلّفين بالحفاظ على الانضباط داخل المؤسسة العسكرية،فطالبوا بتسليم أحد هؤلاء بحجة تشدّده معهم ومبالغته في عقوبة بعض مماليك الطباق الذين كانوا قد اتهموا بالاعتداء على أفراد من العامة[1]. ويكون لرابطة الخشداشية بين مماليك الطباق أثرها في التضامن الآلي خلق عصبية قوية أحيانا في مواجهة غيرهم من المجموعات سواء كانوا من الفئات الأخرى المماليك أو من الأهالي، فأدى مقتل أحد زملائهم على أيدي مجهولين سنة 869هـ/1464م [2]، إلى القيام بإعمال ثأر بمهاجمة الأهالي في منطقة الحادث.

ويتحرك المماليك لدوافع سياسية، تتعلق بمكانة السلطنة في العالم الإسلام باعتبارها مركز هذا العالم، إذ الخلافة مركز الشرعية ولو شكليا من قبل الحكام المسلمين السنّة، وإشراف السلطنة على الأماكن المقدسة في الحجاز، واعتبار أنفسهم حماة هذه الأماكن،وهي وظيفة وشرف لا يمكن التنازل عنهما، وأي مس بهذه المكانة، أو محاولة قضم جزء منها وإن بطرق ملتوية، مثل محاولة السعي لنيل شرف وضع كسوة الكعبة في موسم الحج، كان يعد استفزازا يثير مشاعر الاستنكار والرفض، لا فقط من قبل الفئة الحاكمة،بل أيضا من قبل المصريين "الغيورين" على سيادة بلادهم على الأماكن المقدسة وعلى الإشراف الكامل على موسم الحج، الأمر الذي يكشف عن مشاعر "قومية دفينة".

---

1 .نفس المصدر،ج3،ص202

2 نفس المصدر،ج2ص 428.

فكان تحرك المماليك السلطانية إلى جانب العامة في عهد السلطان برسباي بمهاجمة الوفد المغولي الذي قدم إلى القاهرة، بغية الحصول على إذن يتولى بموجبه السلطان المغولي بركة خان شرف كسوة الكعبة، فتعرض الوفد المغولي إلى اعتداء عنيف من قبل المماليك والعامة، ولا ندري إن كان هذا الاعتداء مدبرا من قبل السلطان أم لا، إلا أن العامة تحملوا لوحدهم نتائج هذا الفعل[1].

تلك هي أهم دوافع تحركات العصيان البارزة، فما هي الأشكال البارزة لهذه التحركات ؟

2) أشكال التحرك: من العنف اللفظي إلى الاقتتال والقتل

اتخذ العصيان المملوكي أشكالا متنوعة، فتراوح مابين عنف لفظي، وهو أدنى أشكال العنف في هذه الحوادث، بإطلاق الشتائم والتهديدات،ويبلغ درجته القصوى بإزهاق الأرواح. غير أنه كثيرا ما يتم الجمع في الحادثة الواحدة بين أكثر من شكل من أشكال العنف،فيبدأ عادة بالملاسنة الكلامية، ثم يأخذ منحى تصاعديا باستخدام الأيدي والسلاح. وهذا العنف قد يكون عملا معزولا من فعل جماعة محدودة من المماليك السلطانية، أو قد يتوسع ليشمل أعدادا أكبر،ومجموعات أخرى، فيصل عدد المشاركين إلى عدّة مئات وأكثر في بعض الحوادث.وأبرز أشكال العنف التي مورست هي:

- الاعتداء الجسدي بالضرب بالأيدي أو استخدام أدوات خشبية أو حديدية لإلحاق أذى اكبر بالشخص المستهدف مثل الدبابيس، كما كان يتم رشق الحجارة، وفي بعض الحالات النشّاب الذي يستخدم عادة في المعارك .

- الاختطاف وتحويل الوجهة: وكان ضحايا هذا الشكل من الاعتداء الفتيان " المردان" (ج – أمرد) والنساء. وحالات الاختطاف التي تذكرها

1 - العيني، نفس المصدر،ص109-110 ./ ابن تغري بردي،حوادث الدهور...،ج1،ص109-110.

المصادر تحدث عادة بمناسبة دوران المحمل، وهي مناسبة احتفالية دينية، حيث يتم عرض كسوة الكعبة في موكب احتفالي رسمي بإشراف السلطة، فيخترق شوارع القاهرة جاذبا جمهورا واسعا من الجنسين ومن مختلف الأعمار والشرائح الاجتماعية.

- أعمال النهب والسلب:

ولعله الشكل الأكثر استخداما من قبل المماليك السلطانية، خصوصا عندما يكون مسرح تحركاتهم أسواق العاصمة، وهو أسلوب في الاعتداء غير غريب عنهم وعن غيرهم من الجند، لكن ذلك يحدث عادة عند الاستيلاء على بلدان أو مدن معادية، واعتبارها غنائم حرب فتتم استباحتها. وتتم عمليات النهب والسلب عادة أثناء تحرك المماليك لتحقيق احد مطالبهم، وتكون احد وسائل الضغط أو الانتقام أو رد الاعتبار، وفي الحقيقة فان النهب والسلب لم يقتصر على بضائع التجار في الأسواق، وتكون المخازن منها " أهراءات" و"شون" الأمراء وغيرهما عرضة للنهب، كما لم تسلم الدور والرباع وحتى المنشآت الدينية والتعليمية من عمليات السطو على محتوياتها. ولنقل مسروقاتهم قد يلجا المماليك إلى الاستيلاء بالقوة على دواب الركوب والنقل، مما يتسبب في أحداث ارتباك ببعض الأنشطة الحيوية للمدينة، ويتسبب في ندرة لمواد ضرورية جدا كالخبز والماء .

- تعطيل العمل الحكومي في القلعة: بمنع الدخول أو الخروج أو كليهما معا على شخص بعينه أو على الجميع بدون استثناء ليوم أو أكثر، وهذه الإعاقة لعمل المصالح الحكومية، تعد تحديا على غاية من الخطورة إذ هي بمثابة إعلان حصار لمقرّ الحكم .

- حرق الممتلكات الخاصة و" العامة": يلجا الأجلاب لتحقيق أغراضهم إلى وسائل تخريبية، مثل التكسير وخاصة عمليات الحرق كوسيلة للضغط، أو

رغبة في الإيذاء والانتقام. وشملت أعمال الحرق منشآت محددة مثل حرق الزردخاناة أو حرق ربع ...، ورغم أن الحوادث محدودة العدد، فان بعضها كان على غاية من الخطورة، من حيث أهداف الحرق واسعة نطاق الحرائق، فكان أخطرها الحريق الهائل الذي شب في بولاق الميناء النهري للعاصمة وشريانها التجاري الحيوي، وامتد لهيب النيران ليشمل أجزاء واسعة من القاهرة، فدمر جزءا من عمران المدينة، والحق أضرارا كبيرة بالنشاطات الاقتصادية ولاسيما التجارية .

- الاقتتال: وهو الشكل الأقصى للعنف الذي تمت ممارسته من قبلهم. إلا أن حوادث الاقتتال تبدو محدودة من حيث العدد. صحيح أن تجمع الأجلاب لقتال غيرهم من المماليك في إطار الصراعات التي تنشب من حين لآخر بين مختلف الكتل المتنافسة، أو الحوادث التي تندلع بينهم وبين العامة لاسيما فئة الزعر وهي عديدة إلا أنها قليلا ما تنتهي إلى الاقتتال. وسجلت الحوليات المملوكية عدة صدامات دامية داخل القلعة، وفي شوارع القاهرة وميادينها.

وفي المجموع فان أحداث العصيان ذات الطابع الدموي كانت محدودة جدا، ولا ترقى تحركات العصيان هذه إلى مستوى الثورة بمعناها السياسي، وإنما هي صنف من الشغب المزعج والمتعب حقا، والذي لا يكاد يتوقف، والذي عانت منه الحاضرة المصرية حتى نهاية هذا الحكم، فما هي أسليب التعامل، وردود الفعل المنتهجة من قبل السلطة الحاكمة والمستهدفين من هذه التحركات؟

شكل التحرك	التاريخ	المصدر
الاعتداء اللفظي (شتائم،تهديدات...).	855-865/1451-1460/901-1495	ابن تغري بردي،حوادث...، ج2،ص332/... ابن إياس،بدائع،ج3، ص 232.
الاعتداء الجسدي: - الضرب، الرشق	850-1446./858-1454./864-1459./878- 1473	ابن تغري بردي،حوادث...، ج2،ص256/ نفس المصدر،ج2،504و505./ابن

الحجـــارة، والرمـــي بالنشاب	/1495-901/.1482-887/	إيـــــاس،ج2،ص358-359./نفـــــس المصــــدر،ج92،3./نفـــس المصـــدر، ص195-197./نفس المصدر، ص322./
إشعال الحرائق.	862-1457.(حريـــــــق القـاهرة)./887-1482./888-1484./900-1494./901-1495./	ابن تغري بردي، النجوم...، 16،ص73و81/ ابـن تغـري بردي،حـوادث...، ج3نـص195-197./ نفـس المصـدر، ج3، ص203./ نفـس المصـدر، ج3،ص309-310 / نفس المصدر، ج3،ص322./
كسر وتحطـيم (بيـت المال،الزردخاناة)	824-1421./846-1442./	العينـــي، عقـــد الجـــمان...،117./ نفـــس المصدر،ص578و ابـن تغـري بـردي، النجـوم...، ج15، ص352./
اسـتيلاء ونهـب (مـواد مخزّنة،بضـــــــائع التجار،دواب نقل...).	825-1421./857-1453./858-1454/859-1455./860-1455.-6/878-1473./900-1495./891-1486./	العينـي، نفس المصـدر،ص455/ ابـن تغـري بردي،حوادث...، ج2 ص448./نفـــس المصـــدر،ج2،ص486./نفـــس المصـــــدر،ج2،ص548./نفـــــس المصـــــدر، ج2،ص592./ابـــن إيـــاس،ج3،ص94./نفـــس المصـــدر، ج3،ص309-310/نفـــس المصـــدر، ج3،ص232./
اختطـــاف (نســـاء وأطفـال) واعتـداء عـلى المارة.	857هـــــــــــــ/1453م-860/1455م-861/-863-1458./1456	ابن تغري بردي،حـوادث...، ج2،ص448/.ابـن إياس،بـــدائع،ج337،2./ابـــن إيـــاس،نفس المصدر،ج2، 427428/ج2،ص339-340.
تعطيـــل الـــدخول والخـروج مـن القلعـة (الصعود والنزول).	846-1442. 848-1444 /859-1454./861-1456./ 872-1467./878-1473./888-1483./898-1492./891-1486./	العيني،عقد الجمان ...،ص578./ابن إياس،نفس المصدر، ج295،2و326-327./ ابـن إياس، نفس المصدر، ج342،2./ج17،3./ ج92،3./ج202،3./ج3،ص232و236./
القتال أو التهيؤ للقتال	842-1438/846-1442 /858 -1454/859-1454-5	العينـــي، عقـد الجـمان...، 518-519/ نفـس المصـــــدر، ص578. والنجـــــوم ...، ج15، ص352./وابـــن تغـــري بـــردي، حـــوادث...، ج504،2./ ابن إياس، بدائع...ج2،ص326-327. وابن تغري بردي، حوادث...، ج2،ص527/ وابن تغـري بـردي، حـوادث، ج570،2-571./ ابـن إيـاس، بـدائع...ج3،ص201./ نفـس المصـدر، ج205،3./ نفس المصدر، ج3،ص236./

3) الأطراف المستهدفة:

في الحقيقة لم يكن عنف المماليك السلطانية و"اعتداءاتهم" المتكررة مقتصرا على أفراد أو جماعات معينة، بل إنه طال الجميع بلا استثناء من خاصة وعامة، من "بني جنسهم" ومن غير بني جنسهم. لذا يمكن تقسيم "المتضرّرين" إلى قسمين كبيرين: الطبقة الحاكمة من مماليك بمختلف درجاتهم وفئة المعمّمين من الأهالي الذين يشكلون الجناح المدني للسلطة، هذا من جهة والعامة بمختلف فئاتهم وشرائحهم في الحاضرة المصرية.

وكان رجال السلطة من المماليك والمعمّمين الأكثر استهدافا من قبل المماليك السلطانية، فمن أبرز الشخصيات التي كانت معرّضة أكثر من غيرها للعنف، سلطان البلاد خاصة إذا تبيّن إنه المسؤول مباشرة عن عدم الاستجابة للمطالب المادية لمماليكه، سواء تعلق الأمر بالمنح المادية أو العينية، أو الإقطاعات، أو بتسليم هذا الأمير أو ذاك الموظف من كبار معاونيه. ورغم رابطة الأستاذية فإن المماليك لم يتحرّجوا من استخدام شتى أساليب العنف غير القاتل بحقه،ابتداء من التهجم اللفظي وانتهاء بالرشق بالحجارة ورميه بالنشاب[1]. ونال الأمراء وكبار الموظفين المكلّفين بالشؤون المالية والمماليك السلطانية نصيبهم من هذا العنف، ومن هؤلاء الأمراء الكبار: الأستادا، وهو أمير مائة ومن مهامه تدبير أموال الجامكية وعليق خيل المماليك، فكثيرا ما تعرض "لاعتداءاتهم"، بسبب عجزه عن الإيفاء بالتزامه عديد المرات[2]. ولم يكن الوزير الذي كان من مهامه توفير حاجيات المطبخ السلطاني واللحم اليومي للمماليك، وهو أمر لم يكن دائم الانتظام، الأمر الذي كان يثير المماليك ويستفزهم فيدفعهم "للإيقاع به"[3] وبدرجة أقل تعرض ناظر الخاص لعنف الأجلاب. ومن الأمراء المماليك المكلفين بالإشراف على المماليك وتأطيرهم،

---

1 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2،ص504/ ابن إياس، نفس المصدر، ج3،ص322.

2 - العيني، نفس المصدر،ص455/ ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج1،ص181-82،ج2،ص505 و517

3 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2،ص504.

بالإشراف عليهم ومراقبة سلوكهم "مقدمو المماليك ورؤوس النوب"، فقد استهدفوا لعنف الأجلاب ويظهر أن ذلك هو رد فعل على ما اعتبروه تشدّدا في عقابهم بسبب تجاوزات واعتداءات قد تحصل من بعضهم، خاصة ما يتعلّق بالتقيد بنظام الحياة في الطباق.

ويتجه غضب المماليك إلى أمراء بعينهم، بسبب خلافات ومشاحنات تدخل ضمن الصراعات بين كتل المماليك، لتضارب المصالح أو بسبب الحماية التي يحظى بها بعض الأمراء أو بعض كبار الموظفين من قبل السلطان، فيكون هؤلاء عرضة لاعتداءات الأجلاب[1].

أما المعمّمون - و هم من الأهالي- من فقهاء وقضاة وموظفي الدواوين بمختلف رتبهم،والذين مثلوا الجناح المدني لنظام الحكم، فإنهم تمتعوا بحظوة بالغة في العهد المملوكي، باعتبارهم أحد الركائز التي تقوم عليها السلطة القائمة،و نظرا لثقلهم الديني والاجتماعي لدى العامة، وباعتبارهم عنصرا لاغني عنه في إدارة وتسيير أجهزة الدولة غير العسكرية، ولإضفائهم مزيدا من الشرعية لنظام الحكم. وقد ظهرت هذه الحظوة خاصة من خلال النفقات النقدية والمادية المجزية التي كانوا يحصلون عليها،و منحهم امتيازا كان حكرا على المماليك، وذلك باقتناء وركوب الخيل، كما أمكن لهم اقتناء الإقطاعات، مما مكنهم من جمع ثروات كانت تثير طمع المماليك، فيذكر ابن تغري بردي نموذجا لهذا الثراء الكبير الذي نعم به بعض المعمّمين وهو" زين الدين يحي" الذي شغل عدّة خطط كان آخرها خطة الأستادار قبل مصادرته سنة 858هـ/1454 فكان من ضمنها "أزيد من ثمانين من المماليك غير الكتابية الصّغار..." جمعها"بالعسف والظلم" "ويعلق على ذلك بأنّه "شيء لم نعهده

1 - ابن إياس، نفس المصدر، ج2،ص326-327،ج3،ص152-154 .

لمتعمّم"[1]، فمثل هذه الثروات كانت تثير ولاشك " شهية المماليك" إذ كانوا يرون فيهم جماعة أقل مكانة منهم وغير جديرين بتلك الامتيازات أو على الأقل هي أكثر مما يستحقونه فالقلم ليس كالسيف.

كما أن "طمع" المماليك في قسم من ثروات المعممّين جاء في ظرفية تراجعت فيها موارد المماليك ومن علامات ذلك الصعوبات الكبيرة التي أصبحت تعترض السلاطين للإيفاء بالالتزامات النقدية والعينية لمماليكهم. وبناء على ذلك تعدّدت الحوادث التي تعرّض فيها المعممّون للامتهان والإذلال في شوارع القاهرة بالانهيال عليهم بالضرب ونزع عمائمهم وإنزالهم من على خيولهم والاستلاء عليها ومنعهم من امتطائها،لكونها رمزا للرفعة وعلو الشأن،وامتيازا لا يجوز أن يحظى به الأهالي ولو كانوا من الأعيان.واتخذت هذه العدوانية منحى تصاعديا في هذا العهد من قبل المماليك السلطانية[2]، وأصبحت ظاهرة ملازمة في تعامل المماليك مع المعمّمين.

وكثيرا ما سعى المماليك، وعملوا على الضغط على السلطان ليوزع إقطاعات المعمّمين عليهم،فاستنادا إلى رواية ابن تغري بردي بشأن زين الدين يحي "كثر إلحاح المماليك على السلطان في طالب إقطاعات الفقهاء والمتعمّمين ... وكان سبب تجرئهم على ذلك إخراج السلطان لإقطاعات زين الدين الأستادار الموقوفة عليه وعلى جوامعه ومساجده وكان ذلك شيئا كثيرا حتى أنّه فرّق على خلق كثير من المماليك السلطانية"[3]، وتكرّرت هذه المطالبات في عدّة مناسبات أخرى. وتحسبا من إجراءات قد تذهب بثرواتهم المنقولة خاصة بواسطة المصادرة إلى استثمارها في التجارة أو تحبيس جزء منها[4].

---

1 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2،ص410.

2 - نفس المصدر،ج1ص 273 ج2،ص 486-568-527-570-571-595.

3 نفس المصدر،ج2،ص 410

4 عاشور(سعيد عبد الفتاح)، المجتمع المصري...،ص34.

و طال عنف المماليك السلطانية العامة بمختلف فئاتهم فكانت العلاقات مشحونة في أحيان عدّة بالتوتر، ويعد العامة الطرف "الضعيف"رغم تفوقهم العددي[1]، لكنهم أغلبية غير منظمة ومؤطرة في مواجهة المماليك. وتتعدد الحوادث التي يتعرض فيها العامة لاعتداءات المماليك ويتطور بعضها إلى مواجهات بين الطرفين، فمن الأصناف المهنية التي شملتها هذه الاعتداءات بالاستيلاء على دواب عملهم بالقوة فئة أصحاب الطواحين الذين يوفرون مادة الطحين لمخابز العامة وهي مادة حيوية جدا لحياة سكان العاصمة الذين كانوا يشترون خبزهم من المخابز ويوفرون الماء لسكان القاهرة حيث يتوقف عليهم توفر هذه المادة الحساسة وانعدام الخبز والماء يعني تهديدا واضحا لحياة السكان أنفسهم[2] ويتم الاستيلاء عليها أيضا بغية استخدامها في نقل مؤنهم،وأمتعتهم وتجهيزاتهم في الحملات العسكرية، وهي ظاهرة بدأت في التفشي في عهد قايتباي،الأمر الذي يكشف عن تواصل تفكك مؤسسة الجيش ونقص تجهيزاته في وقت كانت فيه السلطنة تتعرض فيه لتهديدات جدية من جارها الشمالي أي العثمانيون، الحرفيون والتجار في الأسواق عرضة لاعتدائهم المتكررة بنشر حالة الذعر والفوضى في السوق بسبب الاقتتال بين مختلف طوائف المماليك من ناحية والأثر السلبي لذلك على حركة التجارة ومن المتسوقين والباعة والمارة ليمتد إلى بضائع مما يضطر هؤلاء لتجنب الاعتداءات على أشخاصهم وأملاكهم إلى إغلاق محلاتهم مما يؤدي إلى توقف الأنشطة الاقتصادية في وسط المدينة[3]. وتعددت الحوادث التي يتعرض فيها العامة لعنف المماليك وتعدياتهم، وتتطور بعض الحوادث لتتحول إلى صدامات

---

1 ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص94 و205-219-251-252.

2 العيني، نفس المصدر، ص627-628، / ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج1،ص109-110.

3 الأمثلة كثيرة: ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج3،ص486/-ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص295-312.

دامية بين الطرفين يسفر بعضها عن سقوط ضحايا[1]، دون أن يتمكن السلطان وكبار معاونيه من وضع حد للاقتتال بسبب العجز، أو حتى التواطؤ، وهو ما يذهب إليه ابن تغري بردي بالنسبة لحوادث857-859هـ/1453-1455م[2]. ولم تسلم الفئات الضعيفة من النساء والصبيان من هجمات الأجلاب، مما يعد انتهاكا لأعراف الاجتماعية والدينية السائدة، ومتعارضا مع أخلاق الفروسية، خصوصا وأن بعض هذه الاعتداءات تستهدف الاختطاف والنيل منهم بالتحرش والاعتداء الجنسي[3]، وتحصل هذه الاعتداءات أثناء الاحتفال ببعض المناسبات الدينية مثل "دوران المحمل" فكيف تم التعامل مع هذه التحركات؟.

III) كيفية التعامل مع تحركات المماليك السلطانية :

تبدو هذه الردود أو كيفية التعامل مع هذه الظاهرة حسب الطرف المستهدف، أولا، ثم خطورة التحرك سواء بالنسبة للسلطة الحاكمة، أو بالنسبة لسكان العاصمة، والظرفية الخاصة التي تمر بها السلطة، والبلاد. وتراوحت ما بين ردود فعل متساهلة جدا وردود فعل صارمة – من قبل السلطة – والاستكانة وما بين الرضا بالأمر الواقع من قبل السكان إلى الشكوى والاستعداد للمواجهة ثم إلى المواجهة في بعض الحالات من قبل العامة.

1) تعامل السلطة مع أحداث العصيان :غلبة أسلوب اللّين والتساهل:

لئن كان العصيان في حد ذاته يعد خرقا وتمردا على نظم المؤسسة العسكرية المملوكية وهو ما يستوجب آليا رد فعل قوي وصارم للحفاظ على متانة المؤسسة وانضباط المنتسبين إليها والحيلولة دون تكرره، غير أن موقف السلطان المستهدف مباشرة من قبل مماليكه أو بصورة غير مباشرة باستهداف

---

1 العيني، نفس المصدر، ص518-519و578/ ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2،570-571.

2 .ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2،ص592

3 ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2،ص448./ ابن إياس،نفس المصدر،ج2،ص427-428 و ص، ج3، ص219-236و 295-312/ ابن تغري بردي، حوادث الدهور...،ج2،ص570-571.

كبار أمراءه وموظفيه، ارتبط إلى حد بعيد بشخصية هذا السلطان أو ذاك وقوة مركزه وكيفية وصوله إلى العرش، والظرفية التي تمر بها السلطنة خصوصا في العاصمة ووضعها المالي والعسكري والأمني وقوة المجموعة المتحركة لذلك تراوحت هذه المواقف وردود الفعل من غض الطرف إلى التساهل والاسترخاء إلى الصرامة والشدة بإصدار أحكام قاسية بل وردع "العصاة" لمواجهتهم عسكريا.

* المواقف الحازمة و"المتشددة ":

وتتمثل في إلقاء القبض على من يعتبر المحرك "للفتنة "، وذلك بإصدار حكم الإعدام، ففي أحداث 870هـ/1465م، تم توسيط مجموعة من المماليك لترضية العامة الذين كانوا عرضة للاعتداء من قبل المماليك الجلاب، بعد أن بدأت بوادر تحرك عنيف للعامة في الظهور، وخشية السلطان من إفلات زمام الأمور من يديه[1]. وكان بعض ممن اتهموا بقيادة التمرد عرضة لعقاب السلطان بإعدام " الرأس المدير" للأحداث. من العقوبات الأخرى التي سلطها بعض السلاطين على مثيري "الفتن[2]" والمشاركين فيها من المماليك السلطانية بالسجن والنفي، ففي أحداث عصيان 860هـ/1455م، وقع حبس جماعة من المماليك ونفي جماعة أخرى، وفي سنة 872هـ/1467م، تم حبس بعض المماليك الظاهرية والأشرفية[3] ونفي جماعة من المؤيدية، واللجوء إلى العقوبات البدنية مثل الضرب بالمقارع[4] ويلجأ السلطان إلى سلاح العقوبات المالية والمادية، بأن يعمد السلطان إلى قطع أحد بعض الامتيازات أو

---

1 ابن إياس،نفس المصدر،ج2،ص428.

2 - نفس المصدر،ج2،ص428وج3 ص 94./ابن تغري بردي،حوادث الدهور...،ج1ص72وج2ص538.

3 - بن تغري بردي، نفس المصدر،، ج2ص 410-538-580-595./ ابن إياس، نفس المصدر، ج2، ص279./ العيني، نفس المصدر، ص580.

4 - ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص266و 273-274.

المستحقات النقدية الثابتة [1]،مثل الجوامك للضغط على المماليك وتهديدهم في أحد أهم مواردهم المالية. أما العقوبة الأخرى والتي تعدّ قاسية، فهي الحرمان من الإقامة في طباقات القلعة وإنزالهم للسكن في المدينة[2] وسط السكان، وهو ما يعدّ حطا من المكانة التي كانوا يحظون بها لدى السلطان.

* الأساليب اللّيّنة:

على أن اللّيونة في تعامل السلاطين مع مماليكهم كانت هي السياسة الغالبة، ولعل ذلك يشي بضعف السلطان أمام مماليكه من جهة، والسطوة التي يتمتّع بها هؤلاء من جهة أخرى، حتى أن الأمر يصل أحيانا درجة الإذعان لمطالبهم، مما يعدّ مسا وامتهانا لهيبة المؤسسة السلطانية، فيحصل أن يغض السلطان النظر عن اعتداءات مماليكه على فئة المعمّمين أو فئات العامة، أو حتى وفود سفارات أجنبية إلى السلطنة، فعندما تمت مهاجمة الوفد المغولي من قبل المماليك والعامة في عهد السلطان اينال اكتفى السلطان بمعاقبة العامة، مما جعل المؤرخ ابن تغري بردي يتهمه بالتواطؤ وتشجيعهم على ذلك[3]. ولعل إدراك السلطان عدم قدرته على لجم حالة الانفلات في صفوف مماليكه وإعلانهم العصيان، يضطرّه للبحث عن كبش فداء فيقوم بتوبيخ قادة الفرق وتحميلهم مسؤولية الخلل الحاصل، ففي سنة 891هـ/ 1486 م[4]، استقدم السلطان أغوات أعيان المماليك ووبخهم على عدم القدرة على إلزام المماليك السلطانية بالنظام. وتبلغ مؤسسة السلطنة الدرك الأسفل من الهوان بالاستجابة إن جزئيا أو كليا لمطالبهم والبحث عن كبش فداء، ونتنين ذلك من خلال عزل بعض كبار الموظفين المسؤولين عن الجوانب المالية والمادية المتعلقة

1 .- العيني، نفس المصدر، ص627-628، ابن تغري بردي، حوادث الدهور....،ج2ص410-505

2 - ابن تغري بردي، نفس المصدر.،ج2ص532-533-538./ ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص432-448./ العيني، نفس المصدر،ج2،ص332- 333.

3- نفس المصدر،ج2ص526-527و 592-595./ابن إياس،نفس المصدر،ج2،ص332-333.

4 - ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص246.

بالمماليك السلطانية، وبما أن الأستادار المسؤول الأول عن هذه الناحية، كان عرضة للعزل إن لم تصل العقوبة حد السجن والمصادرة، بتحميله المسؤولية عن عدم الإيفاء بالجوامك أو غيرها من الرواتب والمنح والامتيازات، لكن الأمر الأكثر دلالة على الموقف المتساهل للسلطان، وحاله الخضوع التي يضطر إليها خشية فقدان مركزه، هو دخوله في مفاوضات وتوسيط الأمراء "لعقد صلح " بينه وبين مماليكه. وقد تكررت هذه الوساطات حتى أضحت احد الأساليب المنتهجة من قبل السلاطين، لنزع فتيل " العصيان[1]" مما يؤثر على مركزه، وربما دخل معهم في محاجة ومجادلة لإقناعهم بالعدول عن مطالباتهم التي لا تكاد تتوقف. ويبلغ انحدار هيبة المؤسسة إلى الاستجابة للمطالب والرضوخ الكامل والسعي بكل السبل لاسترضائهم بل "وتحيّره في ترضيتهم" "كما حصل في سنة 897هـ/1491م، أما في سنة 8هـ1457م فقد "حصل له غاية الهوان".[2] على أنّ عجز بعض السلاطين في الوقوف أمام تحركات "العصيان " تتجلى في أوضح صورها من خلال إظهار العجز عن استخدام القوة وأساليب الردع، والاكتفاء بطرق وأساليب "سلبية" لدفع المماليك لوضع حد لتحركاتهم خاصة في عهد قايتباي بإظهار الغضب والاحتجاب عن المماليك والدخول في "خلوة" احتجاجا عن عصيانهم 878هـ/1473م [3] واللجوء إلى الوازع الديني الذي ولا شك له تأثيره في نفوس المماليك وذلك بأدائهم القسم على المصحف وتحديدا المصحف العثماني[4] لما له من رمزية وقيمة عالية لدى جمهور المسلمين.

---

1 - العيني، نفس المصدر،ص578./ ابن تغري بردي، حوادث ج 1، ص180-181و266-271ج2 ص449/ ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص94-202،ج2،ص337 .

2- ابن تغري بردي، حوادث الدهور....،ج2ص332و449و517-518./ ابن إياس،نفس المصدر،ج2، ص291.

3 - ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص94-147.

4 - نفس المصدر،ج3،ص319.

وإذا لم يكن للقسم من قيمة كبيرة لدى المماليك السلطانية الذين أصبحوا في هذا العهد اقل انقيادا للوازع الديني،والوضع الذي أضحت عليها المؤسسة، وأشكال التجنيد – فان أساليب جديدة ظهرت نجاعتها في عهد قايتباي، ولم يسبق استخدامها من قبل، ولعل ذلك يعود إلى ظروف اعتلاء هذا السلطان عرش مصر، فالخشية كل الخشية سابقا أن يقوم المماليك بعزل السلطان وسجنه أو قتله، لكن قايتباي الذي أرغم من قبل المماليك على الجلوس على العرش وتعهد هم بعدم إيذاءه حتى في حال عزله،سيستخدم وضعه الخاص هذا ليجعل منه سيفا يشهره في وجه مماليكه،ففضلا عن مقاطعة المماليك وإلزامهم بأداء اليمين، سيلجأ إلى سلاح لم يكن متوقعا أن يستخدم ضدهم وهو التهديد بالتنحي عن العرش [1]، وقرن القول بالعمل تجاوز بالتنحي فعلا عن منصبه، وهي مناورة بارعة جدا دفعت المماليك السلطانية إلى الإسراع باسترضاءه والتعهد بعدم أحداث "الفتنة" ودعوته إلى العودة عن قراره[2] لإدراكهم أن تخليه عن العرش سيفتح باب الصراعات الدامية، والانقلابات التي لا تنتهي، وفقدانهم لمراكزهم وامتيازاتهم، وهذه المناورة هي من بين الأساليب في إدارة الصراعات التي سمحت لهذا السلطان بالجلوس على العرش لمدة طويلة قبل أن يتوفى وهو على فراش الموت.

* ردود فعل المتعمّمين والعامة:

رغم أن المتعمّمين من الفقهاء وكتاب الدواوين خصوصا الكبار منهم يمثلون – كما أسلفنا – الجناح المدني للسلطة ونخبة المجتمع، والذين لا يمكن الاستغناء عنهم مطلقا سواء للتسيير والإدارة، أو لكونهم- إلى جانب أطراف أخرى- يضفون شرعية على نظام حكم أجنبي عن البلاد، ومع ذلك فان

---

1 - بن تغري بردي، حوادث الدهور....،ج1،ص266-271./ ابن إياس،نفس المصدر،ج2، ص147 و260-264

2 - ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص147و260-264.

اعتداءات المماليك على هذه الشريحة الاجتماعية كان متكررا، وكانت تلقى الاستنكار لدى العامة، فان ذلك لم يكن يثير إلا في حالات نادرة رد فعل من قبل السلاطين بتوفير الحماية لهم، والحيلولة دون تعريضهم لاعتداءات مماليكهم ومعاقبة هؤلاء في حالات محدودة، بل إن سياسة بعض السلاطين كانت تقوم إما على غض النظر أو المشاركة بشكل غير مباشر في الإساءة إليهم، فاكتفى المعممون إجمالا بالاستكانة ورفع الشكوى للسلطان[1] علّه يتدخل لرفع الضيم عنهم. ولئن كان المعمّمون لا يملكون سوى سلطة معنوية لحماية أنفسهم وحماية العامة، إذ أنهم "لسان حالهم"، فإن العامة بمختلف فئاتهم وشرائحهم كانوا بدورهم هدفا لعنف المماليك السلطانية، كانت ردود فعل العامة متنوعة بالإستكانة تارة، واللجوء إلى الفقهاء وعلماء الدين لما لهم من نفوذ معنوي لدى السلطان للتدخل لوضع حد لتعديات مماليكه تارة أخرى[2]، غير أن بعض "الاعتداءات" التي قام بها المماليك أو عبيدهم كانت تضطر هؤلاء إلى التحرك للدفاع عن أنفسهم، وردع " المعتدين" عن تجاوزاتهم المتكررة في حقهم، ففي سنة 859هـ/1454م تهيأ العامة لقتال المماليك، وفي 860هـ/1455 وفي نفس الظرفية ولنفس الأسباب، اندلع قتال عنيف بين عامة حي باب اللوق من ناحية والمماليك وعبيدهم من ناحية أخرى، وأسفر القتال عن عدد من القتلى والجرحى بين المماليك وعبيدهم[3].

واغتنم العامة لجوء السلطان لمقاتلة "المماليك العصاة" للمشاركة في القتال إلى جانبه "دفاعا عن الشرعية"، ونكاية فيهم إذ كان "شرهم عاما" وانتقاما منهم من شاركوا بضراوة في مقاتلتهم سنة 846هـ / 1442م[4]، وأبدى

---

1 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور....،ج1،ص109-110.

2 - نفس المصدر،ج2،ص595.

3 - نفس المصدر،ج2،ص570-571.

4 - العيني، نفس المصدر،ص518-519.

"الزعر"، وهم من الفئات الهامشية بأسا شديد حينما قاتلوا " قتالا عظيما بالحجارة والكفايات" إلى جانب السلطان في مواجهة الأجلاب، 842هـ / 1438م[1].

رغم ذلك فان ردود الفعل سواء أكانت من جانب السلطان أو كبار الأمراء المستهدفين أو المتعممين أو العامة، فقد غلب عليها الطابع غير العنيف إلا في حالات قليلة، ولم يكن بحوزة السلطان خيارات كثيرة في مواجهة العصيان المملوكي، خصوصا وانه لا يهدد مباشرة مركز السلطان مما جعل هذه التحركات العصيان والتمرد ظاهرة مزمنة وخطيرة سواء أكان ذلك بصفة مباشرة وأنية أو على مستوى بعيد سواء بالنسبة للأمن العام وهو أول واجبات أي نظام حكم أو على مستقبل السلطة المملوكية نفسها.

IV) تداعيات ومؤشرات خطيرة:

فضلا عن النتائج المباشرة لحركة العصيان من أعمال النهب، والاضطرابات التي تدخلها على نشاط أسواق العاصمة، أو تزويدها ببعض الخدمات الأساسية مثل الماء، وتعطيل العمل الحكومي بمنع الدخول أو الخروج من قلعة الجبل، إلا أن هذه التحركات كانت لها تداعيات نفسية جماعية بالنسبة لسكان العاصمة المملوكية وذلك بما إشاعته من أجواء الاضطرابات والشعور العام بعدم الأمان وانتشار حالة من الخوف والذعر أصبحت شبه ملازمة للقاهريين وهي ما يمكن لتسميته بالخوف العام أو الجماعي، إذ لم يعد السكان آمنين لا فقط على ممتلكاتهم بل وعلى سلامتهم الشخصية، ويتجسم ذلك في إسراع الأمراء إلى الإسراع خفاء بعض الأملاك المنقولة والثمينة في أماكن آمنة[2]، وإقفار المدينة أو أجزاء منها خاصة الأسواق، ولزوم الناس بيوتهم حتى

---

1 - ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة...،ج15،ص352. حوادث الدهور،ج1،ص69-70 العيني، نفس المصدر،ص578.

2 - ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص236.

ينادى في الأسواق والشوارع " بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء " كما يتكرر ذلك من المصادر.فهذا الخوف الجماعي وراء الإخلاء العام للمدينة أو أجزاء منها، وهو رد فعل طبيعي ربما يكون سلبيا على هذه" التعديات" المتكررة وإن لم يرقى إلا نادرا إلى المواجهة العنيفة للمماليك .

هذه الاضطرابات التي تخل بالأمن العام أصبحت جزءا من المناخ النفسي لهذه الحاضرة،كانت تعطى إشارات مشجعة لجماعات أخرى للتحرك مما يضاعف في تعكير صفو الأمن العام بالعاصمة وحتى خارجها، فاستغلت جماعات من الهامشيين هذا الأوضاع المضطربة للقيام بأعمال لصوصية جريئة في الليل أو في وضح النهار،فنشطت جماعات" المنسر" في مهاجمة الأسواق والقيساريات [1]، كما ساهمت فئة هامشية أخرى وهم "الزعر" ذات البأس في ضعف قبضة الدولة في هذه الأجواء ليظهروا كقوة منافسة للمماليك، والقيام بأعمال نهب وسلب للأسواق و"اعتداءات" على العامة، وربما إلتجأ السلطان للسيطرة على مماليكه بالقوة إلى الاستعانة بخدمات الزعر أحيانا لقمع الأجلاب[2]. والأخطر من كل ذلك أن "العربان"، الذين كان النظام المملوكي يلازم جانب الحذر تجاههم باعتبار أنهم كانوا القوة "المدنية "الوحيدة المسلحة والموازية لقوة المماليك، قد تزايدت تحركاتهم قريبا من العاصمة تقطع الطرقات بل وصل الأمر كما يقول ابن إياس بخصوص أحداث عصيان 877هـ/1472م إن العربان والفلاحين طمعوا في المماليك[3]، وهو مؤشر خطير جدا على الوضع الذي آلت إليه السلطنة.

---

1 - ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص117-195./ ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج2، ص527و486و592.

2 - النجار (رجب)،حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي،سلسلة عالم المعرفة،عدد 45،الكويت1981، ص187-206 .

3 - ابن إياس،نفس المصدر،ج3،ص78

هذه التداعيات تظهر وبشكل واضح الوضع الصعب الذي أصبحت عليه السلطنة المملوكية، وأن أزمتها العميقة والطويلة قد بلغت منعطفا جديدا وحاسما بالنسبة لمؤسسة الجيش،ولنظام الحكم .

هذا الوضع الصعب جدا كان من أ برز تجلياته:

1- أزمة المؤسسة العسكرية:

ومن مؤشرات ذلك فقدان القواعد الأساسية التي تقوم عليها مثل هذه المؤسسة وهي الطاعة والانضباط الصارم وقد أكد بعض مؤرخي هذه الفترة حاله الوهن والتفسخ الذي ما فتئ في الانتشار داخل فرق الجيش المملوكي خصوصا المماليك السلطانية يقول المقريزي بشان هذا الوضع وفي للمماليك السلطانية انه: " ليس فيهم الا من هو ازني من قرد وألص من فارة وافسد من ذئب ..."[1]، يرجع ابن تغري بردي حالة التسيب بين هذا الصنف بمناسبة أحداث سنة 859هـ/1454م،إلى" عدم وجود رئيس يدير أمرهم من الأمراء، وصار خلق المماليك كخلق السلطان، وهؤلاء أقوام مجمعون بدون راس ولا طبلخاناة ولا سنجق[2]" ويضيف في موضع أخر إلى أنه " ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة، يتقوون على الضعيف، ويشرهون في الرغيف وجهادهم ... وغزوهم في التبن والدريس "[3]، ونجد إشارات عديدة ومقارنات لمؤرخي ذلك العهد بين صرامة نظام الطباق في العهود الأولى للدولة المملوكية، ووضع هذا النظام في العهد الجركسي فتدهورت القدرات القتالية لهذا الجند، وضعفت كل من رابطتي الخشداشية والأستدارية، وهي روابط ضرورية لتلاحم وتماسك المماليك السلطانية، وهي نوع من الاسمنت الذي يشد المماليك بعضهم إلى بعض .

---

1 - المقريزي،الخطط...،ج2،ص214.

2 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور،ج2،ص534-538.

3 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،ج7،ص329.

ومن أسباب هذا التدهور سواء بالنسبة للكفاءة الحربية أو الروابط التضامنية بين هؤلاء:

- سرعة تخرج المماليك السلطانية فالمدة الزمنية التي يحتاجها المملوك للتعلم والتدرب قد اختصرت كثيرا وربما ذلك يعود إلى رغبة السلاطين في العهد الجركسي في أن يكون لهم جندهم الخاص بهم في أسرع وقت ممكن وتقوية مركزه بين كبار الأمراء المنافسين له.

- دور الطواعين والأوبئة التي أصبحت دورية فضلا عن الحروب الداخلية والخارجية التي كانت تأتي على أعداد من الأجلاب وبالتالي الحاجة إلى توريد أعداد جديدة والتسريع في تخرجهم

- بروز ظاهرة جديدة في هذا العهد كان لها أثرها السلبي على متانة تكوين المماليك وانضباطهم، وهو إن أعدادا من المماليك الجلبان فهؤلاء وعلى غير المعتاد كانوا يستقدمون وهم كبار السن – (بعد بلوغهم سن الرشد) – على عكس المعتاد ولم تكن لهم أي صلة بالحياة العسكرية، إذ كان بعضهم يعملون في مهن مختلفة فلم يكونوا مهيئين لا نفسيا ولا بدنيا لمهنة السلاح[1]، كما أن صعوبات كبيرة (نفسية ، ثقافية ، لغوية ...) تجعل إمكانية تأقلمهم في محيطهم الجديد صعبة جدا، مما يخلق حالة من التوتر والاتجاه أكثر فأكثر نحو الانغلاق ...

- عدم تجديد نظم الجيش وتجهيزاته العسكرية (مثال: إدخال الأسلحة النارية) كل ذلك ساهم في إضعاف المؤسسة العسكرية المملوكية وسيجعلها مع التقدم في الزمن غير قادرة على مواجهة أخرى منافسة (العثمانيون ثم برتغاليون في مطلع ق 16م)[2].

1- المقريزي، الخطط...، ج2، ص214 / ضومط (انطوان خليل)، نفس المرجع، ص76-79./
Ayalon(D) ;Studies … , *Op.cit*,.T.1515.p 255.

2 - عاشور(سعيد عبد الفتاح)،مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك،دار النهضة العربية 1972.ص 249-264.

فيمكن القول إن المؤسسة العسكرية كانت تعاني من أزمة حقيقية كان لها انعكاساتها السلبية على مؤسسة السلطنة والنظام المملوكي برمته ولا يعني ذلك أن أزمة المؤسسة العسكرية ستؤدي إلى أزمة نظام الحكم فالتأثير متبادل بين المؤسستين .

2- أزمة مؤسسة السلطنة:

ساهمت تحركات المماليك السلطانية في إضعاف هذه المؤسسة:

إذا كانت تحركات العصيان والتمرد أحد أعراض أزمة الدولة،إلا أنها فأقمت من حدّتها بفقدان مؤسسة السلطنة هيبتها التي يفترض أن تحيط نفسها بها، وقد تجلى ذلك من خلال أحداث العصيان المتكررة على السلطان وابتزازه دون أن يأبه الأجلاب على وجه الخصوص إلى رابطة الأستاذية التي فقدت الكثير من صلابتها،حتى أن لمنصب السلطان صار على ما يبدو" غير مرغوب فيه" في بعض الأحيان فهل فقد بعض إغراءه السابق ؟، لا نظن ذلك،والدليل الصراع العنيف الذي ظهر بين كبار الأمراء في الفترة المتراوحة بين وفاة قايتباي وتولي قانصوه الغوري الحكم، فيذكر ابن تغري بردي في حوادث 861هـ/1456م :" وفرغت هذه السنة وقد انحل أمر حكام الديار المصرية لعظم شوكة المماليك الأجلاب "[1]،وتحول بعض سلاطين هذا العهد إلى ألعوبة بيد مماليكهم،لعدم قدرتهم على ضبط الجند،ففي عهد سلطنة يلباي القصيرة(1467-1468)،" قصرت كلمته،وحار في رضا المماليك الخشقدمية،وصار كاللولب يديروه حيث شاءوا" [2].

ولا يعود بقاء قايتباي من البقاء لمدة طويلة على رأس السلطنة إلى سيطرة وتحكمه على أجهزة الدولة ومن ضمنها مؤسسة الجيش، بقدر ما يعود

1ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،ج16،ص90.

2ابن إياس،نفس المصدر،ج2،ص464.

إلى عوامل أخرى منها عدم وجود بديل مقنع للمماليك يحل محلـه، ونجاحـه في إدارة الأزمة الطويلة للدولة، وتوفقه في الحفاظ على التوازنات القائمـة بـين مختلـف أجنحـة الحكم، إذ أن ذلك العهد الذي كان فيه السلاطين يضربون بقـوة كـل مـن يخـرج عـن طاعتهم قد ولّى وانقضى، ليحل محله عهد يكتفى فيه بالمسايرة واللّين والتساهل.

خاتـمة:

لئن شـكلت ظـاهرة عصـيان المماليـك السـلطانية جـزءا مـن المشـهد السـياسي والأمني للقاهرة المملوكية،إلاّ أنّها اكتسبت منذ العهد الجركسي صفة الظـاهرة المزمنـة والمستوطنة باتخاذها منحى تصاعديا،لم يعد بالإمكان إيقافه أو التصدي له. وارتبطـت هذه التحرّكات المتناقضة تماما مـع الـدور المرتقـب مـن نخبـة الجـيش بمطالـب هـي بالأساس ذات صبغة مادية مطلبية والتي كان على السلطان الإيفاء بها، إلاّ أن الإخـلال بها،كان يؤدي بصفة شبه آلية إلى ردود فعل متفاوتة الحدّة، يتحول بعضها إلى عصيان يتوسّـع نطاقـه ليتجـاوز قلعـة الجبل،ليشـمل مدينـة القـاهرة الكـبرى أو أجـزاء منها،فتتحول شوارعها وميادينها إلى ساحات قتال، وتعم حالة من الفوضى والاضطراب أسواق المدينة وأحياءها. والخطر من ذلك أن هذه "الاعتداءات"، لم تكن موجهة فقط ضد السلطان وكبار أعوانه، بل امتدت لتشمل فئة المعمّمين وخاصة العامة، مما يزيـد في شحن الأجـواء في المدينـة، وتصـاعد التـوتر الـذي قـد ينتهـي في أحيـان عديـدة إلى مواجهات دامية، وسقوط ضحايا.

ولـئن كانـت هـذه التحركـات تعـدّ نـيلا مبـاشرا مـن هيبـة السـلطان،فإن التصدي لها اتسم في الغالب بالليونة والتساهل، وهو أمر له دلالة خطيرة، وهـي عجز السلاطين عن السيطرة على مماليكهم، وإلزامهم بالنظـام والانضـباط وهـي

قواعد أساسية في أيّ مؤسسة عسكرية. إن استفحال هذه الظاهرة، يؤكد ولاشك حالـة التفسخ التي أصـبحت عليهـا نخبـة الجـيش، والتـي تعكـس بـدورها تفسـخ مؤسسـة الجيش، وتدهور حالة كل مؤسسات الحكم تقريبـا، وعـلى رأسـها مؤسسـة السـلطنة، التي فقدت الكثير من بريقها وقوتها. ولا تعدو ظاهرة العصيان هذه إلا أحـد عـوارض الأزمة العميقـة والشـاملة لنظـام الحكـم القـائم،والتي لـن يـتمكن مـن التعـافي منهـا خصوصا وأن الأوضـاع الإقليميـة (تعـاظم القـوة العثمانيـة الفتيـة)، والدوليـة (ظهـور البرتغاليين في المحيط الهندي) الجديدتين منذ أواخر القرن 15م، لـن تسـمح للمماليـك بإعادة ترتيب أوضاعهم والتصدي للخطر الداهم،فكانت السلطنة بعـد عهـد قايتبـاي تسرع الخطى نحو نهايتها المحتومة.

سجون وسجناء العهد المملوكي (1249 م – 1517 م)*

التقديم :

ما من شك في أن المؤسسة السجنية كانت ولا تزال – رغم الإصلاحات التي طرأت عليها – إحدى آليات العقاب والردع، ولم تشذ السجون المملوكية عن هذه القاعدة، غير أن هذا الجهاز الخطير لم يحظ بالدراسة والبحث. فلا نعثر في الدراسات المتعلقة بهذا العهد إلا على لمحات سريعة لا تغطي كافة جوانب هذا الموضوع. ومن الأسباب المفسرة لذلك شحة المعطيات الواردة في المصادر، فباستثناء الفصل الذي خصصه المقريزي عن سجون مصر والقاهرة [1]، والذي تضمن معلومات ثمينة فإن المادة التاريخية في باقي المصادر لا تغدو أن تكون شذرات متناثرة هنا وهناك وعادة ما تكون متصلة اتصالا وثيقا بالوقائع السياسية والعسكرية والأمنية أي أنها تتصل أساسا بالفئة الحاكمة و" الطبقة السياسية إجمالا "، ولا يتم التعرض إلى العامة من السكان إلا متى كان الأمر متصلا بضبط الأوضاع الأمنية.

وهذا البحث هو محاولة أولية لتبين ملامح هذا الجهاز وتقصي أوضاع السجون والسجناء.

فما هي مكانة عقوبة الحبس في المنظومة العقابية والردعية في هذا العهد؟ ومن كان يقوم بالإشراف على السجون وتسييرها ؟ وما هي ملامح عالم السجن وأوضاع السجناء ؟ وما هي سبل الخلاص والانعتاق منه ؟

---

* هذا العمل نشر في السلسلة التقديرية لبعض الأعلام الدوليين في المجلة العربية التاريخية للدراسات العثمانية، عدد خاص مهدى إلى الأستاذ أ.ريمون (القسم العربي) جمع وتقدير أ.د عبد الجليل التميمي تونس أوت 2004.

1 - المقريزي (تقي الدين أحمد)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروفة بالخطط المقريزية)، دار صادر – بيروت – ج2 ص 187-189 .

I- السجن بين الشرع والواقع المعيش :

1) عقوبة السجن في إطار الشرع الإسلامي :

نعتقد أنه من المفيد أولا التعرض ولو بإيجاز إلى مكانة عقوبة السجن ضمن المنظومة العقابية التي نصت عليها التشريعات الإسلامية من خلال القرآن والسنة وكتب الفقه ويحيلنا ذلك مباشرة إلى ما يصطلح عليه في الفقه بالحدود. والحدود تعني "العقوبات المتوجبة على الذين يخالفون تعالم الشريعة بارتكاب " الكبائر" مثل الزنا أو القذف بالزنا وتناول الخمر والحرابة[1]. إضافة إلى ذلك كان الفقه اتسم بالمرونة على هذا المستوى، فحظ على العفو عند المقدرة ودرء الحدود، وتعد هذه المخالفات خطيرة في نظر الشريعة تستوجب الردع من خلال عقوبات مناسبة مثل الإعدام وقطع بعض الأعضاء والرجم والتعزير، وباعتبار شدّة هذه العقوبات فكانت التشريعات أيضا صارمة ملزمة المدعين بوجوب إثبات ذلك، حتى أن تهمة الزنى على سبيل المثال يصعب إثباتها، ودعت إلى درء الحدود بالشبهات [2]. وكانت الشفاعة أحيانا مقبولة لدى الحكام والقضاة وإجمالا فان هذه العقوبات إذا ما نفذت كانت تتراوح ما بين عقوبات بدنية ومالية وتعزير، ومما يلفت النظر هنا أن عقوبة السجن غير منصوص عليها في القرآن، صحيح أن لفظ السجن ورد في عدة مواضع منه دون أن تكون العقوبة حدا من الحدود التي نص عنها [3]، أما في كتب الفقه فنجدها بشكل ملتبس، إلا إذا ما استثنينا عقوبة الحبس بالنسبة للمديانين الذين لا يقومون أو يعجزون عن تسديد ديونهم[4]، كما نجد تضاربا لدى الفقهاء والمؤرخين بشأن تحديد الفترة الزمنية التي ظهرت فيها مؤسسة السجن، كما

1- E.I 2 , VOL.9 ,p.569.

2 - الشافعي، كتاب الأم، ج6،ص137-155.

3 - لسان العرب، مادة: حبس،ص752، ومادة:سجن، ص1947.

4 - العيني، عقد الجمان،... تحقيق عبد الرازق الطنطاوي قرموط،الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1989،ص234.

يقع الخلط بين الإيقاف أو الترسيم من ناحية، والسجن من ناحية أخرى، فيذكر المقريزي على سبيل المثال في خططه أن أول من طبق هذه العقوبة هو الخليفة عمر بن الحطاب[1]، ومهما يكن من أمر فنحن نعتقد أن الاتساع الهائل والسريع لمجال الدولة الإسلامية والتنوع الشديد الذي صبحت عليه التركيبة السكانية وتعقد البنى الاجتماعية والاتصال لشعوب ذات حضارات عريقة، لا شك أن بعضها على الأقل كان يطبق هذه العقوبة مما حدا بالدولة الإسلامية إلى مجابهة هذه التطورات السريعة والمتلاحقة فاستوجب مواجهة أحداث هذه المؤسسة حتى تستجيب لحاجات الدولة والمجتمع، ويعد العهد المملوكي على هذا المستوى امتداد للعهود التي سبقته لا سيما العهد الأيوبي، فكان السجن جزءا لا يتجزأ من منظومة العقاب، ويكشف عن الوجه الآخر للسلطة، بل يكاد يكون خلاصة أشكال العقاب التي كانت تمارس عصر إذ، بل يبدو بعضها من خلال وصف المقريزي "أشر من الموت"[2].

وبناء على التطورات المتنوعة خاصة على المستويات السياسية والعسكرية والقضائية التي عرفتها المنطقة، وفلنا أن نتساءل أولا على الجهات المفوضة بإصدار الأحكام بالسجن.

2) الجهات المؤهلة بإصدار أحكام أو أوامر بالسجن:

بالنظر إلى طبيعة الدولة المملوكية فإن الإشراف على القضاء وتعيين القضاة كان من اختصاص السلطان، فهو الماسك بالنفوذ الدنيوي كما توحي بذلك تسميته إذ كان إصدار الأحكام من صميم نفوذه وصلاحياته ولذلك كان السلاطين المماليك حريصين ومنذ وقت مبكر على أن يكونوا على رأس الجهاز القضائي. إلا أن هذا الجهاز كما لاحظ ذلك " شاخت " بشأن القضاء في الدولة

1 - المقريزي، الخطط، ج2، ص187.

2 - نفس المصدر، ج2، 188_189.

الإسلامية يتميز بثنائية، فإلى جانب القضاء الشرعي كان هناك قضاء آخر يمكن تسميته بالقضاء "المدني"[1] والذي يكون بيد السلطان، إذ حرص السلاطين المماليك منذ عهد الظاهر بيبرس على الفصل في القضايا بدار العدل محاطين بقضاة المذاهب السنية الأربعة وكبار الموظفين[2].

ويفوض السلطان بعض أعوانه صلاحية إصدار أحكام بدون عقد جلسات محاكمة من ذلك الوالي فكان من صلاحياته إقامة الحدود وتعقب "اللصوص ومثيري الفتن" في حدود المدينة ويعاقب كلا من هؤلاء حسب "الجرم" المرتكب "[3] وكانت هذه الصلاحيات مفوضة أيضا إلى نواب الأقاليم.

وإلى جانب هذا الفضاء "المدني" كان من صلاحيات القضاء الشرعي أولا الفصل في قضايا الأحوال الشخصية للسكان المسلمين والبت في القضايا المتعلقة بالشرع والعقائد وإصدار أحكام بالسجن والإعدام، في حين كان لأهل الذمة قضاؤهم الخاص بهم في ما يهم الأحوال الشخصية، ويضاف إلى كل هذا قاضي العسكر الذي ينظر في القضايا المتعلقة بالجند المملوكي[4].

وما يمكن قوله أن النظام القضائي لم يكن موحدا رغم أن الشريعة هي التي كانت تسير مختلف نواحي الحياة في هذا العهد سواء تعلق الأمر بالعبادات أو المعاملات، وإذا لم يكن الجهاز القضائي موحدا فمن كان يقوم بتسيير السجون ؟

---

1 - J. Schachat, *Introduction au droit musulman* , Gallimard Paris, 1976, p 76

2 - حسن (علي ابراهيم)، تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة 1964 – ص372-373

3 . - نفس المرجع، ص 380-382 .

4 - نفس المرجع، ص 381 .

3) ضمان السجون :

كـان الإقطـاع العسـكري المملـوكي هـو الشـكل البـارز في الحيـاة الاقتصـادية والاجتماعية والسياسية لهذا العهد، ولم تكن الأرض هي المصدر الوحيـد لهـذا الإقطـاع بل تعدتها إلى جميع موارد الدولة بما في ذلك الضرائب "الشرعية" والمكوس والمعـادن[1]، وكان من ضـمن الضرائـب مـا يعـرف بالمـال الهـلالي و"يسـتخرج عـلى حكـم الشـهور الهلالية" ويشمل أنواعا متعددة من الضرائـب مثـل ضـمان البغـاء وضـمان القـراريط الحمامات والأفران ..."[2]، وكانت السجون ضـمن هـذه المصـادر والتـي كانـت تعـرض مشاهرة للمزاد العلني ويستفاد ذلك مما جاء في المرسوم الذي أصدره السلطان الناصر محمد سنة " (717 هـ / 1317 م) في إطار إلغاء مجموعة مـن المكـوس إذ " أبطـل مـا كان مقررا على السجون وهو أن كل من سجن ولو للحظة واحدة ستة دراهم سوى ما يغرمه [3] وكما هو معلوم فإن العمل بهذه المراسيم لا يتعدى سنة واحـدة. ومـما يؤكـد استمرار العمل بضمان السجون ما تضمنه المرسـوم السـلطاني الصـادر سـنة 876هــ / 1471م والذي يحجر على "... النقباء والـرؤوس النـوب أن يأخـذوا مـن السـجان عـلى المسجون الذي يودع عنده شيئا "[4]. الضمان هو التزام مالي يتكفل الضامن بدفع مقدار والي لخزينة الدولة حسب الاتفاق الحاصل، ويقوم بفرض رسوم عـلى المسـاجين وعـلى زوار السجن مقابل الزيارة[5].

يذكر ابن تغري بردي معطيات أخـرى عـن هـذا الإقطـاع " كـان عـلى هـذه الجهة عدة مقطعين ولها ضامن يجبي ذلك من سائر السجون "[6] فـيمكن القـول أن

1- ضومط (انطوان خليل)،تاريخ الدولة المملوكية، دار الحداثة، بيروت 1982،ص 102.

2- المقريزي، الخطط، ج1 ص106-107 .

3- ابن تغري بردي (جمال الدين)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج9 ص46 .

4- ابن الصيرفي (علي ابن داوود) أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حـبشي، القـاهرة 1970 ص321-322

5- نفس المصدر، ص321

6- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9،ص46.

هنالك جهات متنفذة كانت مستفيدة من هذا الإقطاع لما يدره من مداخيل لا بأس بها، وهي تسعى على ما يبدو إلى إلغاء العمل بمراسيم تعطيل هذا الصنف من المكوس لما يلحقها من أضرار مالية ودليلنا هو أن مراسيم المنع نادرة في هذه الفترة بما يعني أن كلاّ من الدولة والملتزمين كانوا مستفيدين من مثل هذه الضرائب [1]، والحقيقة أن العمل " بالضمان " كان هو القاعدة بالنظر إلى طبيعة الدولة المملوكية لكونها دولة " جابية " تعمل على اعتصار السكان عن طريق الجباية وتنمية الموارد المتأتية منها، ولا تسعفنا المصادر على المقادير المالية المتحصل عليها رغم بعض الإشارات العامة من ذلك أن والي القاهرة، كان " يوظف على سجان خزانة شمائل شيئا من المال يحمله له كل يوم ... "وبلغت هذه المقادير المالية من هذا السجن" في أيام الناصر فرج مبلغا كبيرا"[2]، وحينما أصدر السلطان الناصر محمد مرسوما بإبطال مكوس على" المملكة الطرابلسية " ذكر أن مجموع ما كان يتحصل عليه منها نحو "عشرة ألاف درهم " " خارجا عن سجن طرابلس "[3]، وهذه الضريبة على ما يبدو لا تهم إلا السجون الواقعة خارج القلاع أي سجون الولاة مما يعني أن نظام السجون على هذا المستوى لم يكن موحدا في هذا العهد وأن المساجين كانوا مصنفين حسب عدة اعتبارات إما اجتماعية أو " اثنية " " المماليك والأهالي، و" حسب طبيعة ونوعية " الجناية " المرتكبة.

1- ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص321-322

2 - .المقريزي، الخطط، ج2 ص188-

3 - حمادة (محمد ماهر)، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، مؤسسة الرسالة – بيروت 1983، ص304..

II/ أنواع السجون وأصناف السجناء :

يميز المقريزي في خططه بين نوعين من السجون وهي: سجون الشرع أو القضاة وسجون الولاة التي تسميها المصادر أحيانا سجون الجرائم أو أرباب الجرائم[1].

ولا تمكننا المصادر من تبين الفرق بين النوعين ويرتبط ذلك بجهة الإشراف على هذه السجون ونوع الجناية المرتكبة والجهة التي أصدرت الحكم. فهل أن سجون القضاة كانت تأوي مساجين صدرت بحقهم أحكام بالسجن من قبل القضاء الشرعي؟. لا نتبين من خلال المصادر الفروق بين الصنفين سواء كان ذلك يهم جهة الإشراف على هذه السجون أم نزلاء هذه السجون أي الجهة التي أصدرت في حقهم أحكاما بالسجن. وهذا التقسيم الأولي لا يبدو أنه مطابق لواقع السجون المملوكية إذ لا نلمس في المصادر حدودا فاصلة بين هذين النوعين بل على العكس من ذلك تماما، نلمس تنوعا شديدا لهذه السجون[2]، ونتبين أن هذا التنوع يخفي تقسيما آخر وهو بين معتقلات مؤقتة هي بمثابة مراكز إيقاف تحفظي حتى يبت في أمر الموقوف بصورة نهائية، وهو ما يطلق عليه بالترسيم وهذه المراكز ليست محددة بل هي شديدة التنوع بحسب الجهة التي يصدر إليها الأمر بالترسيم على الموقوف، أما الصنف الثاني فهو السجون بأتمّ معنى الكلمة أي تلك التي سيقضي فيها السجين فترة سجنه بعد صدور الحكم عليه.

وتنقسم هذه المعتقلات إلى محلات داخل القلعة وأخرى خارجها وإلى محلات مدنية وأخرى عسكرية ومنشآت دينية والمعتقلات التالية بمدينتي مصر والقاهرة تعطي صورة عن نوعية مراكز الإيقاف:

---

1 .المقريزي، الخطط، ج2 ص187 / الصيرفي، أنباء الهصر، 876 هـ ص 404

2 - علي (السيد علي)، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة 1986 ص 250

موقع المعتقل	صنف المعتقل	المصدر
منشآت داخل قلعة القاهرة	الزردخاناه	المقريزي، السلوك، ج3، ص268 وص905 . - ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج1 ص221 .
	الطاشخاناه	ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص341 .
	قاعة الخاص	المقريزي، السلوك، ج3، ص500 .
	قاعة بين السورين	ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص340 وص279 .
	قاعة البحرة بالحوش السلطاني	ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج2 ص 433 . ابن طولون، إعلام الورى، ص152 .
	قاعة الفضة بالقلعة	المقريزي، السلوك، ج3، ص678 . ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج1 ص223 .
	قاعة النحاس	ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج1 ص225 .
	قاعة الصاحب	المقريزي، السلوك، ج 3، ص663 .
	دار الوزارة	ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص270 .
	دار السعادة	ابن حجر، أنباء الهصر، ج2 ص381 .
منشآت مالية	قاعة الفلوس	العيني، عقد الجمان، ج2، ص270 .
منشآت دينية	جامع القلعة	اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2 ص386 . ابن طولون، مفاكهة الخلان،، ص351 .
	ميضاه جامع الصالح خارج باب زويله	ابن طولون، إعلام الورى، ص96
	المدرسة النورية	ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج2 ص323
	العذراوية	ابن حجر، أنباء الغمر، ج1 ص258
	المدرسة العادلية	ابن حجر، أنباء الغمر، ج2 ص323-324
إسطبلات	الاسطبل السلطاني	المقريزي، السلوك، ج3، ص675
مارستانات	مارستان	ابن حجر، أنباء الغمر، ج1 ص196

ويتضح لنا من خلال هذا الجدول أن أكثر من " نصف مراكز الإيقاف " هذه توجد داخل قلعة الجبل، والمعتقلون فيها هم من الأمراء المماليك ومن كبار الموظفين وكبار الأعيان من الأهالي، ممن أمر السلطان بالترسيم عليهم، كما أن المنشآت خارج القلعة سواء كانت دينية أو مدنية يمكن أن تقوم بوظائف أخرى غير وظيفتها الأصلة. في حين أن تحول المارستان إلى مركز إيقاف يتعلق الأمر أساسا بحالات تهم العقيدة مثل إعلان الارتداد عن الدين. وهذا الاعتقال هو لفحص السجين وتحديدا لتبين سلامة مداركه العقلية[1] في حين أن " دار الفلوس" وهي دار ضرب السكة تحولت إلى مركز اعتقال المصادرين والمديانين دون تحديد لانتماءاتهم الاجتماعية، ولعل في ذلك رابطة بين قضاياهم ودار الضرب.

بعد هذا " الإيقاف التحفظي " وانتهاء فترة الترسيم يحول المتهم المدان إلى إحدى السجون حسب قرار الحكم أو الأمر به، حيث سيقضى فترة عقوبة غير محددة من الناحية الزمنية، وعادة ما تكون هذه السجون مصنفة حسب المركز الاجتماعي للسجين ونوع " الجرم " المتهم بارتكابه.

وقد أورد المقريزي في خططه مجموع سجون مصر والقاهرة منذ مطلع العهد الإسلامي حتى زمانه. هذه السجون بعضها اندثر والبعض بقي قائما بوظيفته كما استحدثت سجون أخرى خلال هذه الفترة وأمكن من خلال الخطط وغيره من المصادر تحديد هذه السجون خلال هذا العهد وهي الآتية:

السجن	موقعه في المدينة	نوعية السجناء	تاريخ الإحداث أو الإزالة	المصدر
خزانة البنود	زقاق خط البنود	- الأمراء من المماليك والأعيان - الأسرى الإفرنج	- أحدثه الخليفة الفاطمي الظاهر. - هدم في 744ه/1343م.	المقريزي، الخطط، ج2 ص188 بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص143

1 - ابن حجر، أنباء الغمر، ص196-198.

خزانة شمائل	بجوار باب زويلة	- " المحكوم عليهم بالإعدام أو القطع من "اللصوص" و" قطاع الطرق" - " من يريد السلطان إهلاكهم من المماليك "	- هدمها السلطان شيخ المحمودي 828ه/1424م.	- المقريزي، الخطط، ج،2 ص188 - السلوك، ج1 ص198 ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج2 ص491
المقشرة	بجوار باب الفتوح ملاصقة لأحد أبراج القلعة	- " أرباب الجرائم " لصوص وقطاع طرق - أمراء العربان - أمراء من المماليك - عامة	- أحدثت في 820ه 1459م - هدم أحد أبراج القلعة وألحق بها بعد هدم خزانة شمائل.	-المقريزي،الخطط،ج2 ص188 - العيني، عقد الجمان، ص593 . - ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج2، ص240-241
سجن الديلم	-	العامة من السكان		- المقريزي، الخطط، ج2 ص188. - ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج، 2 ص240-241 - المقريزي، السلوك، ج3، ص474 . - ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج1 ص208
سجن الرحبة	-	العامة – المديانون.	-	- المقريزي، السلوك، ج3، ص474 / حوادث الدهور، ج2 ص240-241 .
سجن المعونة	-		هدمه السلطان الناصر حسن	المقريزي، الخطط، ج2 ص188
الجب	القلعة	الأمراء المناوءون للسلطان.	- أحدثه السلطان قلاوون 681ه/1282م. - أزاله السلطان الناصر محمد 729ه /1328م .	- المقريزي، الخطط، ج2 ص188-189 وص205 وص213. - السلوك، ج3، ص459-460 - ابن حجر، أنباء الغمر، ج2، ص323-324

ومن خلال هذه المجموعة من سجون مدينتي مصر والقاهرة يمكن تصنيفها حسب التراتبية الاجتماعية للسجناء فهناك السجون الخاصة بالمماليك ويعد سجن الجب أفضل نموذج لذلك وسجون خاصة بالأعيان سواء كان هؤلاء من أمراء الجند المملوك من الأهالي وأمراء العربان مثل خزانة شمائل.

أما الصنف الثاني فيمكن تسميته بالسجون المشتركة، والتي تضم جنبا إلى جنب السجناء من الأعيان والسجناء من العامة وهما سجنا خزانة شمائل وخزانة البنود، أما الصنف الأخير فهو خاص بالسجناء من العامة وهي سجون المعونة والرحبة والديلم.

ويبدو هذا التقسيم مقبولا، إذ اشتهر سجن الجب طوال العهد المملوكي بأنه سجن المناوئين للسلطان من كبار الأمراء المماليك، ويوجد مثيل له في بعض قلاع وثغور السلطنة مثل قلاع دمشق وبعلبك والكرك والشوبك وصرخد وثغر الإسكندرية، وهي سجون تُؤمن العزل التام للسجين عن العالم الخارجي والحيلولة دون أي إمكانية للفرار، ويذكر ابن تغري بردي بخصوص السجناء في عهد السلطان جقمق إنه " سجن منذ أن تسلطن بحبس المقشرة إلى يومنا هذا جماعة من الأعيان والعلماء والفقهاء وأعيان الناس " بياض الناس"، فكثير في غير حبس المقشرة كحبس الديلم والرحبة والبرج من القلعة "[1].

إن هذا الفصل كما أشرنا ليس تاما بين الأعيان والعامة وحتى في الظروف العادية فإن سجن المقشرة كان يضم بين جناباته الأعيان والعامة من السجناء خصوصا " أرباب الجرائم " والهدف من وراء ذلك الإذلال بالحط من مكانة هؤلاء الأمراء والوجهاء والتسوية بينهم وبين "كبار المجرمين " كما استخدمت أبراج القلاع لا فقط كمراكز إيقاف بل أيضا كسجون للأعيان وحتى للعامة [2]. أما خارج عاصمة السلطنة فكان لعواصم الأقاليم سجونها وهذه بعض سجون دمشق عاصمة بلاد الشام التي أمكن حصرها.

---

1 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور، تحقيق محمد كمال عزالدين، عالم الكتب، الطبعة الأولى 1990، ج2 ص240-241.

2 - نفس المصدر، ج2 ص240-241.

السجن	سجن البريد	سجن المقشرة	الجب	سجن الخيالة بالقلعة
المصدر	ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص354 و370 .	ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص234	اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2 ص78	اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2 ص78

فضلا عن كل ذلك فإن للقلاع سجونها مثل الكرك والشوبك وصرخد وحلب وسجون الثغور وأشهرها على الإطلاق سجن الثغر الإسكندرية والتي كان نزلاؤه من المناوئين للسلطان والثائرين عليه أو الذين أصبحوا محل نقمته من الأمراء المماليك أو من كبار الأعيان المحليين وأمراء العربان وكبار الأعيان من الأهالي[1]. ورغم أن السجناء كانوا من الجنسين إلا أننا لا نعثر في مصادر هذا العهد عن سجون خاصة بالنساء وهو أمر متوقع في مجتمع يقوم على الفصل بين الجنسين، وقد وجدت سجون خاصة بالنساء في بيت المقدس مما يدل على إمكانية وجودها بمدن أخرى[2]، وما يمكن قوله أنه كانت توجد على الأقل أجنحة خاصة بالسجينات النساء في بعض هذه السجون ففي حوادث (873هـ-1468م)، تم سبي عدة مئات من نساء العربان بالصعيد وأمر "بتفريقهن على الحبوس "[3].

ومن خلال أنواع هذه السجون أمكن التعرف ولو بشكل عام على أصناف المساجين لكنها مع ذلك تظل لوحة شديدة العمومية تتطلب بعض التفصيل.

1) أصناف السجناء :

لئن كانت فئة السجناء "السياسيين " من أمراء المماليك وجندهم تزخر بأخبارها المصادر بما اتسم به هذا العهد من صراعات دموية داخل طائفة

1 - ابن العماد (الحنبلي)، شذارات الذهب في أخبار من ذهب،، القاهرة 1351ه، ج8 ص22.
2 - علي (السيد علي)، المرجع نفسه، ص250-251 .
3 - -ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص45.

المماليك. ولما كان يتعرض له رجالات الدولة من ارتفاع في المكانة والتدحرج إلى أسفل السلم السياسي بحسب أهواء السلطان ومصالحه وهي لعبة يمكن أن نطلق عليها لعبة الصعود والنزول التي خضع لها الجميع بمن فيهم السلاطين أنفسهم فان أفرادا أو جماعات من مختلف الفئات الاجتماعية حلت بهذه السجون لمدد زمنية متفاوتة غير أن المعطيات المتعلقة بالشرائح الاجتماعية من العامة لا تظهر ملامحها بشكل واضح كذلك التهم التي أودعوا بمقتضاها السجن، وإنما هي إشارات سريعة قلما استوقفت مؤرخي ذلك العصر مما يجعل مهمة التحديد الدقيق لهذه المسائل أمرا على غاية من الصعوبة، وقد حاولنا في الجدول التالي حصر مختلف الفئات التي ينتمي إليها السجناء:

الوسط المهني - الاجتماعي والسياسي	صفة السجين	المصدر
رجال الدولة وكبار الموظفين	حلفاء	ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج1 ص188- ابن طولون،إأعلام الورى، ص15.
	سلاطين وكبار الأمراء	ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص229 .
	وزراء	ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص331 . ابن حجر، أنباء الغمر، ج2، ص19.
	ولاة	ابن حجر، أنباء الغمر، ج،1 ص1417 المقريزي، السلوك، ج3، ص331.
	استدارات	ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص121 . المقريزي، السلوك، ج3، ص221 .
	قضاة	ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص351 . ابن إياس، بدائع الزهور، ج3 ص206 . ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص32-33 .
أعيان من غير رجال الدولة	أشراف	اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2 ص323 وص408 . ابن حجر، نزهة النفوس، ج1 ص128
	فقهاء	ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص351 ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص32-33
	شعراء	ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3 ص95
	أمراء العربان	ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، ص437 بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص78

سجناء من العامة	مديانون	بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص119. العيني، عقد الجمان،، ج2 ص369.
	فلاحون	ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص122.
	عربان	ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص122.
	قطاع طرق	ابن حجر، أنباء الغمر، ص268.
	شحاذون	ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص481.

وإذا ما استثنينا الأعيان من رجالات الدولة وكبار الموظفين الذين اعتنت بأخبارهم المصادر فإن البقية جاء ذكرهم في مجرى الأحداث السياسية والاضطرابات الأمنية التي كانت سمة بارزة من سمات هذا العهد، فبعض من هؤلاء ينتمي إلى ما يعرف حينذاك بفئة المتعممين من العلماء والفقهاء ورغم أن هؤلاء قاموا بدور قناة الاتصال الوسيط بين طبقة المماليك الحاكمة وعموم سكان البلاد وكانوا عموما محل احترام وتبجيل من المجموعتين إلا أن السلطة المملوكية كانت على الدوام تخشى هذه الفئة التي يمكن أن تكبح جماحها بما تملكه من ثقل معنوي واجتماعي ولا تتوانى متى كانت الظروف سانحة والفرصة مواتية للحد من نفوذها وتطويعها بما في ذلك الزج ببعض أفرادها من المناوئين في السجن ويشكلون نوعا من السلطة الموازية التي يجب إخضاعها، أما الفئة الثانية وهم العربان، فإن هؤلاء ظلوا طوال هذا العهد شوكة تقض مضجع المماليك وتثير خوفهم وحذرهم، فهم الفئة الاجتماعية التي تملك القوة العسكرية القادرة على الثورة وتهديد الحكم المملوكي[1]، وكانت ثوراتهم في العهد المملوكي الأول على غاية من الخطورة إذ " كانوا يأنفون الخضوع

1 - PoliaK (ANB) ; Les révoltes populaires en Egypte à l'époque, Mamluke et leurs causes économiques , *R.E.I*, VIII, 1934, p 251-273 ./ Garcin (J. Cl.) ; un centre musulman de la haute Egypte: ‘’ Qus ‘’ ,J.F.A.O.C, p148 ;p152 ;p381/384.

لسلطان مسه الرق"، لذلك كانت حملات المماليك على غاية من القسوة والدموية ومن لم يكن مصيره القتل عند الأسر فإن السجون كانت مأوى لهؤلاء ولا يستثنى من ذلك نساؤهم وأطفالهم[1] إذ أن الصراع يتعلق بوجود الدولة المملوكية نفسه.

وترتبط بظاهرة ثورات العربان ظاهرة الحرابة بقطع الطرقات والقيام بأعمال السلب والنهب والاعتداء على المسافرين مما يهدد حركة التجارة بين الأقاليم والبلدان وتنقلات المسافرين سيما قوافل الحجاج التي كانت باستمرار وخاصة في فترات ضعف السلطة عرضة لاعتداءات قطاع الطرق، ويعد هؤلاء عصرئذ من "كبار المجرمين"، ويشكل نشاطهم تحديا لسلطة الدولة لذلك فإن إعدام هؤلاء أو سجنهم في ظروف قاسية لم يكن يثير أي استياء بل كان عملا مرحبا به، وهو ما ينطبق أيضا على اللصوص خصوصا ما يعرف" بالمنسر"، وهي عصابات متخصصة في السطو كانت على غاية من الخطر.

أما الفلاحون وهم الكتلة السكانية الأكثر عددا خاصة في مصر، فإن هؤلاء كانوا معرضين دوما لعمليات الاعتصار الجبائي والمصادرات والسجن في حال عدم القدرة على الدفع، وما يجعل هؤلاء يلجأون عادة إلى مغادرة قراهم وأقاليمهم، والاختفاء بعيدا عن أنظر السلطة المملوكية.

وضمت هذه السجون فئات هامشية مثل الشحاذين واللصوص وقطاع الطرق، وهي فئات عادة ما تهملها المصادر المملوكية، وما يمكن قوله أن روادها أفرادا وجماعات من مختلف الفئات السكانية دون استثناء رغم صعوبة إبراز ذلك بصفة مدققة ومفصلة بالنظر لشحّة المعطيات.

---

1 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص45.

وهذا التنوع في الجهات القضائية وفي أنواع السجون وأصناف السجناء، يـدفعنا للتساؤل إن كان هذا التنوع يمس أيضا مسألة الإشراف على السجون وتسييرها.

2) الإشراف والتسيير:

بمـا أن السـجون المملوكيـة تتبـع سـلطات متنوعـة فإنهـا مـن ناحيـة الإشراف والتسيير المباشر كانت تتبع جهات محددة تشرف بدورها على مجموعة مـن الأعـوان يتولـون التسـيير اليـومي لهـذه السـجون. فبمقـتضى الأمـر بالترسـيم أي "الإيقـاف التحفظي" والذي يصدره السلطان يكون المـتهم تحـت المسـؤولية المبـاشرة والكاملـة للموظف الموكل بهذه المهمة والذي ينتمي عـادة إلى كبـار رجـال الدولـة مثـل الـوالي ووالأستادار والوزير وشاد الدواوين[1]. وبعد صدور الحكـم ونقـل السـجين يصـبح بيـد الجهة المشرفة على السجن، ففي حالة سـجون القـلاع فـإن نائـب القلعـة يكـون هـو المسؤول عنها باعتبار أن كل القلعة هي تحـت مسـؤوليته ولا يتلقـى الأوامـر إلا مـن السلطان مباشرة نظرا للأهمية القصوى لهـذه المنشـآت الحربيـة في الحيـاة السياسـية فضلا عن دورها العسكري. فمن مهام النائب "صونها ولا يسلم مفاتيحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانه أو لمن يأمره السلطان بتسليمه له"[2] وبما أن المساجين هـم عمومـا مـن الأمراء المماليك الذين يمثلون خطرا على حكم السلطان فإن أي إخـلال بـإدارة القلعـة قد يؤدي إلى فرار هؤلاء مما يخلق متاعب ربما انتهى بعضها بالإطاحـة بحكـم السـلطان القائم. أما السجون خارج القلاع فإنها تكون تحت نظر الوالي والـذي يشرف عـلى أعـوان السـجن الـذين يقومـون بالتسـيير اليـومي، وعـدد هـؤلاء في كـل سـجن لـيس بـالكبير

---

1 - ابن حجر، أنباء الغمر، ص257 / ابن طولـون الدمشـقي، مفاكهـة الخـلان في تـواريخ الزمـان، تحقيق مصطفى زيادة – القاهرة 1962 ص352 .

2 - حماده (محمد ماهر) المرجع نفسه، ص240. / ابن تغري البردي، المنهل الصافي، ج2 ترجمـة 480.

حسب ما يستنتج من المصادر، إذ يقتصر هؤلاء على السجان وصبيانه[1]، وعلى ما يبدو فإن الوالي كان يساعده في التسيير عدد من صغار الأمراء والجند وهم رؤساء النوب والنقباء، وهو ما نتبينه من المرسوم الصادر سنة 816هـ/1471م والقاضي بمنع ضمان السجون[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن صنفا من هؤلاء السجناء كان يتم إخراجهم يوميا إلى المدينة للتسول وجمع الصدقات من المحسنين ويكون بصحبة كل سجين حارس برتبة جندار أو ينوبه في ذلك صبيه. فهل أن هؤلاء كانوا جزءا من جهاز الحراسة أم أن مهمتهم تقتصر فقط على مرافقة السجناء عند الخروج للتسول. إن الانتقال من الترسيم إلى السجن يعني مرحلة جديدة من حياة السجين، فكيف تبدو ملامح عالم السجن وظروف عيش السجناء في هذا العهد ؟

III/ وضعية السجون والسجناء :

1) السجون من الداخل أو الجحيم الأرضي:

يلخص المقريزي في خططه أوضاع السجون في عصره بقوله :" وأما الحبس الذي هو الآن فإنه لا يجوز عند أحد من المسلمين ذلك أنه يجمع الكثير في موضع ضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة وقد يرى بعضهم عورة بعض، يؤذيهم الحر في الصيف والبرد في الشتاء ... "[3].

فالملاحظة الأولى هو ضيق الإطار المادي أي السجن، ولا ندري إن كان ذلك يعود إلى صغر حجم هذه المنشآت أم إلى العدد الكبير للسجناء والذي يفوق طاقة الاستيعاب مما يترتب عنه وضع خانق للحركة والأنفاس معا، إذ يتراص

---

1 - العيني، عقد ألجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق عبد الرازق الطنطاوي فرموط، حوادث (824ه – 850ه) الزهراء للإعلام العربي – القاهرة 1989 ص656.

2 - ابن الصيرفي، أنباء العصر، (876ه) ص321-322 .

3 - المقريزي، الخطط، ج2 ص18 / الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، جزءان، تعريب محمد حجي ومحمد لخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت 1983، ج2 ص221.

السجناء جنبا إلى جنب يتلظون من حر الصيف القائظ وبرد الشتاء القارس، في بلد ذي مناخ صحراوي بالأساس، وهذا الضيق وهذا الاكتظاظ المفرط يدخل ضمن أشكال العقاب، إذ تحرص السلطة المملوكية على أن تلحق أكبر قدر من الأذى بالسجناء خصوصا وأن هؤلاء يظلون داخل هذا الفضاء مقيدين من أغلالهم مما يزيد في صعوبة تنقلهم داخله.

ولا يبدو أن تجهيزات النظافة الضرورية كانت متوفرة، وهو الأمر الذي استنكره المقريزي بإشارته إلى عدم قدرة هؤلاء على الطهارة والصلاة، ويؤكد السبكي هذه الناحية بدعوته للسجان أن يسهل على السجين أداء واجباته الدينية اليومية.

ومما توفر من معطيات حول أوضاع هذه السجون فإنه يمكن القول بأنها كانت على غاية من البؤس "، يقاسي فيها المسجونون من الغم والكرب ما لا يوصف،[1]" فسجن المقشرة حسبما جاء في وصف المقريزي، هو "من أبشع السجون وأضيقها...، أما خزانة شمائل فإضافة إلى بشاعتها...، كانت من أقبح السجون منظرا"، في حين أن حبس المعونة الذي جمع بين الصفات السابقة فكانت "تشم من قربه رائحة كريهة"[2]، ويجسد سجن الجب بالقلعة والمخصص للأمراء من المماليك نموذج السجن في أقسى وأقصى مظاهر البشاعة والقسوة حتى أنه يمكن القول بأنه يعد نموذجا مكثفا لهذه الوضعية البائسة، فهو سجن رهيب مرعب، إذ هو عبارة على "بئر مظلة وضيقة تصدر منه روائح كريهة للغاية وتكثر به الوطاويط "[3]. في هذا السجن – الجب - يعاني السجين من الضيق الشديد فلا مجال للحركة، ويفقد السجين داخله الإحساس بالزمن، إذ هو

---

1 - المقريزي، الخطط، ج2 ص187.

2 - السبكي (تاج الدين عبد الوهاب)، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وأبو زيد شبكي ومحمد أبو العينين، دار الكتاب العربي، القاهرة 1948، ص142. / المقريزي، الخطط، ج2 ص187 .

3 - المقريزي، الخطط، ج2 ص188.

غارق في ظلام دامس لغياب النور والإنارة ويفتقر إلى الحرارة والتهوئة الكافيتين مما يسبب رطوبة مضرة بالصحة، ويكون مصدرا لمختلف الأمراض لانعدام " أدنى الشروط الصحية". ففي هذا الموضع يتساكن السجين مع الطيور الليلية والحشرات، ويكون مرشحا للإصابة بشتى الأمراض ومهددا في وجوده ذاته بسبب ذلك[1] خصوصا إذا ما طالت مدة السجن، وهو ما تؤكده المصادر بحصول وفيات داخل السجون[2] والغاية من كل ذلك إذلال السجين والحط من منزلته إلى ما دون المستوى الحيواني مما يجعل السجن أعلى درجات العقاب ويصبح الموت مبتغى وغاية للخلاص منه إذ هو " كالموت أو أشد منه "[3]، ولعل ذلك يتوافق مع الطبيعة الاستبدادية للسلطة المملوكية وشراستها في مواجهة كل المناوئين لها سواء من داخل "هذه الطبقة العسكرية المغلقة"، أو من خارجها، لذلك لا نبالغ حين نصف سجونها بأنها جحيم أرضي. بقي أن نذكر أن سجن الجب لا يوجد فقط بقلعة القاهرة بل له عدة نظائر في قلاع أخرى بالسلطة مثل قلعة دمشق وبعلبك وحران[4].

إن هذه الأوضاع التي كانت عليها السجون المملوكية هي التي دفعت بعض السلاطين في فترات متباعدة بإصدار أوامر بهدم بعض هذه السجون بعد أن تواترت التشكيات من بشاعتها و" الأهوال " التي يقاسيها السجناء، ففي سنة 729ه/1328م [5] أصدر السلطان الناصر حسن أوامره بردم سجن الجب بعد أن استمر استخدامه قرابة النصف قرن والذي كان قد أمر بإقامته والده السلطان قلاوون، وتحول موضع السجن إلى طباق يأوي المماليك السلطانية. فهل يعني

---

1 A. Larguèche (A) ,*les ombres de la ville*, *centre de publication universitaire*, TUNIS,1999, p208-212

2 - -المقريزي، السلوك لمعرفة الدول الملوك، ج3،(حوادث 783ه-801ه) القاهرة، 1970-1971. حوادث 791هـ ص676. / ابن حجر، أنباء العصر، ج2 ص540. / اليونيني (قطب الدين أبو فضل)، ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد 1954-1961، ج2 ص78.

3- المقريزي، الخطط، ج2 ص188-189. -

4 - ابن حجر، أنباء الغمر، ج2 ص540. - اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2 ص544 .

5- 43- المقريزي، الخطط ج2 ص188-189 - ابن حجر، أنباء الغمر، ج2 ص540.

ذلك تغييرا في سياسة هذا السلطان اتجاه الأمراء المماليك المناوئين لحكم البيت القلاووني ؟. يبدو أن ذلك لم يكن بالأمر المستبعد في سبيل كسب ود الأمراء المماليك، وبعد حوالي ثمانية عقود من إغلاق سجن الجب بأمر السلطان شيخ المحمودي بهدم سجن فضيع آخر هو خزانة شمائل التي يعود بناؤها إلى عهد الملك الأيوبي الكامل، ففي سنة 818هـ/1415م " أخذ السلطان الأملاك المجاورة لخزانة شمائل وهدّها وهدّ الخزانة المذكورة، وكشف هناك أرضا واسعة وشرع في عمارة جامع وخانقاه "[1]، وبذلك تحول هذا الموضع من موضع مدنس " مأوى الحرامية والفاسقين " حسب ابن الصيرفي إلى مكان ذي قداسة " يعبد اللـه فيها باليقين "[2]. على أن هذا الإغلاق كان ستتبعه توسعة سجون قديمة أو استحداث سجون جديدة، فتم إحداث سجن المقشرة بعد أن تمت إضافة أحد أبراج القاهرة الملاصقة للبناية، و"عين البرج والمقشرة سجنا نقل إليه أرباب الجرائم "[3] وذلك على إثر إغلاق خزانة شمائل. وفي غمرة الصراع الطويل والدموي بين المماليك الأتراك والجراكسة أواخر القرن 14 م وكثرة أعداد المعتقلين، "أخليت خزانة الخاص بالقلعة وسدت شبابيكها وبابها وفتح من سقفها طاق وعملت سجنا "[4] وهو أشبه بالجب الذي مر ذكره، لكن يبدو أنه كان سجنا مؤقتا أملته ظروف سياسية وأمنية استثنائية إذ لم يرد ذكره إثر هذه الحوادث.

وإذا كانت أوضاع السجون بهذه الصفة "المرعبة " فكيف كان السجناء يقضون مدد سجنهم؟

---

1 - ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج2 ص349 / المقريزي، الخطط، ج2 ص188 .

2 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ج2 ص491.

3 - المقريزي، الخطط، ج2 ص188.

4 - المقريزي، السلوك، ج3، 791ه، ص647

2) أوضاع السجناء :

أ- مدة السجن :

في البدء لا بد من الإشارة إلى أن مدة العقوبة بالسجن لم تكن " مقننة " فهي لا تخضع لأي مقياس من المقاييس إذ أنها غير محددة بنوع " الجنحة " أو " الجناية " المرتكبة، بل هي خاضعة إلى مزاجية السلطان واعتباطيته، فلم تورد المصادر حكما بالسجن لمدة محددة وهو ما ينطبق أيضا على أحكام القضاء الشرعي، فهذه المدة يمكن أن تطول أو تقتصر،غير أن مدة سجن كل من رجال الدولة من أمراء وكبار الإداريين أو كبار الأعيان كان يرتبط إلى حد كبير بالتطورات السياسية والأمنية خاصة انقلابات القصر و" لعبة الصعود والنزول " في المناصب الإدارية التي كان يمارسها السلاطين، أو التدخلات لفائدة السجين، كما أن ظروفا استثنائية مثل الأزمات الغذائية كان يضطر السلطان أحيانا لإطلاق سراح المديانين والمصادرين من العامة... .

ولم تكن حالة السجناء مثل التقدم في السن أو المرض لتحول دون قضاء فترة قد تطول في السجون، والجدول التالي يقدم أمثلة متنوعة عن فترة السجن التي قضاها أصناف من السجناء من مختلف الشرائح الاجتماعية لا سيما من الأمراء المماليك والأعيان .

مدة السجن	السجين / السجناء	التهمة – تاريخها	المصدر
" قضى ساعة والجب وأعدم	منكوتمر	سياسية (696هـ)، صراع على الحكم.	ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8 ص103.
قضى عدة أيام ثم أعدم	آلي باي	سياسية (800هـ) " التمرد "	المقريزي، السلوك، ج3، ص905 .
عدة أيام ثم بهم	المماليك الظاهرية	سياسية (قتل الأشرف خليل).	المقريزي، السلوك، الجزء 1، ص795-796.
من 10 ذي القعدة إلى 11 ذي القعدة، إفراج	أبناء السلطان الناصر فرج	سياسي، إجراء احتياطي.	ابن الصيرفي، نزهة النفوس (819ه) ص471 .

عدة أشهر ثم إفراج	الأمير عزالدين الاستادار وكاتبه	مصادرة (876هـ).	ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص417.
سنة واحدة	الأمير آق ستقر	سياسية – (676هـ) .	ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ترجمة رقم 500، ص494-496
سنة وشهر	نائب قلعة دمشق	سياسية (696هـ).	ابن الوردي، تتمة المختصر، ج2 ص307.
ثلاث سنين	فلاحون	مصادرة (877هـ).	ابن حبيب، تذكرة النبيه، ص484.
أربع سنوات	جندي من المماليك	" سرقة سلاح ديوس "	ابن الشحنه، البدر الزاهر، ص54.
بضع سنين	الأمير تنكز	سياسية (735ه) .	ابن طولون، أعلام الورى، ص15.
عشر سنوات	الأمير بيبرس الحاجب	سياسية (735ه).	ابـن تغـري بـردي، النجـوم الزاهـرة، ج9 ص110-111 .
13 سنة	الأمير بدرالدين بيسرى	سياسية - 692هـ	ابن الوردي، تتمة المختصر، ص34
14 سنة	الأمير صلاح الدين	سياسية – 735هـ	ابـن تغـري بـردي، النجـوم الزاهـرة، ج9 ص305 .
نحو 20 سنة	الفقيه أحمد بن اسماعيل (ابن البرهان)	سياســية، (الــدعوة لخلافــة قرشية)، 788-808هـ .	ابـن حجـر العسـقلاني، أنبـاء الغمـر، ج2 ص332-333.
نحو 23 سنة	الأمير برلغي	سياسية – 735هـ	ابـن تغـري بـردي، النجـوم الزاهـرة، ج9 ص109-110.
25 سنة	الأمير غانم بن طلس خان	سياسية (735هـ).	ابـن تغـري بـردي، النجـوم الزاهـرة، ج9 ص109-110.
نحو 30 سنة	؟	876هـ .	ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ص404 .

وكان إهمال السجناء عند الترسيم بنسيانهم أم تناسيهم وعدم النظر في قضاياهم أمرا شائعا[1]، رغم أن تهمة الإيقاف لا تستوجب طول فترة الاعتقال فيظل الموقوف بالسجن "شهورا وسنين"،[2] وتفشي هذه الظاهرة دفعت بعض السلاطين أحيانا إلى اتخاذ إجراءات عقابية بشأن الجهات التي تتسبب في هذا

1 - - المقريزي، الخطط، ج2 ص188. / العيني، عقد الجمان، ج2 ص369.

2 - العيني، نفس المصدر، ج2 ص369. / المنصوري (بيبرس)، التحفة المملوكية في الدولة المملوكية، نشره عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية – اللبنانية – القاهرة 1987، ص119.

الإهمال[1]، وتكشف هذه الظاهرة عن استهانة بحياة ومصير السجناء، وافتقار إلى نظم واضحة خاصة بالإيقاف والسجن .

ولا تتوقف معاناة السجين منذ الترسيم عليه بل تتواصل بعد إصدار الحكم ونقله إلى السجن أثناء فترة السجن .

ب- في الطريق إلى السجن :

إن إصدار حكم أو أمر بالسجن يعني انتهاء فترة الإيقاف، على المتهم ليتم نقله إلى سجنه، وتتخذ هذه العملية أساليب ووضعيات متنوعة، تدخل كلّها في إطار الإمعان في الإذلال والإهانة، خاصة أنّ من علامات الوجاهة امتطاء الخيل أثناء التنقل اليومي، وللحط من المكانة كان ينقل بعضهم إلى السجن مشيا على الأقدام[2]، لكن الإذلال والامتهان يكون أعظم بثقله والطواف به في المدينة على ظهر حمار[3]، كما يفعل بأصحاب " الجرائم " بالطواف بهم في شوارع وأزقة المدينة، وهو أمر شائع في ذلك العهد للتشهير بالسجين في مشهد فرجوي لا يمحى من الذاكرة غايته " العضة والاعتبار "، فهذا " كاتب السر موسى بن غريب " الذي كان يوما ما من كبار رجال الدولة المتنفذين يذل بحمله إلى السجن في " قفص حمال "[4] بعد أن زالت عنه النعمة وأصبح محل نقمة السلطان.

و لا تقتصر المعاملة القاسية على " أسلوب " نقل السجين بل أيضا في الوضعية التي تتم بها عملية الترحيل إذ تجمع المصادر على أن من العادات المتبعة تقييد السجين منذ وضعه في الترسيم، ويبدو الأمر في ظاهره إجراء

1 - العيني، نفس المصدر، ج2،ص369.

2 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج2 ص347-348 ./ ابن حجر، أنباء الغمر، ج2 ص323. / المقريزي، السلوك، ج2 ص187 .

3- المقريزي، السلوك، ج3، ص444 وص460 ./ ابن طولون، مفاكهة الخلان ص352 .

4 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص56 .

احترازيا للحيلولة دون هرب المعتقل لكن قصد الإساءة والإذلال والتعذيب غير خـاف، فالاعتقال يرتبط آليا بالقيود والأصفاد[1] لا يستثني من ذلـك أحـد، ويبـدو أنـه أسـلوب شائع الاستخدام في بلاد الشرق وبلدان أوروبا المتوسطية حتى العصور الحديثة[2].

وتتنوع هذه القيود التي يكبل بها السـجين فمنهـا القيـود الحديديـة وبعضـها قيود خشبية، فحينما ألقى مماليك السلطان برقوق القبض على مماليك الأمير الجاي " كانوا يجعلون يد هذ ويد هذا في خشبـة ويحبسـهما "، وتقيـد الأيـدي والأرجـل معـا، وتوضع إضافة إلى ذلك أحيانـا أطـواق عـلى العنـق، ولمزيـد تشـديد القيـود قـد يقيـد السجين بأكثر من قيد،[3] كما يكبل بأغلال أخرى مثل الزنجير و"الباشـات "، وقـد تكـون قيود بعض كبار الأمراء والأعيـان والـذين يـراد إذلالهـم غايـة في الثقـل بحيـث تكـون مماثلة لقيود وأصفاد "عتاة المجرمين"، وهو ما نتبينه من خلال ما جاء في وصف قيود الوالي المعزول حسام الدين بن الكوراني حيث "صفد بقيد زنتـه خمسـون رطـلا وصـار يسحبه... كما يفعل بالسراق والمفسدين"[4].

أما محمود الأستادار " فقيد بقيـد زنتـه أربعـون رطـلا وقوائمـه عشرة أرطال وجعل في عنقه ثلاث باشـات"[5] هكـذا ينقـل المسـاجين إلى سـجونهم. وفي حالة الترحيل إلى سجون الثغور والقلاع وأهمها على الإطلاق سجن ثغـر

1- ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص351 / ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8 ص103.

2 Grissa (M), *Pouvoirs et Marginaux à Paris, sous le règne de Louis XIV* , Tunis1980,p281-284.

-Belhamissi (M), *les captifs algériens et l’Europe chrétienne (1518-1830)* ,Alger 1988,p35-38 .

3 - ابن طولون، نفس المصدر، ص352. - ابن الصيرفي، أنباء الغمـر، ج1 ص171-172 ..- المقريـزي، السلوك، (791ه) ص 673- ابن طولون، نفس المصدر،(916ه) ص 346 .

4 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ج1 ص293.

5 - المقريـزي، السـلوك، ج3، ص627. –ابـن حجـر، نزهـة النفـوس، ج1، ص221.- العينـي، عقـد الجمان، (حوادث 828هـ)، ص250

الإسكندرية للمناوئين السياسيين، كانت تتخذ إجراءات أمنية احتياطية إضافية وتتبع مراسيم محددة بالنسبة لكبار الأمراء المماليك المرحلين إلى سجن الإسكندرية، إذ يكون السجين من هؤلاء محاطا بفرقة من الأوجاقية ويصاحبه مرافق من الأمراء المماليك لنقله في مركب عادة ما تكون من نوع الحراقة[1]، ومن هناك يتم الإبحار به عبر نهر النيل إلى الإسكندرية ليسلمه المرافق عند الوصول إلى سلطات السجن بالثغر[2].

لكن هذه المراسيم كانت تنتهك أحيانا، إما لاعتبارات أمنية أو لاعتبارات سياسية يراد بها الحط من منزلة الخصم بإساءة معاملته وإذلاله في وضح النهار، بمرأى من جمهور العامة، بل وفي أجواء احتفالية صاخبة[3] يظهر قوة السلطة وسطوتها، وإثارة للعامة ضدهم، ويحصل أن تتم عملية الترحيل في أجواء كئيبة وإجراءات أمنية مشددة هي أشبه بأجواء الحرب دون مراعاة لمكانة السجين السابقة، فحينما صدرت الأوامر بسجن السلطان المعزول عثمان بن جقمق "، أخرج من مجلسه – بالقلعة - على فرس ... من غير أن يركب أحد من الأوجاقية خلفه على عادة الأمراء وهو مقيد في وسط النهار، والعسكر والأمراء والخاصكية حوله بالرماح والسيوف وآلات الحرب والعامة تزدحم على الفرجة عليه في هذه الكائنة، عبرة لمن يعتبر لأنه بالأمس كان سلطان الديار المصرية والآن صار كالأسير عندهم"[4].

هذه المعاناة النفسية والمادية عند الاعتقال والترحيل إلى السجن لن تنتهي عند دخول السجين، إذ تبدأ مرحلة جديدة من المعاناة والشدائد.

1- العيني، نفس المصدر، ص119.

2- نفس المصدر، حوادث 831 هـ ص336.

3- المقريزي، السلوك، ج3، ص459-460.

4 -ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج2 ص433 .

ج- معاناة السجين:

هذه المعاناة ألمحنا إليها من خلال الأوضاع المزرية جدا للسجون في هذا العهد لذلك فإن إقامة السجين هي عبارة عن عذاب متصل خصوصا أنه يظل طيلة إقامته بالسجن مكبلا بالقيود إلى ثقالات أو قضبان الشبابيك إن كان لهذه السجون شبابيك[1].

وعلاوة على قلة الحركة داخل هذا الفضاء المكتظ كان على السجين تحمل الروائح الكريهة واتساخ ملابسه وبدنه، فليس هناك إمكانية للاغتسال العادي أو الطقوسي لتأدية الصلوات اليومية التي يحرم عمليا منها[2]، و هي شعائر لا يجب التخلف عن أدائها في مجتمع تسيره الشريعة في أدق التفاصيل .

وتصبح حياة السجين نفسها مستهدفة بسبب "سياسة التجويع "، وهو شكل من أشكال العنف الخطير غير المرئي إذ كان السجناء يعانون من نقص غذائي، فلم تكن السجون – على الأقل سجون الولاة – توفر لهم الغذاء إذ على هؤلاء تدبر أمرهم أثناء الزيارات أو عند الخروج اليومي للشغل الإجباري، بالتسول[3]، وهو غذاء لا يكاد يسد الرمق، وفي سجون القلاع كانت تقدم الطعام للمساجين لكن على ما يبدو بكميات قليلة ونوعية رديئة ذات قيمة غذائية ضعيفة، نتبين ذلك من خلال ما ذكره اليونيني عن الطعام الذي كان يقدم للملك الأيوبي عماد الدين اسماعيل عندما سجن بالجب بدمشق، فكان " ينزل إليه كل يوم قليل من ماء وربما أنزل إليه مع الخبز جزرة بقل في بعض الأوقات" [4]، وكان يراد بسياسة التجويع هذه التعذيب إلى حد الموت البطيء والمؤلم للسجين

---

1 - المقريزي، السلوك، ج3، (785ه) ص491 .

2 -المقريزي، الخطط، ج2 ص187 - السبكي، معيد النعم، ص142.

3 - الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، ج2 ص221 ./ المقريزي، الخطط، ج2 ص187-188.

4 - اليونيني، نفس المصدر، ج2 ص78 .

في عديد الحالات[1]. وإذا ما أخذنا ظروف السجن البالغة السوء بعين الاعتبار يتضح بأن حياة السجين كانت مستهدفة وهو ما يؤدي عمليا إلى ردود أفعال عنيفة للغاية[2].

وإن إخراج السجناء المديانين للتسول اليومي لم تكن الغاية منه حصول هؤلاء على ما يتقوتون به من الصدقات، وإنما للحصول على بعض المال لتسديد ما تخلد بذمتهم من المال الذي تم دفعه بالنيابة عنهم من قبل الجهات الرسمية (الوالي – الوزير...) في نطاق ما يعرف بالمصالحة، فكان هذا الخروج الإجباري واليومي عقوبة أخرى تضاف إلى عقوبة السجن لما فيه من إذلال وامتهان بالغين، إذ أن المشهد كان مثيرا للشفقة والعطف: سجين في هيئة رثة يتحرك ببطئ شديد، يسحب الأغلال التي تكبله وتحت رقابة جندار أو صبي جندار نحو شوارع المدينة وميادينها وأسواقها وهو يطلق نداءات طلبا للغوث والمعونة[3]، هذه المبالغ التي يمكن أن يحصل عليها تسلم إلى السجان، ولم يكن من الأكيد أن يحصل السجين المتسول على المقدار المحدد له يوميا مما يعرضه لعقوبات بدنية شديدة[4].

وبسبب الخوف المستبد بالسجناء في حال عودتهم فارغي الايدي، ولعدم القدرة على مزيد تحمل الإذلال والعقاب البدني والسجن، فقد كان بعضهم يقدم على الانتحار في واضحة النهار أمام الملأ احتجاجا على وضع لا يطاق[5]، لكن هنا العنف قد يوجه إلى الأعوان المرافقين والتي يصل إلى حدّ القتل في بعض الحالات [6]. ولئن كان هذا الصنف مكرها على التسول فإن السجناء كانوا

1 - ابن بطوطة، الرحلة، ص111 / ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9 ص216 .

2 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهـرة، ج9 ص216. Bulthé(B) et. Janseen(Ch) ; *Les prisons et la contestation collective*, ,Bruxelles 1984, p 23-28.

3 - ليون الإفريقي،نفس المصدر، ج2 ص221 - المقريزي، الخطط، ج1 ص187.

4 70- ابن الصيرفي، نفس المصدر، ج2، ص221. –المقريزي، الخطط، ج 1، 187.

5 71- ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص 202-203.

6 72- نفس المصدر، ص290-291.

معرضين أيضا لاستغلال قوة عضلاتهم في أعمال السخرة إلى جانب العامة من الناس سواء في أشغال ذات مصلحة خاصة أو عامة، وهي ظاهرة معهودة في مصر منذ أقدم الأزمنة واستمر توظيفها خلال العهد المملوكي[1]، لكن لا بد من الإشارة أيضا إلى أن تشغيل المساجين لم يكن ظاهرة محلية وإنما استخدمت العديد من الأنظمة الحاكمة قوة عمل هؤلاء المجانية في شتى الأعمال الشاقة [2]، وليس من الضرورة القول بأنه جزء من منظومة العقاب. فشملت عمليات التسخير في عدة حالات كبار رجال الدولة وكبار الإداريين ممن زالت عنهم النعمة وأصبحوا محل نقمة السلطان وانتقامه[3]، فحينما أراد السلطان الناصر محمد تهيئة اسطبل بأحد المواضع بالقلعة ألزم الأسرى بالعمل ورسم لوالي القاهرة بتسخير العامة[4]. ومما تجدر الإشارة إليه أن السجناء الأسرى على ما يبدو أكثر عرضة لأعمال التسخير[5]، وربما كان ذلك في إطار المعاملة بالمثل[6]، وقد استنكر الفقيه الناقد ابن الحاج استخدام هذا الصنف من السجناء في أعمال ذات حساسية دينية مثال ذلك إزالة مواضع من مقبرة وعبثهم برمم الموتى المسلمين[7] مما يتسبب في تدنيس هذه المواضع ذات الحرمة. ولم يكن التسخير مقتصرا على الأسرى السجناء بل شمل أيضا السجناء من الأهالي، وكانت ظروف التسخير على غاية من القسوة خصوصا في الصيف إذ يشتغل المسخرون تحت شمس حارقة وحراسة مشددة فتستنزف قواهم إلى حد الإنهاك بل وإلى حد الموت إذ يلقى البعض حتفهم في صمت ودونما اكتراث[8]، في حين يستمر البقية في العمل دونما احتجاج.

1 - ضومط (أنطوان خليل)، نفس المرجع، ص225.

2 Belhamissi (M.), *Op.cit*,p35-39.

3- المقريزي، السلوك، ج3، ص495.

4 - نفس المصدر، ج2، ص251. –ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص11و120.

5 - المقريزي، السلوك، ج3، ص495

6- Belhamissi (A.),*Op.cit* , p.48-53

7 - ابن الحاج، المدخل، ج2، ص19-20.

8 - ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج9، ص119-120.

ولا تفيدنا المصادر بشيء عن امكانية تشغيل المساجين داخل السجون في اختصاصاتهم المهنية أو غيرها سواء لحساب الدولة أو لحسابهم الخاص كما كان الأمر في العهد الطولوني[1]، وقد أورد الصيرفي بهذا الشأن إشارة عابرة عن أحد السجناء حين وصفه بأنه " صار من فلاحي المقشرة "[2]، فهل يعني ذلك أن هذا السجن كان مجالا زراعيا يتم استغلاله من قبل السجناء الذين طالت إقامتهم أم أن الهيئة المشرفة على السجن كانت تشغلهم لدى أصحاب الأراضي الزراعية المجاورة للسجن لحسابها ؟. لا تسعفنا المصادر بإجابة عن ذلك. وإذا كان التسول الإجباري والسخرة جزءا من منظومة العقاب فإن التعذيب البدني كان يمارس على نطاق واسع في هذا العهد على غرار العهود السابقة. وكانت أساليبه على غاية من التنوع ويستخدم عند المصادرة أو للحصول على اعترافات ومعلومات مهمة خارج السجون، لكن السجن بدوره يمكن أن يتحول إلى فضاء لممارسة التعذيب الجسدي وهو ما كان يتعرض له على سبيل المثال السجناء المتسولون في حال عدم الحصول على المقدار المالي اليومي، ويمارس التعذيب داخل السجون على المساجين من رجال الدولة وكبار الإداريين والأعيان، ويكون هذا التعذيب بغاية إلحاق أكبر قدر من الأذى والألم بجسد السجين، لكن ما هو الحد الفاصل بين تعذيب مميت وآخر غير مميت ؟. إن العديد من حالات التعذيب في السجن تنتهي إلى وفاة السجين بين أيدي جلاديه[3]، أو بعد فترة من الزمن بسبب مضاعفات التعذيب على صحة السجين[4]، وداخل السجن أيضا يتم التخلص من الخصوم الخطرين على السلطان بالقتل غيلة أو التسميم دون ترك آثار بادية [5]، ويتم في فترات الاضطرابات الاجتماعية استخدام السجناء أكباش فداء لردع العامة وتهدئة

1 - حسن (إبراهيم حسن)، نفس المرجع، ص403.

2 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص202-203.

3 - ابن حجر، أنباء الغمر، ج2، ص96-97. –ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص174.

4 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص174.

5 - ابن حجر، نفس المصدر،ج2، ص401. -

الأوضاع، بالإقدام على إعدام بعضهم والإيهام بأنهم من مثيري الشغب[1]، وداخل السجون أيضا تنفذ أحكام إعدام في حق بعض كبار الأمراء المماليك في ظروف تكاد تكون سرية لتجنب الإثارة على عكس الكثير من الإعدامات التي تنفذ بحضور عامة الناس.

و مع ذلك فإن هذه الأوضاع البالغة السوء لا يجب أن تحجب عنا حالات وإن كانت محدودة تمتع فيها السجناء بظروف اعتقال خالية من القسوة وذلك بعدم الإساءة إليهم[2]، وتوفير حاجياتهم من الطعام والشراب،بل إن بعض السجناء كانوا محل تكريم وتبجيل خلال فترة سجنهم حتى أن هذا التكريم بلغ مداه " بخدمة – السجين – بالجواري الحسان" [3]، ومن البديهي القول أن هؤلاء السجناء كانوا قلة من كبار الأعيان وأفراد منهم كان سجنهم انفراديا، وبالرغم من لك فإن صورة السجن تبدو بالغة القتامة لكن ما قد يخفف إلى حد ما من معاناة السجين هو بعض الإحاطة والسند وأمل بالخلاص يوما ما من هذا الجحيم.

IV/ السجين بين " الإحاطة " والتمرد :

1) الإحاطة بالسجين :

لا نقصد بهذه الإحاطة وجود هيئات أو هياكل " متخصصة " تعنى بالسجناء والحالات المشابهة لكن المقصود من ذلك هو السند والرعاية وإن كانت محدودة من ذوي السجين، ومساعدات الأفراد المحسنين، ومؤسسة الوقف وحتى من السلطة المملوكية ذاتها .

---

1 - ابن طولون إعلام الورى لمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الكبرى،تحقيق عبد العظيم حامد خطاب، القاهرة 1973، ص15. – ابن حجر، نفس المصدر،ج1، ص420.

2 - المنصوري (بيبرس)، نفس المصدر، ص42.

3 - ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، بيروت 1970، ج2، ص46. – اليونيني، نفس المصدر، ج2، ص352. – العيني، عقد الجمان، ج2، ص107. – ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص101-102.

ومن أولى مظاهر هذه " الإحاطة " بالسجين هي الزيارة، والتي كانت "مقننة "، ونلمس ذلك من المرسوم السلطاني الصادر في (876هـ/1471م) والذي يمنع السجان من الحصول على رسوم الزيارة[1]، لكن المصادر لا تمكننا من تبين "نظام الزيارة " أي عدد الزيارات سواء كانت يومية أو أسبوعية أو شهرية، وعدد الأشخاص المسموح لهم بالزيارة، وصلتهم العائلية بالسجين وتوقيت الزيارة ...، وما يمكن قوله أن هذه الزيارة كانت تتم على الأقل مرة في الأسبوع إن لم يكن أكثر، فقد تضمن هذا المرسوم أمرا يمنع زوجة السجان من الحصول على مقدار مالي تتسلمه " ليلة كل جمعة كما كانت عادتها "[2] ومن المتوقع أن يكون الزوار المنتظمون من ذوي السجين، ويتضح ذلك من خلال النصح والإرشاد الذي يتوجه به السبكي للسجان بمنع "اختلاء السجين بزوجته"[3] لما في ذلك من حرج، وحين اعتقل الشريف حصن بن ثعلب بسجن الإسكندرية كان يتردد عليه في محبسه أحد الأشراف من "عدول الثغر" يقضي حاجاته ويؤانسه[4]، ويبدو أن الزيارة كانت أيضا مفتوحة للجميع بدون تحديد لصلة الزائر بالسجين، فكان أحد الرهبان النصارى يتردد على السجون يواسي السجناء ويقدم لهم ما أمكن من المساعدة فانتفعت به جميع الطوائف[5].

ولم تكن تتخذ إجراءات مشددة عند الزيارة إلا أن احتياطات رقابية كانت تتخذ في ظروف استثنائية فتضمن المرسوم الذي أصدره السلطان قلاوون عند توجهه لحرب الصلبيين بالشام وجوب" التحرز في أمر الداخل إلى الحبوس"[6]، وتمتد هذه " الإحاطة " لتشمل تقديم مواد إغاثة لسجناء مستجدين لا سند لهم في سجون العاصمة، يقدم هذه الإعانة الغذائية أهل البر والإحسان، فعندما وصلت أعداد كبيرة من الأسرى العربان من الصعيد وكلهم من النساء والصبيان في

1 ابن الصيرفي، نفس المصدر، (876ه) ص321-322

2 نفس المصدر، ص321-322

3 السبكي، معيد النعم، ص142.

4 اليونيني، نفس المصدر، ج2 ص323 .4

5 نفس المصدر، ج2 ص72

6 حماده (محمد ماهر)، نفس المرجع، عدد 6 ص204

حالة يرثى لها ووقع " تعويقهم " قبل توزيعهم على السجون، " اشترى لهم بعض الناس إردبي فول ... ورماه لهم في الحين فأكلوا من شدة الجوع ثم شرع أهل الخير في الصدقة عليهم بقدر حالهم وداموا على ذلك إلى يومنا هذا"[1]. كما أن السلطة المملوكية نفسها تجد نفسها مضطرة لتقديم مواد الإغاثة الغذائية في فترات المجاعات الطاحنة التي ضربت السلطنة في العديد من المناسبات بفتح الإهراءات السلطانية، وتوزيع الفقراء على الأغنياء، وكان نزلاء السجون من ضمن الفئات المستفيدة من هذا الإجراء، ففي الأزمة الغذائية لأواخر القرن 8هـ/14م " ابتدأ السلطان بعمل الخبز الذي يفرق في الفقراء وهو عشرون إردبا من القمح، وتولى – الوالي – توزيعه فعمت فقراء القاهرة ومصر وأهل السجون وسكان القرافة "[2].

وإلى جانب هذه المساعدات الطارئة، فإن مؤسسة الأوقاف والتي كان لها دور حيوي للغاية في تقديم العون والمساعدة للشرائح الاجتماعية المحتاجة مثل الأرامل والأيتام والأسرى، فإننا نلمس رغم قلة المعطيات المتعلقة بدورها في الإحاطة بالسجناء أو أصناف منهم مثل المديانين وفاقدي السند أنهم كانوا ضمن اهتمامات هذه المؤسسة، إذ نصت بعض وثائق ووصايا الوقف على تخصيص جزء من الريع للإنفاق على السجناء، فتضمنت وثيقة وقف مدرسة السلطان حسن أوجه إنفاق مداخيل الريع من ذلك "خلاص المسجونين وفكاك أسرى المسلمين"[3]، كما نصت بعض الأوقاف الإنفاق من ريعها على صنف خاص من السجناء وهم " المحبوسون من الشرع "، ولم يبين المصدر وجوه الإنفاق هذه وسبب هذا التخصيص[4] .

---

1 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص45.

2 - المقريزي، السلوك، ج3، ص853-854.

3 - ابن حبيب (الحسن بن علي)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب – القاهرة – 1976، ج3 ص418.

4- ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج2 ص 98412

كما كرس بعض الصلحاء من المسلمين ورهبان من النصارى جهودهم لتقديم المعونة للمحتاجين من السجناء وخصوصا سداد ديون المدياني منه. ويبدو أن هذا الصنف من السجناء كان ظاهرة بارزة حتى أن السلطة المملوكية نفسها كانت تأمر في فترات الغلاء بعدم " الحبس على الديون " و" إخلاء السجون منهم "، لكن جهود هؤلاء المتطوعين والإجراءات السلطانية بخصوص سجناء الديون تظل محدودة الأثر، فالسواد الأعظم يظل قابعا في السجون على أمل الخروج والخلاص بأي طريقة كانت.

2) الإفراج عن السجين :

يقع الإفراج عن السجين عادة في إطار ما يمكن تسميته "بالعفو السلطاني" وهو المصطلح الأكثر ملائمة وتناسبا مع طبيعة السلطة عصرئذ باعتبار أن هذا العفو هو منحة من موقع القوة والاقتدار، إذ أن السلطان وحده هو القادر على منح العفو، ومن أبرز حالات الإفراج ما يهم الحالات ذات الطابع السياسي فيتم الإفراج عن أفراد أو جماعات من الأمراء المماليك بمناسبة تولي سلطان جديد الحكم، كما يتم التدخل لفائدتهم أو بعد مضي فترة طويلة على سجنهم، أو إذا لم تعد هنالك خشية من إطلاق سراحهم. ويتبع هذا الإفراج عادة بإجراءات إضافية تأخذ اتجاهين متضادين كأن يحال المفرج عنه إلى التقاعد فيصبح "بطالا" ويحكم عليه بالنفي في أحد مدن أو أقاليم السلطنة إن اقتضى الحال ذلك [1] وفي المقابل تتم ترقية المفرج عنهم بالإنعام عليه "بالإمريات " ومنحهم الاقطاعات "توددا إليهم" أو "خوفا من شرهم"[2].

وفي حالات أخرى يتم هذا الإفراج نتيجة الضغط المعنوي بالنظر إلى المكانة التي يحتلها السجين في مختلف أوساط السكان فقد اضطر السلطان

1 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3 ص453 / ابن حجر، أنباء الغمر، ج2 ص19.

2 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص15 وجزء 8 ص238،_ حوادث الدهور ج1 ص73.

برقوق إلى إطلاق سراح الخليفة العباسي الذي اتهمه بالتآمر ضده[1] بسبب الوقع السيئ لهذا الاعتقال وكون السلطان نفسه يستمد شرعية حكمه - ولو شكليا - من مؤسسة الخلافة.

كما يمكن أن يستجيب السلطان لضغط بعض الفئات الهامشية من السكان نظرا لخطورتهم على الأوضاع الأمنية داخل المدينة، ونقصد بذلك فئة الحرافيش[2]، فحين أعتقل أحد الأمراء المماليك الذي اشتهر بعطفه على هذه الفئة تجمهر عدد كبير منهم حول القلعة مطالبين السلطان بالإفراج عنه وهو ما تم فعلا[3].

ومن الأساليب الشائعة في هذا العهد استخدام الشفاعة لتخفيف حكم أو إخلاء سبيل السجين وهذه الوساطة يقوم بها أشخاص متنفذون في جهاز الدولة[4]، أولهم مكانة خاصة لدى السلطان مثل العلماء والصلحاء[5]، وكثيرا ما تسفر عن نتيجة إيجابية. وباعتبار أن دولة المماليك كانت تمارس سياسة "قارة" هي سياسة المصادرة للثروات والأموال، لذلك كان السجناء المصادرون يسعون إلى الخلاص من سجنهم بدفع " البراطيل " أي الرشاوى والتي كان لها مفعول السحر فتصدر الأوامر بالإفراج[6].

ويحصل الإفراج بمناسبة حدث " سعيد " كأن يكون" رؤيا[7] أو شفاء من مرض[8]، ويحصل أن يكون هذا الإفراج مشروطا في بعض الحالات لكن دون متابعة[9].

---

1 - ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج1 ص188 .

2 - النجار (محمد رجب) حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، عالم المعرفة، الكويت 1981 (العدد 45) ص 178-188 .

3 - بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار، دار صادر بيروت 1970 ص43-44.

4 - الصيرفي، أنباء الهصر، ص122 وص417 / اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1 ص168.

5 - ابن الصيرفي، أنباء الهصر (877ه) ص481 .

6 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص221-222 / ابن تغري بردي، حوادث الدهور ج1 ص73.

7 - اليونيني، ذيل مرآة الزمان ج2 ص480.

8 - ابن طولون، نفس المصدر، (حوادث 917هـ) ص 356.

9- ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص404. 110

و سعيا للخروج من السجن فإن الوسائل السحرية تكون ملجأ يتوسل بها أولئك الذين لهم من يقبع بين جدران السجن ويعكس ذلك الصورة القاتمة عن السجن في أذهان عامة الناس والعقلية التي سادت قطاعات واسعة من السكان لاسيما النساء باعتقادهن في خواص سحرية وقوة تأثير يمكن أن تسهل عملية خروج السجين، فكان نساء القاهرة يعتقدن "أنه إذا بخّر المسجون - في عاشوراء – خرج من سجنه "[1].

وأمام انسداد السبل يصبح العنف والتمرد وأعمال الحيلة الوسيلة التي يلجأ إليها السجناء للانعتاق.

3) بين الهروب واقتحام السجون :

بالنظر إلى أوضاع السجون التي لا تطاق فإن الخلاص يصبح حلما يراود نزلائها ويتحينون الفرصة لتحقيق ذلك بصفة فردية أو جماعية، ويعد الانفلات الأمني في فترات الصراع المسلح بين مختلف فئات المماليك –، وهو من الظواهر المزمنة خلال هذا العهد الطويل – من الفرص الذهبية للفرار، وبرزت هذه الظاهرة بالخصوص في أواخر ق 8هـ /14م بصفة لافتة، إذ اتسمت بالنزاع المسلح التركي – الجركسي نتيجة شلل أجهزة الحكم وتلاشي سلطات الوالي في مصر والقاهرة صارت المدينة شاغرة من الحكام وصار الناس هملا[2]، حينذاك استغل سجناء خزانة شمائل هذا الفراغ " فكسروا قيودهم وخرجوا ... هاربين "[3]. وشملت هذه الحركة باقي سجون المدينة بعد أن بلغتهم أخبار هذه الحادثة [4]، ولم يكن هذا الفرار الجماعي بالحادثة المعزولة إذ تكررت

---

1 - ابن الحاج، المدخل، ج1 ص291 .

2 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ج1 ص208 ./ المقريزي، السلوك،، ج3،ص613 .

3 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ج1 ص208 .

4 - ابن صصري (محمد بن محمد)، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم بريز، بركلي 1963 ص133.

مثيلاتها بدمشق[1] خلال هذه الفترة لكن مع ذلك فإنها من الحالات القليلة من حيث حجمها.

وتكون ظروف السجن مدعاة إلى اندلاع تحركات عنيفة وعفوية هدفها الدفاع عن وجود صار مهددا حين اندفع المساجين إلى مهاجمة السجان وقتله وتحطيم أبواب السجن والهروب جماعيا، وعلل صبي السجن حركة التمرد هذه بأن " السجناء ظلوا عدة أيام بدون طعام فضجروا وهاجوا وفعلوا ما فعلوا "[2]. كما سجلت محاولات فرار من قبل السجناء المتسولين عند خروجهم اليومي إلى شوارع المدينة وأسواقها[3]، وبعضها كان مخططا له[4].

وكان الفرار من سجون القلاع والثغور يتطلب التخطيط المتأني لصعوبة تنفيذ هذه العمليات في مثل هذه المنشآت العسكرية، ومع ذلك تتم بعض هذه العمليات نتيجة معرفة السجين أو السجناء بمسالك القلعة حتى السرية منها، وتتطلب عمليات الفرار تعاونا أو تواطؤا مع أطراف خارجية ذات صلة بالسجين وتهيئة كل متطلباتها وذلك بتسريب أدوات وآلات لكسر القيود أو إحداث ثقوب في الجدار المؤدي إلى خارج السجن[5]، وكانت بعض هذه العمليات على غاية من الجرأة والإتقان والدقة[6]، ونجاحها كان يتوقف في عديد الحالات على تواطؤ بعض أعوان السجن[7]. ومن البديهي القول أن هذه العمليات تهم بالأساس سجناء من فئة المماليك وكبار أمراء العربان والأشراف المناوئين للسلطان أو للسلطة المملوكية، ويعد الفرار تحديا للسلطة الحاكمة وانتقاصا من

---

1 - نفس المصدر، ص133 .

2 - العيني، عقد الجمان، (حوادث850ه) ص656.

3 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص202-203 وص290-291.

4 - نفس المصدر، ص340-346 وص431

5- 119- ابن حجر، أنباء الغمر، ج2 (806ه) ص268 وص323-324. / العيني، عقد الجمان، ص696-697 / ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص114

6 - المقريزي، السلوك، ج3، (795ه) ص491.

7 - ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2 ص447 وص498-499.

هيبتها لذلك فإنها لا تتهاون في تعقب الفارين بكل صرامة وحزم ومعاقبة المتواطئين بقسوة[1]، بل ورصد مكافئات مالية لمن يساعد على القبض عليهم متى تطلبت المصلحة ذلك[2].

على أن خلاص السجناء قد يأتي أيضا بمهاجمة السجن من الخارج من قبل مجموعات من المماليك وذلك في أجواء النزاعات المسلحة، إذ أن "الخشداشية" تملي عليهم الوقوف إلى جانب زملائهم المسجونين لتخليصهم من الاعتقال والحبس[3]. وتعرضت السجون في فترات الهبات الشعبية وخصوصا عند ثورات العربان التي وصلت تهديداتها إلى البلدان الكبيرة وعواصم الأقاليم، فسجلت حالات اقتحام للسجون وإخلاء لسبيل السجناء[4] فهل هو إدراك منهم أن هذه السجون ترمز للظلم والاستبداد المملوكي، وأن سجنائها هم ضحايا لسلطة أجنبية مستبدة ؟ أم هو سعي لكسب دعم السجناء وتجنيدهم في مواجهة السلطة المملوكية على اعتبار وأنهم لن يخسروا أي شيء سوى قيودهم لذلك كانت تتخذ في ظروف استثنائية إجراءات حراسة مشددة[5] للحيلولة دون التخطيط والتآمر للهرب من السجن.

كما كانت السلطة المملوكية تقوم بإعادة توزيع السجناء من المماليك بين العديد من سجون القلاع[6]، ويبدو أنه توجه سياسي ثابت دأبت عليه السلطة المملوكية في مختلف مراحل حكمها.

---

1 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، (876ه) ص340-341. / ابن حجر، أنباء الغمر، ج2 ص628 و268.. / ابن طولون، نفس المصدر، ص40.

2 123- ابن الصيرفي، نفس المصدر، ص214. –ابن طولون، إعلام الورى، ص173.

3 124- المنصوري (بيبرس)، التحفة الملوكية، ص143 .

4 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8 ص149-150.

5 126- حماده (محمد ماهر)، نفس المرجع، ص240 .

6 -: العيني، نفس المصدر، ص545 / ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص18 / ابن الصيرفي، نفس المصدر، ج2 ص162-163 .

الخاتمة:

يبدو السجن في العهد المملوكي ومن خلال ما توفر من معطيات أحد الأجهزة الأساسية للمراقبة والعقاب والردع وحتى الثأر والانتقام وجزءا من منظومة عقاب متنوعة الأساليب وارتبطت ارتباطا وثيقا بنظام الإقطاع العسكري المملوكي باعتبارها أحد مصادر الجباية. وكانت هذه السجون جزءا لا ينفصل عن الأوضاع السياسية والقضائية والاجتماعية تعكس إلى حد بعيد صورة نظام الحكم القائم وملامح المجتمع عصرئذ، فقد كانت بحق جحيما أرضيا يلاقي داخله السجناء مختلف ضروب العذاب والألم مما يؤدي إلى ردود فعل متباينة تتراوح ما بين احتجاج صامت وأعمال تمرد فردية وجماعية. هذه الأوضاع لم تنفرد بها سجون العهد المملوكي بل يمكن القول أنها متماثلة إلى حد بعيد في بلدان العالم الإسلامي وأوروبا المتوسطية. وهذه الأوضاع ستبقى دون تغيير جوهري حتى العصر الحديث.

المحور الثالث

التنـوع الاجتماعي

أشراف مصر والشام في العهد المملوكي (1250 م -1517م)*

المقدمة:

رغم النزعة المساواتية للإسلام وإنكاره لأي تفاوت بين أفراد المجتمع المسلم - إذا ما استثنينا التفاوت في درجة التقوى والقيام بالعمل الصالح إلا أن ذلك لم يمنع وجود فئة اجتماعية متميزة عن غيرها من الفئات ألا وهي فئة الأشراف وبالرغم من أن هذا الوجود يعود إلى الفترة ما قبل الإسلامية في الجزيرة العربية ظل قائما حتى أيامنا هذه في العديد من البلاد العربية والإسلامية غير أن مفهوم الشرف لم يبق ثابتا خلال هذه العهود الطويلة فقد شهد تطورات عديدة جعلته يضيق أو يتسع تحت ضغط عوامل عديدة لعل أهمها العوامل السياسية.

وبناء على ذلك لنا أن نتساءل عن هذا التطور الذي طرأ على مفهوم الشرف في العهد المملوكي بمصر والشام. وما إذا كان الإشراف بهذين الإقليمين من السلطنة يعدون بحق فئة متجانسة باعتبار وحدة النسب المفترض لأعضائها؟ وأخيرا ما هو الوزن السياسي والمكانة الاجتماعية لهذه الفئة في الإطار السياسي والاجتماعي المملوكي؟

I- من هم الأشراف بمصر والشام في العهد المملوكي :

1) تطور مفهوم الشرف في العهود السابقة لحكم المماليك:

إذا كان المقصود بالإشراف في الفترة ما قبل الإسلامية في جزيرة العرب هم شيوخ ورؤساء القبائل أي فئة السادة في النظام القبلي فقد استمر هذا المفهوم قائما إلى أن اتخذ الخليفة عمر بن الخطاب سنة 20 هـ إجراءات جديدة تتعلق بتوزيع العطاء بناء على مقياس السابقة في الإسلام والمشاركة في

معارك الفتح في كل من العراق والشام مما أدى عمليا إلى تحول في مفهوم الشرف فأصبح يدل على أولئك الذين كانوا ينالون شرف العطاء[1] وخلال العهد الأموي نلاحظ عودة إلى مفهوم الشرف ما قبل الإسلامي أي الاعتماد مجددا على رؤساء القبائل كأحد الدعامات الأساسية لهذه الخلافة، مقابل دلك فان العباسيين سنة (132 هـ - 655 هـ/ 750 – 1256 م) سيتجهون إلى حصر هذا المفهوم في مجموعة محدودة ومحددة وهي: آل البيت النبوي وقد كشف العباسيون عن دلك منذ وقت مبكر فتضمنت خطبة أبي العباس السفاح في الكوفة هدا التوجه الجديد[2] وقام بتوظيف عدد من الآيات قرآنية لدعم وتأكيد هذا التوجيه[3] والدي تضمن في آن واحد تحديدا لمفهوم آل البيت والذي قصد به الهاشميين دون سواهم كما لم يقصره على العلويين كما يذهب إلى ذلك الشيعة. فالأهداف السياسية إذا لم تكن خافية. وذهب العباسيون مدى ابعد في تجسيم هدا المفهوم بإنشاء نقابة خاصة بالإشراف الطالبيين[4] دون سواهم على أن الخلافة الفاطمية التي انتقلت من افريقية إلى مصر (358 هـ - 567 هـ/969 م -1171م) سترد على ذلك بحصر مفهوم الشرف في سلالة الحسن والحسين وإقصاء غيرهم من الهاشميين ومن ضمنهم العباسيون وبالتالي تجريد هؤلاء من كل شرعية واعتبارهم مغتصبين للخلافة مثلهم مثل الأمويين فيذكر القلقشندي أن المقصود بالإشراف في مصر زمن الفاطميين هم "ولد علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم"[5].

---

* نشر هذا العمل في الملتقى الدولي الثالث بعنوان "النسب والشرف في العالم العربي الإسلامي والبلدان المتوسطية، تونس ديسمبر 2004، نشر المجلّة التونسية للعلوم الاجتماعية، العدد 133، سنة 2007.

1 - هشام جعيط، الفتنة، ترجمة خليل احمد خليل، دار الطليعة بيروت ص 70

2 - الطبري (محمد ابن جرير)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم القاهرة (1960-1969) ج 7 ص 425 -426.

3 - الأحزاب. آية 33/الشعراء. آية 26

4 - دائرة المعارؤف الإسلامية، المجلد 13.مقال :شريف –ص 272/ - *E.I*(2) ; vol lX ; Article: Sharif, p340-349

5 - القلقشندي (أبو العباس احمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 14 جزء المطبعة الأميرية – القاهرة 1913- ج 4 ص 37.

فانحصر بدلك مفهوم الشرف في المستوى الرسمي على سلالة الحسن والحسين وشكل الإشراف العلويون في ظل هذه الخلافة نخبة دينية واجتماعية متنفذة باعتبارهم أصحاب الدين والدولة.

على أن انكماش التشيع مند القرن 5 هـ / 11 م والذي قابله نهوض سني تجلى خاصة في انقراض الخلافة الفاطمية على يد الأيوبيين والعودة الرسمية إلى المذهب السني ومحاربة التشيع[1] كان من نتائجه المباشرة أيضا إعادة النظر في مفهوم الشرف وباعتبار أن العهد المملوكي في مصر والشام هو امتداد في العديد من أوجهه للعهد الأيوبي ومن ضمنه السياسة المنتهجة تجاه الإشراف فما هو مضمون هذه السياسة؟

2) أشراف العهد المملوكي:

بالعودة إلى مصادر هدا العهد والتي تعرضت لهدا المفهوم ولفئة الإشراف فإننا نجد تحديدا "رسميا" لدلك بالنسبة إلى مصر والشام، فيجدد السيوطي المنتمين لهده الفئة من خلال تعريف نقابة الأشراف إذ يذكر "أن اسم الشريف كان يطلق في الصدر الأول على كل أهل البيت سواء كان حسنيا أو حسينيا أو علوية من درية محمد بن الحنيفة وغيره من أولاد علي بن أبي طالب أو جعفريا أو عقليا أو عباسيا... فلما ولي الفاطميون بمصر قصروا اسم الشريف على ذرية الحسن والحسين فقط فاستمر بمصر الآن"[2] ويضيف في موضع آخر من الرسالة الزيتية "أن عرف مصر... أن الشريف لقب لكل

---

1 - محمد الرحيل غرايبة، جهود صلاح الدين في بعث المذهب السني في مصر والشام (مقال). المحلة العربية للثقافة، السنة 14. العدد 26 سنة 1994. ص 187-205.

2 - السيوطي (جلال الدين)، الرسالة الزينبية في العجاجة الزينبية، مخطوط رقم 20074 المكتبة الوطنية، تونس. ص54 ظ و

حسني أو حسيني"[1] لذلك فان ذرية زينب بنت الحسين على سبيل المثال لا يدخلون " على مقتضى هذا العرف"[2].

إلا أن المعطيات المتعلقة بتحديد هده الفئة لا تجعل الأمر بالبساطة التي تبدو من خلال ما ذكره السيوطي فهو نفسه يناقش هده المسألة بمناسبة معالجته في"الرسالة الزينبية" مسألة وقف بركة الحبش وتحديد الجهات التي يحق لها أن تستفيد من ريع هدا الوقف فيقسم السيوطي في هدا الإطار الأشراف إلى ثلاث مستويات أو دوائر: دائرة أولى كبيرة وتشمل ما اسماهم بأصحاب الشرف العام وهم آل البيت عموما ثم دائرة اقل اتساعا يمكن نعتها بالدائرة الوسطى وتشمل مانعتهم بأصحاب الشرف الخاص ويسميه أيضا الشرف الخاص بالذرية ومن ضمن المنتمين لهده المجموعة أبناء السلالة الزينية المعنيين بتاليف هذه الرسالة أما الدائرة الأصغر وتضم الصفوة أو النخبة من أشراف آل البيت وينعتهم السيوطي بأصحاب الشرف الأخص وهم درية الحسن والحسين لا غير[3].

ومن خلال هدا التقسيم الثلاثي يبدو أن الشرف له درجات إذ تتضاءل قيمته كلما ابتعدنا عن الدائرة الأولى في اتجاه الدائرة الثالثة وبذلك نكون إزاء ثلاثة أصناف من الأشراف. وهذا التقسيم الثلاثي نجد شبيها به لدى المقريزي عند تعرضه لنفس المسألة أي قضية وقف بركة الحبش فيصنف الأشراف في مصر إلى صنفين: الصنف الأول وهم الأشراف الأباعد وهم الأشراف الطالبيون ويشير إلى أن عدد هؤلاء كبير ويمثلون الأغلبية العددية لفئة الأشراف أما الصنف الثاني وهم الأقلية لكنهم صفوة الأشراف فهم الأشراف الأقارب من درية الحسن والحسين[4] ".

---

1 - المصدر نفسه، ص 55 و–ظ

2 - المصدر نفسه، ص 55 ظ

3 - المصدر نفسه، ص 55. أوظ

4 - المقريزي (تقي الدين احمد بن علي)، المواعظ والإعتبار في دكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت،ج 2 ص 152-153.

وما نستنتجه من هذا التقسيم سواء الثلاثي أو الثنائي أن الأشراف بمصر هم الطالبيون إجمالا وهو ما كان سائدا في ظل الخلافة العباسية ببغداد لكن التأثير الفاطمي يبدو واضحا من خلال تمييز العلويين من سلاله الحسن والحسين إذ هم يتقدمون على غيرهم في درجة الشرف. والحقيقة أن الواقع القائم عصرئذ يؤيد هدا الاتجاه ففي مصر مقر السلطان المملوكي نجد أن أفرادا ومجموعات تنتسب إلى آل البيت بمفهومه الواسع وكانوا يعدون من الأشراف ومثال دلك الأشراف الجعافرة المقيمين بالصعيد وقد ورد ذكرهم في العهد الفاطمي[1] وفي العهدين الأيوبي والمملوكي[2] وكذلك العهد العثماني[3]. كما أن أشخاصا عباسيين كانوا ينتسبون إلى الأشراف في مصر العهد المملوكي[4]. وخارج مصر وفي إقليم حلب شمال بلاد الشام مفهوم الشرف شاملا لكل الهاشميين دون استثناء ودون تمييز بين علويين أو غير علويين وقد نبه إلى ذلك السخاوي عند ترجمته لأحد الأشراف العباسيين المعروف "بالشريف النشابي" جريا على مصطلح. تلك الناحية في عدم تخصيص الشرف ببني فاطمة بل يطلقونه لبني العباس بل في سائر بني هاشم[5]. ومن خلال هذا المعطى يمكن القول أن مصر وبلاد الشام تتفقان على أن الأشراف مصنفون إلى درجات وأن ذرية الحسن والحسين يمثلون نخبة الأشراف أما البقية فيأتون في المقام الثاني في حين أن البلاد الحلبية ظلت محتفظة بالتصنيف الذي أقره العباسيون منذ إحداث منصب النقيب حوالي القرن 3 هـ / 9 م رغم أن هذه المنطقة خضعت لحكم إمارات شيعية مثل الحمدانيين.

---

1 - المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق، عبد الحميد عابدين. دار المعرفة العلمية الإسكندرية 1989 ص 33-40.

2 - المقريزي، السلوك لمعرفة الدول الملوك، ج 1، ص 213 ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، نشر دار الآفاق الجديدة – بيروت ص 19

3 - M.Winter ; the Ashraf and Naqabat al –Ashraf in Egypt in Ottoman and modern times, *Asian and African studies*, 19, (1985) P 20.21.

4 - اليوتبي (قطب الدين أبو الفضل)، ذيل مرآة الزمان، ج 2 ص 537.

5 - السخاوي (شمس الدين محمد)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج 6 ترجمة رقم 248 ص73.

ومع ذلك فهل كان الأشراف يشكلون فئة واحدة متجانسة أم أن هذه الوحدة المفترضة كانت فقط وحدة ظاهرية لا غير وأنها كانت تخفي تنوعا وتباينات تشق هذه الفئة؟

II – هل الأشراف فئة متجانسة ؟

1) مظاهر التجانس:

يجمع بين الأشراف عدد من الروابط المشتركة تجعل منهم فئة متجانسة تتميز عن غيرها من الفئات الاجتماعية المكونة للمجتمع المملوكي وأهم هذه الروابط:

أ- وحدة الانتماء السلالي المفترض: إذ تجمع بين أفراد هذه المجموعة رابطة الدم باعتبار انتمائهم لآل البيت سواء في مفهومه الضيق أو الواسع. فهم فئة تقوم على ما يمكن تسميته بنبالة الدم " وما يترتب عن ذلك من مكانة خاصة في مجتمع يقوم في بنيانه على ما هو ديني-مقدس وينجر عن ذلك عديد الإمتيازات والمنافع سواء أكانت مادية أم معنوية. وأولى هذه الإمتيازات اختصاصهم دون غيرهم بلقب "الشريف" والشرف في معناه اللغوي، العلو والارتفاع[1]. وبما أن الشرف لا يتأتى إلا من جهة الآباء حسب بعض الآراء الفقهية فان أبنائها وبنات الشريفات من آباء لا ينتمون إلى هذه الفئة لذلك فهم مستبعدون من "شرف الانتماء" وهو ما يجعل هذه الفئة شبه مغلقة.

ولحفظ مكانة الشريفات وعدم الحط من شأنهنّ اشترط الفقهاء الكفاءة في الزواج من بنات الأشراف[2] وتذكر المصادر العثمانية أن الأشراف الجعافرة

1 - ابن منظور، لسان العرب، مادة: شرف .

2 - دائرة المعارف الإسلامية، ج13ص347/275 *E.I2*, vol IXp

- يوسف جميل نعيسه، مجتمع مدينة دمشق في العهد العثماني، جزءان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر- دمشق 1986 – ج 2 ص 449.

بصعيد مصر ظلوا يأنفون من تزويج بناتهم من غير الأشراف[1] مقابل ذلك لا يحسن بأي كان من المسلمين أن يزوج ابنته من شريف إذا طلبها للزواج[2].

الوجه الآخر لهذا التجانس يتمثل في المنافع المادية التي يحصل عليها الأشراف من مداخيل الأوقاف المحبسه عليهم سواء من قبل السلطة الحاكمة أو من يهبون عقارات لفائدة هذه الفئة لتمكينها من موارد رزق كريم مثال ذلك وقف بركة الحبش بمصر والقاهرة الخاص بهم[3] وغير ذلك من الأوقاف المنتشرة في إرجاء السلطنة[4] ومما يدل على ضخامة الأوقاف المحبسة على هذه الفئة وجود ناظر لأوقاف الأشراف[5]. وكانت لبعض الإجراءات المتخذة لصالحهم أثرها البالغ في تمييز هذه الفئة عن غيرها وذلك من خلال علامات مادية على الملابس ففي سنة 773 هـ/1371 في عهد السلطان الأشرف شعبان حين أصدر مرسوما يقضي بأن يجعل الأشراف شارة خضراء اللون على عمائمهم[6] حتى لا يخطئهم الأعين وان يكونوا محل تبجيل وتوقير. وقد أثار هذا المرسوم مواقف متباينة ما بين متحمس لهذا الإجراء الذي طال انتظاره حسب ابن تغري بردي[7] وما بين الاستحسان واعتباره بدعة حسنة لكنها غير ملزمة[8] في حين استهجنها البعض الآخر واعتبروها إجراءا لا يزيد أو ينقص من قيمة أفراد هذه الفئة وانه إجراء يدخل ضمن الدعاية السياسية لهذا السلطان الذي كان مركزه غير مستقر نتيجة الصراع المحتد ما بين المماليك الأتراك والمماليك

---

1 - Winter (M) ; *o p cit.* p20.

2 - دائرة المعارف الإسلامية، ج13 - ص *E.I*(2), vol IXp347/275

3 - تتعرض الرسالة الزينبية قضية هذا الوقف كذلك المقريزي، الخطط..ج2 ص 152-155 .

Cahen (CL.) .Ragib (Y.) et Taher(M.A.) ; L achat et le wakf d'un grand domaine Egyptien par le vizir fatimide Talai.b. Ruzzik. *An.Isl.*XIV-1978.pp 113-115/

4 - علي السيد علي، القدس في العهد المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع- القاهرة 1986 ص79.

5 - ابن شاهين (غرس الدين خليل)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك، المطبعة الجمهورية باريس 1894 إعادة نشر دار العرب للبستاني – لبنان 1988 ص 109

6 - دائرة المعارف الإسلامية، ج13 -ص273-274

7 - ابن تعري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 11، ص 56-57

8 - الرسالة الزينية، ص55 -56

الجراكسة الـذين سـيثبون إلى الحكـم ويبـدأ العهـد الثـاني لحكـم المماليـك هـو عهـد المماليك الجراكسة.

وعلى كل فان هذه الشارة الخضراء أضحت علامـة مميـزة لـلأشراف منـذ ذلـك الحين وسعى العديد ممن ليسوا من هذه الفئة للحصول عليها للاسـتفادة مـما يمكـن أن تمنحه من منافع لحاملها. كما أن العثمانيين من جهة أخرى أبقوا على هـذا الإجـراء ساري المفعول في عهدهم[1].

غـير أن أهـم مظـاهر التجـانس هـو تمتـع الأشراف بهيكـل تنظيمـي يـؤطرهم ويشرف عليهم وينظر في مشاغلهم هو بلا شك أهـم رابـط يجمـع بيـنهم فهـم الفئـة الاجتماعية الوحيدة الذين توفرت لهم نقابة وذلك منذ فـترة بعيـدة[2] وهـو مـا سـنراه لاحقا – جعلتهم يعون بأنهم فئة متميزة بحق عن غيرها من الفئات الاجتماعية.

وإذا كانت هذه هي أهم مظاهر التجانس إلا أننا لا نعدم من خـلال مـا تـوفر معطيات وجود تنوع كبير داخل هذه الفئة وجود تباينات عديدة تشقهم مما يجعـل وحدتهم هشة إلى حد بعيد. فما هي ابرز مظـاهر التبـاين والتفـاوت في صـلب هـذه الشريحة السكانية؟

2) التباينات داخل فئة الأشراف:

هذه التباينات عديدة متنوعة ولعـل أهمهـا تلـك التباينـات الدينيـة المذهبيـة والتباينات الاجتماعية والمهنية وتباينات بين أشراف محليين وأشراف وافدين فضلا عـن تلك التباينات التـي أشرنـا إليهـا والمتعلقـة بـدرجات أو مسـتويات الشرف بـين أشراف أقارب وأشراف أباعد.

1 - يوسف جميل نعيسه، المرجع نفسه، ج 2 ص 450

2 - دائرة المعارف الإسلامية، ج 13 ص270/E.I2. vol IX p344

أ- التباينات الدينية – المذهبية:

نتبين من خلال المعطيات المتوفرة توزع الأشراف على المذهبين الشيعي والسني. ولاعتبارات تاريخية – سياسية ارتبط العلويون إجمالا بالمذهب الشيعي بمختلف فروعه في مواجهة خصومهم الأمويين ثم العباسيين، إلا أن خريطة التوزع المذهبي في المشرق وخصوصا في مصر والشام قد طرأ عليها الكثير من التبدل والتغير خصوصا منذ القرن الخامس هـ. فقد كان انكماش التشيع واضحا مع انهيار الخلافة الفاطمية في مصر والجهود التي بذلتها أنظمة الحكم السنية (السلاجقة، الزنكيون، الأيوبيون ثم المماليك) في مكافحة التشيع بالمشرق حتى أضحى تهمة وقد أشار المقريزي الى ظاهرة اتهام الأشراف بالتشيع منذ العهد الأيوبي ففي معرض حديثه عن المناسبات التي يحتفل بها الشيعة يذكر حادثة وقعت للشاعر أبي الحسن الجزار مع ناظر الأهراء المدعو الشريف شهاب الدين إذ يقول معرضا به:

قل لشهاب الدين ذي الفضل * والسيد بن السيد بن السيد

أقسم بالفرد العلي الصمد * إن لم يبادر لنجاز موعدي

لأحضرن للهناء في غد * مكحل العينين مخضوب اليد

ويعلق المقريزي بالقول " بأن الشاعر يعرض للشريف بما يرمى به الأشراف من التشيع[1] " كما ظل الأشراف الشيعة محل حذر وريبة وشك لا من قبل السلطة المملوكية فقط بل من قبل المؤرخين المعاصرين لذلك العهد بل إن تهمة الرفض كانت من أقسى التهم التي يمكن أن يرمي بها الشخص[2]، رغم ذلك فان التشيع ظل قائما ببلاد الشام خاصة في البلاد الحلبيه ورغم أننا لا نعرف على وجه الدقة أعداد هؤلاء، فان تولي أفراد من الأسر العريقة لمنصب النقيب

---

1 - المقريزي، الخطط، ج 1 ص 490.

2 - السخاوي، الضوء اللامع، ج ص 156 ترجمة رقم 371/ بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج 2 ص157 وج 4 ص 166/ ابن تغري يردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين نشر عالم الكتب. ج 2 ص 567.

وتوارثه لعدة أجيال[1] يعني أن عدد منظوريهم من الأشراف الشيعة وتحديدا الشيعة الأثني عشرية كان يضاهي إن لم يكن يفوق عدد الأشراف السنة بل ان أسرا من هذا المذهب الشيعي ظلت متمسكة بمذهبها في العهد العثماني مثل أسرة آل المرتضى[2]. مقابل ذلك لا تسعفنا المصادر عن أسر شريفة على المذهب الشيعي الزيدي، كانت مستقرة بصورة دائمة سواء ببلاد الشام أو مصر ويبدو وأن هذا المذهب الذي كان متركزا بالخصوص ببلاد اليمن لم تكن له على ما يبد وامتدادات بشرية في الإقليمين المذكورين ذات قيمة.

وإذا كان الأشراف الشيعة لا زالوا يمثلون بعض الثقل – لكنه في تناقص- فان الأمر يبدو مختلفا بالبلاد المصرية التي عادت بالكامل تقريبا إلى المذهب السني بمختلف فروعه نتيجة السياسة المذهبية للأيوبيين ثم المماليك[3] وفي هذا البلد يبدو أن توزع الأشراف على المذاهب السنيه الأربع يبدو مماثلا للخريطة المذهبية للسكان أي غلبة المذهب الشافعي ثم المالكي ثم الحنبلي والحنفي في حين أن المذهب المالكي يبدو وحضوره في بلاد الشام منعدما تقريبا بين الأشراف وبين السكان وهو ما يتوافق أيضا مع التوزع المذهبي لعموم السكان المسلمين السنة في هذا الإقليم من السلطنة والأغلبية هم من الشافعية وفي حين أن المذهبين الحنبلي والحنفي لا يمسان سوى شريحة محدودة مع تفوق للحنفي على الحنبلي.

---

1 - ابن تغري بردي. الدليل الشافي على المنهل الصافي، ت فهيم محمد شلتوت – المملكة العربية السعودية/ ابن حبيب (الحسن بن علي)، تذكرة النبيه في أيام المنصور ونبيه، تحقيق، محمد محمد مبين – القاهرة 1976 – ج 1 ص 290.

2 - يوسف جميل نعيسه، المرجع نفسه، ج 2 ص 451

3 - هذه عينات من الإنتماءات المذهبية لنقاء = سنة=

*المذهب المالكي: ابن اياس (محمد بن أحمد)، بدائع الزهور وقائع الدهور، ج 3 ص8 وص208

*المذهب الحنفي: السخاوي، الضوء اللامع، ج 3 ص138، وج5 ص157 وص294. ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج 1 ص 402.

*المذهب الحنبلي: السخاوي، الضوء اللامع، ج 2 ص 8 وج9 ص164-165 و228

*المذهب الشافعي- السخاوي: الضوء اللامع، ج 1 ص 120، ج 5 ص 47' ج 9 ص 276.

- ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2 ص 204

- ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3 ص 111.

وما نستخلصه من هذه الانتماءات المذهبية للأشراف أنها متنوعة وان كان التنوع ماضيا نحو التقلص بسبب الضمور المستمر للحضور الشيعي، كما أن هذا التنوع محدود أيضا بسبب التفوق العددي للمنتسبين للمذهب الشافعي فكيف تبدو التباينات على المستوى – الإجتماعي والمهني؟

ب- التباينات الإجتماعية والمهنية:

يبدو الأشراف للوهلة الأولى متجانسين على المستوى الإجتماعي فهم ينتمون حسب مصادر ذلك العصر الى فئة الأعيان وهذا المفهوم في الحقيقة غائم وغير واضح اذ لا نتبين بالتدقيق مقاييس الإنتماء لهذه الفئة وماذا تقصد المصادر اجمالا بالأعيان.

من المعروف ان المصادر تقسم المجتمع الإسلامي الى قسمين أساسيين الخاصة والعامة ثم العبيد. فهل بعني ذلك أن الأعيان هم من طبقة الفئة الخاصة؟ يقول ا.لابدوس في معرض وصفه للطبقات المعروفة في المدن الإسلامية أيام المماليك: " وقد أشار الكتاب المسلمون الى منزلة اجتماعية ثانية وهي طبقة بين الخاصة والعامة تسمى الأعيان وتنطبق عادة على أرفع الناس منزلة وأكثرهم احتراما مثل قادة الجماعات والطبقات وهكذا يكون لدينا الأعيان من المماليك والأعيان من العلماء والأعيان من التجار والأعيان من الناس"[1].

واذا ما عدنا الى المؤلفات المتعلقة بالأعيان في العهد المملوكي مثل وفيات الأعيان لابن خلكان (ت. بدمشق 659 هـ/1261 م) فاننا نجد تعريفا وصفه المؤلف لهذه الشريحة الاجتماعية عصرئذ معتمدا المعيار الاجتماعي ليضبط على ضوئه المقصود بالأعيان في زمانه فيقول في هذا الصدد: "...ولم

---

1 - ايرا لا يدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، نشر الأهلية للنشر والتوزيع – بيروت 1987 ص138.

-ايضا فردريك معتوق، المعرفة والمجتمع والتاريخ – منشورات جروس برس طرابلس – لبنان 1991. ص 172.

أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء والملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه – ذكرته واتيت من أحواله بما وقفت مع الإيجاز كي لا يطول الكتاب"[1] فالمعيار هنا الشهرة بين الناس بمعنى أن الأعيان هم أولئك الذين حازوا السلطة والنفوذ والمعرفة والثروة والمكانة الاجتماعية بين الناس ليصبحوا في منزلة المشاهير، ويتوزع أعيان ابن خلكان على الأصناف التالية:

أدباء وشعراء وعلماء دين وقضاة وفنانون وأمراء وحكام- وأطباء وعلماء (علوم عقلية وتجريبية) وبذلك يمثلون نخبة دينية واجتماعية لكنها غير متجانسة مما يعني أنهم وان كانوا من الأعيان فهم غير متجانسين من حيث الثروة والنفوذ والمنزلة الاجتماعية[2].

وعدم التجانس هذا يبرز واضحا من خلال توزع الأشراف على عديد الفئات الاجتماعية من خاصة وعامة ومن ابرز المحددات في هذا التفاوت: النصيب من الثروة والممتلكات والوظائف التي يشغلها هؤلاء: فإذا اعتمدنا مقياس الوظائف الدينية والإدارية وبدرجة أدنى في المهن الحرة (انظر الجداول الموالية) بالنسبة للوظائف الدينية: على هذا المستوى يمكن التمييز بين وظائف دينية رفيعة مثل نظارة الخوانق (الزوايا) والجوامع والقضاء والتدريس في مساجد وجوامع شهيرة وغيرهما من المآذن الدينية التعليمية. وتدر هذه الوظائف على أصحابها مداخيل مجزية تتمثل خاصة في الرواتب الكبيرة مما يجعلهم جزءا من فئة العلماء أي الشريحة العليا من رجال الدين الذين كانوا يقومون بدور الوسيط بين السلطة الحاكمة وعموم السكان وأصحاب هذه

1 - ابن خلكان (ابو العباس احمد)، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان. ج 1 ص 20/ايضا فردريك معتوق، المرجع نفسه، ص 165.

2 - فردريك معتوق، المرجع نفسه، ص 172؟

الوظائف الدينية الرفيعة عادة ما يكونون من عائلات الأشراف العريقة في المدينة أو الإقليم يتوارثون عبر الأجيال هذه الوظائف لأصحابها وللعائلات العريقة من الأشراف قاعدة اقتصادية قوية لتثبيت وتدعيم مركزها ضمن فئة الأعيان عموما وفئة الأشراف خصوصا.

يقابل هذه الشريحة من كبار الموظفين في الخطط الدينية، وظائف دينية متواضعة كأن يكون صاحبها مدرسا في مدرسة مغمورة أو مؤذنا في مسجد أو خادما لشيخ طريقه. وهذه الوظائف لم تكن - على ما يبدو - مجزية إذ لم تكن توفر لأصحابها سوى رواتب متواضعة وهو ما ينعكس على المكانة الاجتماعية لأصحابها. وهذه الشريحة من الموظفين الإشراف لا شك أن مداخيلها من هذه الوظائف كانت متواضعة ولا تؤمن لها مستوى عيش يضاهي ذلك الذي تتمتع له الشريحة العليا المذكورة آنفا.

وينطبق نفس التوزيع تقريبا على الوظائف الإدارية ما بين وظائف إدارية رفيعة مثل نظارة احد الدواوين الحكومية في عاصمة السلطنة أو عواصم الأقاليم الأخرى وكتابة السر أو وظيفة المشد أو الحسبة أو الولاية لأحد الأقاليم والجهات.

مقابل ذلك تولى أشراف آخرون وظائف بسيطه في الجهاز الإداري لا تدر سوى مداخيل محدودة من ذلك نيابة الحكم أو التوقيع أو الكتابة لأحد الدواوين ويؤدي هذا التوزيع عمليا إلى تفاوت واضح في المداخيل بين شريحه عليا عالية الدخل وشريحة أخرى متواضعة الدخل مما يجعل الأشراف ينقسمون إلى فئتين على مستوى المكانة في الجهاز الإداري ما بين كبار الموظفين وصغار الموظفين.

وإذا كان الجهاز الحكومي قطبا جاذبا ومغريا للأشراف للعمل به واستيعابهم فان بعضهم كان يعمل بوظائف ومهن حرة تتفاوت هي أيضا من حيث منزلتها التي تحظى بها بين الناس أو ما توفره من مداخيل، وما نستخلصه بناءا على ما توفر من معطيات عن هذه المهن: التجارة إجمالا دون تحديد لنوعيتها أو تجارة محددة مثل تجارة البز وخصوصا تجارة المماليك ويطلق على متعاطي هذا الصنف من التجار لقب خواجا إذ كانوا المماليك الصغار يجلبون من بلاد القفجاق وبلاد القوقاز والجركس وغيرها من البلاد وكان يطلق على هذا الصنف من التجار تسمية الخواجا وكان بعضهم مكلفا بجلب المماليك للسلطان فعرف هؤلاء بتاجر الخاص الذي كان يحظى بمكانة خاصة لدى السلطان[1] ولا شك أن هذا الصنف من التجارة كان يعود على متعاطيه بمكاسب مالية كبيرة فضلا عن الحظوة والتبجيل لدى رجالات الدولة، ومكانة بين الخاصة والعامة على السواء فهم من صفوة التجار ولئن مارس بعضهم تجارة بعضهم دون تحديد لما هيئها.

وتعاطى أفراد منهم مهنة التدريس الحر لمواد علميه لم يعد لها حظ كبير من الرواج في بيئة ماضية نحو مزيد من الركود الثقافي والعلمي وينظر نخبتها الثقافية بعين الريبة بل والعداء لمثل هذه العلوم مقابل احتفائها بالعلوم النقلية التي لم يطرأ عليها أي تجديد ذا قيمة كلما تقدمنا في الزمن.

ومارس أشراف آخرون مهنا متصلة هي أيضا بالعلم والثقافة إجمالا من ذلك مهنة النسخ ومهنة الوراقة أو كليهما معا وهما من المهن الرائجة عصرئذ خصوصا وأن هذا العهد عرف جهودا كبيرة لنسخ وحفظ الإنتاج العلمي من الضياع بسبب الغزو المغولي خاصة وأنه عصر التأليف الموسوعي فكانت

---

1 - السيد الباز العريبي، المماليك، دار النهضة العربية 1967 ص 57 و74-76

Ayalon (D) ; *L'Esclavage du Mamlouk* , Jerusalem 1951 p.4

عاصمة السلطنة بحق عاصمة الثقافة الإسلامية حينذاك ومقابل ذلك نكاد لا نعثر على أي وجود لأفراد من هذه الفئة في مجال الحرف والأعمال اليدوية فمارس أحدهم صناعة النشاب وهو من الأسلحة التي كان يعتمدها الجند المملوكي في حروبه وربما كانت هذه المهنة مصدرا لرزق وفير، و"تعاني" أحد الأشراف صناعة اللازورد. وحظي صاحبها بتبجيل من قبل رحالات الدولة المملوكية وعدا هاتين الحرفتين " النبيلتين" لا يبدو – على الأقل مما توفر من معطيات أن المهن اليدوية الأخرى قد حظيت باقبال الأشراف فلا نعثر على أسر تعاطى أفرادها حرفة محددة وتوارثوها عبر الأجيال وأصبحت هذه الحرفة لقبا للأسرة مثلما حدث في العهد العثماني إذ نجد عائلة الصباغ والحجار والحائك وغير ذلك من الألقاب العائلية:

والجداول التالية تمثل عينه عن هذه الوظائف

والحرف التي مارسها أشراف العهد المملوكي

* وظائف إدارية	المصدر
- والي إقليم (منفلوط ودمياط)	- المقريزي، السلوك (799 هـ) ص 880 - المقريزي، السلوك 797 هـ ص 842
- كتابة السر	السخاوي، الضوء اللامع، ج 9 ص 164-165/ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3 ص 461 ابن إياس، بدائع الزهور، ج 3 ص 106 و218/ العيني، عقد الجمان، (833 هـ) ص 385
- وكالة بيت المال	السخاوي، الضوء اللامع، ج 2 ص 45 – ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3 ص 461.
- أستادار - مارستان - الدواوين - النظارة - الجيش - الأوقاف	ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7 ص 117 -ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2 رقم 1558 ص 123 /السخاوي، الضوء اللامع، ج 5 ص 284 وج 9 ص 413 وج 3 ص 138/ ابن إياس، بدائع الزهور ج 4 ص 100/
- نائب حكم	ابن إياس، بدائع الزهور، ج 3 ص 208
- التوقيع	ابن حجر الدرر الكامنة، ج 2 ص 153 – 154 وج 4 ص51

- الأشهاد	السخاوي، الضوء اللامع، ص 42 وص 135
- كاتب الدواوين	العيني عقد الجمان، ج 1 (655 هـ) ص 196 – 198/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2 ص 153-154
- خازن شربخاناه	السخاوي، الضوء اللامع، ج 3، ص 138
- شاد صلبخاناه	ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2 ص 120
الحسبة	ابن حجر، أنباء الغمر، ج 1 ص 421 وص 224.
*الوظائف الدينية والقضائية:	
النظارة على – خوانق - جوامع	السخاوى، الضوء اللامع- ج 1 ص 219-220 ج 1 ص 5 وج 3 ص 123/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج4 ص 119 /ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 1 ص 290.
إمامة الصلاة	ابن تغري تردي، الدليل الشافي، ج 1 ص 92/ السخاوي، الضوء اللامع، ج 5 ص 157 وج 8 ص 215 -216.
الخطابة بالجوامع	السخاوي، الضوء اللامع، ج 4 ص 103
مؤذن	السخاوي، الضوء اللامع، ج 2، ص 39، ابن حجر، أنباء الغمر (794 هـ ص 437)
القضاء أو نيابة القضاء	السخاوي، الضوء اللامع، ج 2 ص 5/ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج 1 ص 402 السخاوي، الضوء اللامع، ج 9 ص 228 / ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص 337 ابن إياس بدائع الزهور ج3 ص 28
الإقراء	السخاوي، الضوء اللامع، ج 3 ص 123
مشيخة الحديث	ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 4 ص 179
الإفتاء	ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج 1، ص 479
*وظائف ومهن حرة:	
التجارة : - تجارة الرقيق - تجارو البز - تجارة المماليك (الرقيق)	السخاوي، الضوء اللامع، ج 5، ص 242-243. - السخاوي، المصدر نفسه ج1 ص 73 ابن الصيرفي أنباء الهصر (873 هـ) ص 98 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج 3 ص 113.
التدريس (الحر)	السخاوي، الضوء اللامع، ج 5، 242-243..
الوراقة	السخاوي، الضوء اللامع، ج 7 ص 74-75.

النسخ	ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7 ص 239 / الدليل الشافي، ج 1 ص 7.
دلال أملاك	ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج 1 ص 276.
صناعة النشاب	السخاوي، الضوء اللامع، ج 6، ص 73.
صناعة اللازوزد	ابن حجر، أبناء العمر، ج 1 – ص 531.
الطب	السخاوي، الضوء اللامع، ج5- 294-295.
أكفاني في المواريث	ابن الصيرفي، أنباء الهصر، 874 هـ) ص 124.

ولئن ساهمت هذه الوظائف والحرف في فرز اجتماعي للأشراف بتوزعهم على مختلف الفئات الاجتماعية المملوكية وخلق تراتبية اجتماعية ضمنهم فان عاملا آخر ربما ارتبط بالمعطى السابق – أي نوعية الوظائف والمهن الممارسة من قبل الأشراف- كان يكشف بوضوح أكبر عن هذه التباينات الاجتماعية داخل هذه الفئة ونقصد بذلك الثروات والممتلكات العائدة لأفرادها والتي حددت الوضع والمكانة الاجتماعية حتى السياسية لهؤلاء.

إن ما يمكن أن نسميه النخبة من الأشراف التي شغلت مناصب إدارية ودينية رفيعة وتوارثها أفرادها عبر الأجيال دعمت مراكزها بملكيتها للأرض وغيرها من العقارات وهذه العائلات كانت تعد بحق ومنذ زمن سابق عن العهد المملوكي ذات نفوذ اجتماعي بل وسياسي هام مثال ذلك الأشراف الجعافرة بالصعيد فالأمير فخرالدين اسماعيل بن ثعلب الجعفري كانت سفنه تمون مصر بالحبوب في مجاعة 592 هـ"[1]. وهذا الأمير نفسه اقتنى القيسارية التي بناها الأمير جهاركس بمبلغ 95 ألف دينار وقال لصاحبها "أنقدك ثمنها إن شئت ذهبا

1 - المقريزي، السلوك، ج 1 ص 130.

وان شئت عروض تجارة"[1] كما كان يمتلك أراضي إحدى قرى أعـمال الأشـمونين عرفـت بـدروط الأشراف[2] ونجـد إلى جانـب هـذا المثـال المتطـرف في الـثروة مثـالا آخـر لأحـد الأشراف الذي ارتحل إلى بلاد المغرب والأندلس متكسبا بنسـبه وعـاد بـثروة تضـاهي " أموال نواب الملوك"[3].

وعرفت العديد من عائلات الأشراف بثرواتها المتنوعة وسـعة عيشـها[4] بلـغ حـد بناء منشـآت وظيفيـة والتحبـيس عليهـا[5] ونميـل إلى القـول بـأن أعـداد هـؤلاء ضـمن مجموعة الأسر الشريفة لم تكن كبيرة وأنهم يمثلون أقلية إذ يقابل هذه المجموعة التي تحتل أعلى السلم الاجتماعي لهذه الفئة أسر أخرى، نعتقد أنهـا تمثـل الأغلبيـة وهـذه الأسر كانـت متفاوتـة الـثروة ومتباينـة عـلى صـعيد مسـتوى العـيش، فالمصـادر تمـدنا بعينات من هذه الشرائح داخل هذه الفئة كان بعضهم يعيشون أوضاعا صعبة يغلب عليها العسر بل هم اقرب إلى الفقر والحاجـة ومـن ضـمن هـؤلاء أصـحاب الوظـائف الحكومية المتواضعة الدخل. وبعض هؤلاء الأشراف تراجعت أحـوالهم مـن الـيسر إلى العسر[6] وأفضل مثال على هذا الانحدار الشديد في مستوى الثروة والعيش والمكانـة مـا حصل للخواجا برهان الدين الحسيني نقيب الأشراف بدمشق الذي " افتقر وذهب ما خلفه له والده وصار في حالة امتهان بعد عز أبيـه"[7] لكـن الأشـد لفتـا للانتبـاه هـو أن أفراد من الأشراف انتموا إلى جماعات الهامشيين من الزعر ولذلك شـكك ابـن طولـون في

1 - المقريزي، الخطط، ج 2 ص 87.

2 - ابن دقماق، المصدر نفسه، ص 19.

3 - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3 ص 383

4 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج 3 ص 113/ السخاوي، الضوء اللامـع،، ج 1 ص 73/ - ج 5 ص 172 ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج 1 ص 312.

5 - اليونيني،(قطب الدين أبو الفضل)، ذيل مرآة الزمان، ج 2 ص 19/ ابن حجر، الـدرر الكامنـة، ج 3 ص 402.

6 - السخاوي، الضوء اللامع، ج 7 ص 160 – 161/ ابن الصيرفي – أبناء الهصر، ص349.

7 - السخاوي، الضوء اللامع، ج1 ص128-129

نسبة مثل هؤلاء إلى الأشراف[1] وعلى كل فقد توزع الأشراف تقريبا على جل الفئات الاجتماعية عصرئذ وخضعوا مثل غيرهم لقانون الحراك الاجتماعي وانقسامهم إلى أقلية هم أعيان الأشراف كما أسماهم السخاوي[2] وعامة الأشراف وهؤلاء الأعيان ينتسبون إجمالا إلى الأسر العريقة المتنفذة في حواضر ومدن السلطنة توارثوا المناصب والخطط الرفيعة في الجهاز الحكومي وكانت لهم صلات قوية بالأمراء والسلاطين المماليك فكانت لهذه العائلات اليد الطولى في إدارة شؤون الأشراف مثل الأوقاف وغيرها. ويمثل هؤلاء صفوة الأشراف والوسيط بين أبناء فئتهم والسلطة الحاكمة.

هذا التباين على مستوى الثروة يؤدي بدوره إلى تفاوت بين الأشراف ويجعل منهم فئات "داخل الفئة " فهم صورة مصغرة للتباينات الاجتماعية القائمة عصرئذ لكن التفاوت الاقتصادي والاجتماعي ليس إلا عنصرا فاعلا في هذه الانقسامات فيمكن أن نظيف إليها تباينا من نوع آخر وهو: التباين القائم بين الأشراف المحلبين والأشراف الوافدين، أو ما يمكن تسميته "بالأسر العريقة " من ذلك: أسرة الأرموي وأسرة ابن حريز بمصر والقاهرة[3] وأسرة ابن زهرة بحلب[4] وأسرة عدنان بدمشق[5].

وباعتبار موقع السلطنة الواقع في قلب العالم الإسلامي متوسطة المشرق والمغرب الإسلاميين يضاف إليها ازدهارها التجاري بفعل تحكمها في قسم لا بأس به من التجارة الدولة وكونها مركز علميا مشعا على هذا العالم الإسلامي

---

1 - ابن طولون، إعلام الورى لمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق عبد العظيم حامد – القاهرة 1973-ص101 و191

2 - السخاوي، الضوء اللامع، ج3 ص343

3 - السخاوي، الضوء اللامع، ج5 ص 172/ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج 2 ص 267/ العيني، عقد الجمان، ج 1 (650 هـ) ص 76/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3 ص 105 وص111 وج 4 ص49.

4 - العيني، عقد الجمان، ج 1 ص196-197/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2 ص104 و123 و147 وج 3 ص 116 وج 4 ص41

5 - ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج 2 ص 204/ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج 2 ص654/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 2 ص 103 وج 4 ص 166.

بعد أفول بغداد وبروز سلطتة المماليك كأقوى قوة إسلامية عصرئذ بتصديها للغزو المغولي ونجاحها في طرد الصلبيين من سواحل الشام والقدس، فقد كانت مقصد الرحالة والمهاجرين خصوصا نحو مصر من مختلف بلاد الإسلام. قدموا إليها فرادى أو جماعات فكان تيار الهجرة نحو حواضرها ومدنها لا يكاد ينقطع وكان من هؤلاء المهاجرين أشراف وأدعياء شرف استقر العديد منهم بصفة نهائية هذا الاستقرار النهائي ربما كان مثيرا لتخوفات الأشراف المحليين من منافسة مختلفة مما يخلق توترا يتجلى من خلال الطعن في صحة النسب وهي قضية كانت شائعة آنذاك " فمحمد بن أحمد الجرواني... نزيل القاهرة – على سبيل المثال-...انتسب إلى الحسن بن علي وصار شريفا فكان يطعن في نسبه"[1] وتعرض بعض المغاربة الذين وفدوا إلى السلطنة وأقاموا بها إلى التشكيك في صحة نسبتهم إلى الأشراف[2] مما يدل على أن هؤلاء " الأشراف الوافدين لم يكونوا دوما محل ترحيب من قبل أبناء سلالتهم "المحلبين" خصوصا إذا ما قدموا للإقامة الدائمة بالسلطنة.

ورغم أن الأشراف إجمالا كانت تطلق عليهم ألقاب التشريف والتوقير والتكريم خاصة لقب السادة الأشراف[3] إلا أن لقب السيد قليلا ما كان يطلق على عامة الأشراف وإنما على أعيانهم ومشاهيرهم خصوصا أولئك الذين ينتسبون إلى ما سميناه بالأسر العريقة وبالأخص النقباء منهم[4].

1 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج2 ص 81 / ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ج 8 ص81 السخاوي، الضوء اللامع، ج3 ص123 -ج 7 رقم 302 ص 130.

2 - ابن حجر، أنباء الغمر، ج 1 ص 307/ ابن طولون الدمشقي، مفاكهة الخلان في تواريخ الزمان، مصطفى زيادة القاهرة 1962. ص 346.

3 - دائرة المعارف، الجلد13 ص 270/ E.I(2), vol IX.p 343

4 - ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2 ص240/ ابن العماد الحنبلي، المصدر نفسه، ج 8 ص 81 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج1 ص342

كما تميزت هذه الأسر "العريقة" والرفيعة الشأن عن غيرها من أسر الأشراف بتوارثها ولعدة أجيال طويلة لخطة النقيب. إذ كانت هذه الخطة متوارثة ومتداولة بين أسر بعينها. وهذا الاحتكار لهذه المؤسسة هو أيضا من أقوى المظاهر على هذا التمايز بين أعيان الأشراف وعامتهم. فما هي ملامح هذه المؤسسة؟ وما هي المقاييس المعتمدة لاختيار النقيب؟ وما هي الوظائف التي كانت موكولة إليه؟ وهل من تعارض بين ما هو نظري وما هو معاش بشأن هذه المؤسسة؟

III - نقابة الأشراف: هيكل تأطير ومراقبة:

1) تعريف نقابة الأشراف وتطويرها قبل العهد المملوكي:

يعرف لسان العرب النقيب بأنه " كالعريف على القوم المقدم عليهم الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم أي يفتش وقيل النقيب: الرئيس الأكبر"[1] فهو إذن على رأس الجماعة وعلى دراية دقيقة بأحوالهم وشواغلهم بتقصي إخبارهم وشؤونهم وإظهار الرعاية لهم مع الإشراف والمراقبة، والحقيقة أن وجود مؤسسة النقابة الخاصة بالأشراف يعني أن هذه الفئة كانت واعية بذاتها ويتميزها عن باقي الفئات الاجتماعية فهي كيان مستقل نسبيا عن المجتمع وتكرس المؤسسة وتميز هذه الفئة دون غيرها من الفئات. ولعل وجود فئة اجتماعية مهيكلة من خلال هذا الإطار يأتي في سياق تاريخي تميز بظهور النقابات المهنية في بعض حواضر العالم الإسلامي سيما بغداد وهو ما عرف بالأصناف[2] ولا نعني بذلك أن ظهور مؤسسة النقابة تزامن أو تأخر قليلا عن ظهور هذه التنظيمات المهنية فربما كان ظهور نقابة الأشراف سابقا لذلك فالدراسات التاريخية تجمع على عراقتها وقدمها لكنها لا تنفق على تاريخ هذه

1 - ابن منظور، لسان العرب، مادة نقيب.

2 - رضوان السيد، مفاهيم الجماعات في الإسلام، دار التنوير بيروت 1984 ص79-111

النشأة وتذهب اغلب الدراسات في الوقت الحاضر على أن منصب النقيب ظهر حوالي منتصف القرن 3 هـ/9 م بيادرة من الخلافة العباسية وعرفت بنقابة الطالبيين[1].

في مصر الإخشيدية كانت أول إشارة على انه كان لأشراف مصر نقيب تعود إلى سنة 351 هـ/ 961 م[2] وفي مصر الفاطمية وتمشيا مع التحديد الذي وضعه الفاطميون لمفهوم الشرف بحصره في ذرية الحسن والحسين كان اول تقليد للنقابة يعود الى سنة 354 -964[3] ويحدد القلقشندى في إطار تصنيفه لخاص الخليفة الفاطمي أي " الأستاذين " فيذكر بأن هؤلاء على ضربين – ضرب أول يشمل كبار معاوني الخليفة ومنه زمام الأقارب أي أقارب الخليفة أما الضرب الثاني فيشمل زمام الرجال من ناحية ونقابة الطالبيين من أحرى وهؤلاء هم " بمثابة نقابة الأشراف الآن ولا يكون النقيب إلا من شيوخ الطائفة وأجلهم وكان يعد من أرباب السيوف[4] في العهد الأيوبي ثم العهد المملوكي ظلت هذه المؤسسة قائمة الذات إلا أن التسمية طرأ عليها بعض التبديل والتحوير فأصبحت تعرف بنقابة الأشراف دون تحديد لهؤلاء ولعل ذلك يدخل في إطار عدم حصر الشرف كما أسلفنا في سلالة العلويين ورد فعل على التضيق والإقصاء الذي قام به الفاطميون في هذا المجال.

إن استمرار وجود النقابة في العهد المملوكي هو من ناحية إبقاء على هيكل قديم أصبح متجذرا في الزمن وفي المجتمع لا يمكن القضاء عليه هذا من ناحية ومن ناحية فان السياسة المملوكية كانت تندرج في السياق العام لسياسة هذه الدولة وهو البحث عن الشرعية المفقودة وذلك بإظهارها الحرص على

---

1 - دائرة المعارف الإسلامية، ج 13المجلد ص E.I(2), vol IX.p344-345/272

2 - آ.متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري، نقله إلى العربية عبد الهادي ابو ريدة، الدار التونسية للنشر1986 ج 1 ص 253

3 - المرجع نفسه، ج 1 ص 253.

4 - القلقشندي، المصدر نفسه، ج 3 ص 481-482.

الدفاع عن الإسلام وإبراز رعايتها لرموز هذا الدين من ذلك فئة الأشراف وربما أيضا مراقبة هذه الفئة إلى سعي بعض أفرادها ومنذ وقت مبكر جدا من هذا العهد إلى إعلان اعتراضهم على حكم الفئة الدخيلة على هذه المنطقة وخاصة لانحدار أفرادها من أصول رقية[1] رغم الإنجازات العسكرية الهامة جدا التي تحققت بفضلهم وتتجسم هذه المعارضة من خلال الثورة المسلحة للأشراف الجعافرة والتي هددت بجدية حكم المماليك الذي لم تترسخ قواعده بعد - وهو ما سنراه لاحقا- وتواصل وجود النقابة في العهد المملوكي لكن وزن هذه المؤسسة طرأ عليه تعديل يتناسب أيضا مع توجهات السلطة المملوكية في تهميش هؤلاء وغيرهم من الفئات الاجتماعية سيما العلماء –

على المستوى السياسي واحتكار الوظائف السياسية والعسكرية التي تعد بحق عصب الدولة عصرئذ. هذا التغيير في المكانة يبرز من خلال وضع النقيب ضمن الحاشية السلطانية فيذكر القلقشندي أن وظيفة النقيب "هي من جملة وظائف أرباب السيوف إذ يحمل صاحبها لقب الأمير ويعلق على ذلك بأنه مجرد "عرف جرى على هذا في مصر والأحرى أن تكون ضمن أرباب الأقلام"[2] ويضيف محددا وضع النقيب " بأن متوليها – أي النقابة- ممن ليس له مجلس بالحضرة السلطانية "[3] ومعنى ذلك أنه ليس من كبار رجال الدولة فضلا على أن يكون ضمن الفئة الضيقة من العلماء أو القضاة الذين يحضرون المجالس السلطانية والمناسبات الرسمية. رغم أن تنصيبهم يتم في موكب رسمي[4].

1 - المقريزي، البيان والأعراب، ص 23-24.

2 - القلقشندي، المصدر نفسه: ج 3 ص 481-482

3 - المصدر نفسه، ج 4 ص 37-38

4 - ابن الصيرفي، أبناء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حيشى، القاهرة 1970 ص 141-142

في هذا العهد أيضا استمرت ظاهرة "التعددية النقابية"، فلم تكن للأشراف نقابة واحدة تعطي كافة أقاليم السلطنة أو ما يمكن تسميته في عصرنا بالمركزية النقابية بل تميز بتعدد نقابات الأشراف في مصر والشام، ومن خلال المعطيات المتوفرة هنالك ثلاث نقابات[1] واحدة بمصر ومركزها القاهرة والثانية بدمشق ببلاد الشام باستثناء البلاد الحلبية التي يوجد بمركزها حلب نقيب للأشراف. وهذا التعدد النقابي ليس جديدا إذ هو استمرار لوضع سابق تم الإبقاء عليه في العهد المملوكي. وقد توارثت بعض الأسر العريقة بهذه الأقاليم منصب النقيب ولا تسعفنا المصادر عن طبيعة العلاقة القائمة بين نقباء هذه الأقاليم وعن خصوصية كل نقابة من هذه النقابات الثلاث وخصوصا عن دواعي هذا التعدد النقابي.

وباعتبار أن أسرا بعينها قد توارثت عبر الأجيال منصب النقيب سواء بصفة مسترسلة أو متقطعة فان هذا المنصب كان محل تنافس هذه العائلات. فما هي شروط الترشح للمنصب؟ وما هي الوظائف التي كانت ملقاة على عاتق النقيب؟

2) شروط الترشح والوظائف:

أورد الماوردي في الأحكام السلطانية جملة من "الشروط" الواجب توفرها "في المترشح" لهذا المنصب[2] وقد كررت بعض المصادر المملوكية هذه الشروط[3] بصفة كلية أو جزئية وهو ما يمكن تسميته بالشروط الأولية وهذه الشروط هي أولا وبالذات صراحة الانتماء إلى هذه الفئة، حيث لا شك ولا ريبة حول ذلك بحيث لا يمكن الطعن في هذا النسب، أما الشرط الثاني فهو المعرفة بالأنساب أي أن يكون عارفا بأنساب الأشراف وهو شرط أساسي لتفادي أي

1 - القلقشندي، المصدر نفسه ج 3 ص 37 وج 4 ص 481

2 - الماوردي (ابو الحسن علي)، الأحكام السلطانية، دار الفكر، بيروت، ص 96-97.

3 - القلقشندي، المصدر نفسه، ج 4 ص 37-38.

محاولة للتسلل لهذه الفئة أو التنصل منها ومن الشروط الأخرى: التقدم في السن أي إن لا يكون صغير السن والمنصب من الخطط الجليلة التي لا يمكن أن ينهض بها صغار السن والمعرفة بالأنساب لا تتأتى إلا مع التقدم في السن أي في سن الكهولة أو الشيخوخة. ومن الشروط الأخرى جملة من الخصال الشخصية كالديانة والعلم والفضل والمروءة والنباهة فيبرر السخاوي تعيين احد أعيان الأشراف للمنصب رغم صغر سنه فيذكر أنه "...قدم على غيره...لعقله وفهمه "[1]. وإذا ما استثنينا الشرط الأول وهو صحة النسب فان الشروط الأولية الأخرى أي المعرفة بالأنساب وحميد الخصال قد يؤخذ بها أو لا يؤخذ إذ أن هنالك جملة من الاعتبارات الأخرى، قد يكون متفق عليها لتلافي النزاعات على هذه الخطة.

فمن هذه الاعتبارات التي كان من الضروري الأخذ بها عند اختيار أو تعيين النقيب: الوجاهة العائلية وعراقة النسب لذلك فان عائلات توارثت المنصب لعدة أجيال طويلة بعضها يمتد على عدة قرون، فعائلة الطباطبي تعود أول إشارة لتولي أحد أفرادها هذا المنصب إلى العهد الأحشيدي بمصر[2] وبعضها الى عهد متأخر عن ذلك مثل العهد الحمداني بإقليم حلب[3] وبناء على ذلك يمكن القول أن سلالات من عائلات النقباء تولى أفرادها المنصب بصفة منتظمة أو غير منتظمة، فأسرة ابن أبي الجن على سبيل المثال " بيت شهير كانوا نقباء الأشراف بدمشق"[4] وبعضهم بلغ فيه الأبناء ثم الأحفاد المنصب في حياة الجد ومن السلالات "المتنقبة" نذكر بالخصوص عائلات الأرموي والطباطي وابن حريز بمصر وعائلات آل المرتضى وعدنان وآل ابن أبي الحسن بدمشق وعائلتا ابن زهرة والأخلاطي بحلب. فالانتماء الأسري يبقى إذن أحد الشروط الأساسية التي يجب أن تتوفر في من يتولى المنصب ولم يكن

1 - السخاوي، الدرر الكامنة، ج 3 رقم الترجمة 2622 ص 68

2 - آ. متز، المرجع نفسه. ج 1 ص 253

3 - السخاوي الضوء اللامع. ج 1 ص 219 -220

4 - ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج 2 ترجمة رقم 22 ص 654

بامكان السلطة المملوكية إلا في حالات استثنائية التغاضي عن هـذا الشرط وتـولي مـن ترغب فيه لهذا المنصب. ولا شك أن توارث هذا المنصب وتداوله بين أسر محددة كان مصدرا لمنافسات بين هذه الأسر بل ومنازعات قـد تأخـذ أشـكالا عـدة مثـل السـعاية بالنقيب لدى السلطة المملوكية ومحاولة النيل منه بشتى السـبل مثـل الاتهـام بسـوء التصرف في المنصب[1] أو سوء إدارة أوقاف الأشراف[2]. لذلك فان اختيار أو تعيين النقيب كان يخضع أجمالا إلى التوازنات بين العائلات "العريقة" والتوافق فيما بينها على تعيين أحد أفرادها للمنصب لتلافي المشاحنات حفظا لمصالح الجميع.

ومن هذه الاعتبـارات ايضـا العلاقـات الشخصـية التـي قـد تـربط أحـد أعيـان الأشراف بكبار المتنفـذين في الدولـة خاصـة السـلطان، فهـذه العلاقـة قـد تكـون أحـد الوسائط الحاسمة في الحصـول عـلى الخطـة[3]. وفي عصر كانـت فيـه الرشـوة مـن أهـم الوسائل للحصول على الخطط الإدارية وحتى الدينية والتي اسـتفحلت بشـكل مـرضي في عهد المقريزي (ق 9 هـ) وما بعـده غـدت الوسـيلة التـي لا تضـاهي وسـاهمت في تفسخ الأجهزة الإدارية للدولة[4] فلم تكن خطة النقيب بمنـأى عـن هـذه الظـاهرة وان كانت الحالات التي تمدنا بها المصادر معدودة[5]. كانت إذن هـذه الشروط الأوليـة غـير محترمة في الكثير من الحالات فبعضهم يتولى المنصب وهو لا يزال يافعا قليـل الخـبرة[6] بينما كان البعض الآخر "متهما بسوء السيرة...وعاريـا عـن العلـم كـما جـاء في ترجمـة لأحد النقباء لكن شفع له في ذلك أنه من العائلات الشريفة المتنفذة[7].

1 - ابن حجر، أنباء الغمر، ج 1 (774 هـ) ص 35/الدرر الكامنة، ج 3 ص 105

2 - ابن الصيرفي، أنباء الهصر، 874 هـ ص 141

3 - ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص 141-142

4 - سعيد عبد الفتاح عاشـور، نظـام الحكـم والإدارة في عصر الأيـوبيين والمماليـك (مقـال). ورد في موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المجلد الثالث، المؤسسة العربية للدراسـات والـنشر 1987 ص 286 -287

5 - ابن حجر، أبناء الغمر – ج 1 ص 172

6 - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3 رقم الترجمة 2622 ص 68

7 - السخاوي، الضوء اللامع، ج 5 ص 172/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 3 ص 138

وبما أن الاختيار للمنصب لم يكن يخضع لقواعد ثابتة وإنما للتوافق والتوازنات العائلية ورأي السلطة الحاكمة ومزاجية السلطان أحيانا. فان مدة شغل هذا المنصب لم تكن بدورها واضحة. فالنقباء كانوا معرضين للعزل في كل وقت مثل باقي أصحاب الخطط في الدولة بل يضاف إلى العزل أحيانا عملية المصادرة للممتلكات وهي من الظواهر الثابتة في هذا العهد[1]. ولم يكن هذا العزل نهائيا فهنالك إمكانية للعودة للمنصب متى تغيرت ظروف العزل فهنالك العديد من النقباء من تولى هذا المنصب أكثر من مرة[2]. وكانت المدة الزمنية لشغل الخطة تطول وتقصر وقد يستمر فيها حتى الوفاة[3]. ورغم هذه التقلبات التي كان النقيب معرضا لها وإمكانية تنحيته في أي لحظة فان المنصب كان على قدر لا بأس به من الأغراء ويكسب صأحبه مزيدا من الوجاهة والنفوذ داخل الفئة وحتى خارجها. فما هي المهام والوظائف التي كانت ملقاة على كاهل النقيب؟

3) وظائف النقيب :

يمكن تلخيص المهام والوظائف حسبما ورد في الأحكام السلطانية[4] في النقاط التالية :

- حفظ الأنساب وفحصها للتحقق من صحتها

- مدونة سلوك على كافة الأشراف التقيد بها حتى يكونوا في مستوى النسب الذي يرجعون إليه وأن يكونوا بذلك قدوة لغيرهم من المسلمين فعلى النقيب "أن ينزههم عن المكاسب الدنيئة أو ارتكاب المآثم أو التسلط على الناس.

1 - السخاوي، الضوء اللامع، ج 2 ص5

2 - السخاوي، أنباء الغمر، ج 1 ص 224 – الضوء اللامع، ج 5 ص172

3 - ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص 141-142/ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2 ص 103

4 - الماوردي، المصدر نفسه، ص 96-97

- الدفاع عن حقوق ومصالح أفراد هذه الفئة لدى السلطة الحاكمة من ذلك صيانة أوقافهم من التعديات.

- النظر في الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق والميراث...

وقد أورد القلقشندي عند تعريفه للنقيب.. في عهده بعضا من هذه الوظائف مما يعني أن هذه المهام لم تبق ثابتة بل طرأ عليها تبديل وتغيير وذلك في اتجاه مزيد من التقليص وهو ما يعكس الوزن والمكانة التي أضحت عليها هذه الخطة مقارنة بالعهود السابقة وتحديدا العهد العباسي والفاطمي فهذه المهام يلخصها القلقشندي في:" الفحص عن الأنساب والتحدث عن الأقارب والأخذ على المعتدي منهم"[1]. وما يمكن استنتاجه من خلال المعطيات المتوفرة فان المهام الأساسية التي ظل النقيب يؤديها هي أولا وبالذات حفظ أنساب الأشراف من "داخل فيها وليس منها أو خارج عنها وهو منها" ويقتضي ذلك المعرفة الدقيقة بالأنساب وتتبعها بالتسجيل سواء ما يتعلق بالولادات أو الوفيات منعا لأي محاولة لانتحال النسب، وقد اشتهر بعض النقباء بمعرفتهم الواسعة بأنساب الأشراف[2].

رغم ذلك لا تسعفنا المصادر عن كيفية التحقق من صحة النسب للأشراف الوافدين خاصة على حواضر السلطنة من أقاليم وبلدان بعيدة خصوصا وأن السلطنة – كما أسلفنا القول- أصبحت مقصدا لأعداد كبيرة من سكان العالم الإسلامي فضلا عن كونها مركز عبور باتجاه المغرب أو المشرق الإسلاميين.

---

1 - القلقشندي، المصدر نفسه، ج4 ص37-38

2 - ابن حجر، أبناء الغمر، ج1ص35-السخاوي الضوء اللامع، ج3 ص123-124

ولا نعرف إن كان نقباء هذا العهد يقومون بكشف دوري لقوائم المنتمين لهذه الفئة مثلما كان يحدث في العهد العثماني[1] منعا لأي غش وتزوير للنسب وهذا الافتقار إلى هذه الآلية في الفحص عن الأنساب قد يسهل عمليات انتحال صفة الشريف وهو ما أثبتته إحدى الوقائع في افريقية في العهد الحفصي[2] وهو ما لم نعثر على نظير له في العهد المملوكي وعلى كل لا يبدو بعض النقباء حريصين جدا على القيام بهذه المهمة ففي تراحم بعض الأشراف هنالك تشكيك في صحة نسبهم أو هم محل شك وريبة بل إن بعض الوقائع تبين إن بعض النقباء كان يقوم بابتزاز بعض من انتسبوا إلى هذه الفئة أو ممن يشك في صحة نسبهم ويتم التساهل في ذلك أحيانا إلى حد ملفت للانتباه ومثير لاعتراضات أعيان الأشراف[3] بل إن الأمر يجاوز هذا الحد حينما يستغل بعض النقباء منصبهم لمنح هذا اللقب للراغبين في ذلك بمقابل مالي يقع الاتفاق عليه وتمكينهم من العلامة الخضراء التي أمر بها في عهد الأشراف شعبان كما تقدم[4].ولا نعلم إن كانت مثل هذه الحالة ممارسة على نطاق واسع أم لا إذ أن أعيان الأشراف المنافسين كانوا بالمرصاد لإطلاع السلطات على مثل هذه الانتهاكات الخطيرة متى أمكن ذلك والتي من شأنها النيل من سمعة ومكانه هذه الفئة ولا يبدوا أن السلطة المملوكية كانت بدورها حريصة على فحص أنساب الأشراف والتدقيق في صحة ذلك وبالتالي يمكن القول أن إمكانيات انتحال النسب كانت موجودة وعلى نطاق لا يعرف مداه[5] وعلى كل فان الرقابة لم تكن بالصرامة التي تحول دون سعي أفراد أو جماعات للانتساب لهذه الفئة.

---

1 - يوسف جميل نعيسة، المرجع نفسه، ج2 ص 450

2 - برنشفك (روبار)، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار المغرب الإسلامي، بيروت،1988.ج2ص169 -170

3 - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج3 ص105

4 - ابن حجر، أنباء الغمر، ج1 ص35

5 - السخاوي، الضوء اللامع ج2ص94 وج3ص123-124 ج 7 ص 130/ ابن حجر أنباء الغمر، ج1 ص 307.

والى جانب هذه الوظيفة الأساسية والتي تأتي على رأس مهام النقيب كان على النقيب أيضا رعاية مصالح منظوريه خصوصا.

ومن أهم هذه الموارد مداخيل الأوقاف المحبسة عليهم. ومما لاشك فيه أن من مهام النقيب الأشراف عليها بصفة مباشرة بتوليه بنفسه نظارة الأوقاف أو بصفة غير مباشرة من خلال ناظر خاص بها وهذه الأوقاف من خلال بعض المعطيات يبدو أنها كانت على قدر لا بأس به من الضخامة سواء من حيث الحجم أو من حيث قيمة الريع الذي توفره فكان لهذه الأوقاف ديوان خاص يضبط به جميع الأشراف وأنسابهم وسجلات خاصة بها. يسيره ناظر ومباشرون[1] وكان تسييرها وصرف ريعها في عديد المناسبات يثير منازعات بين المستفيدين من مدا خيلها خصوصا أعيان الأشراف. وكنا قد أشرنا إلى ضخامة وقف بركة الحبش وما أثاره من نزاعات بين الأشراف والذي استوجب من السيوطي تأليف الرسالة الزينبية " لا يضاح مدى أحقيه سلالة زينب في الحصول على نصيب من هذا الوقف. كما أن نزاعات أخرى نشبت بين الأشراف ونقيبهم وهي تهم تتعلق بسوء التصرف في مداخيلها مما يدلل على حدتها من ناحية وضخامة المقادير المالية التي كانت تحت تصرف النقيب وبعض هذه النزاعات كانت محل نظر السلطان نفسه وعقدت لذلك جلسات بحضور قاضي القضاة للنظر في التهم الموجهة للنقيب من قبل خصومة، القضية الأولى كانت في سنة 874 هـ[2] وبعدها ببضع سنوات اندلع نزاع آخر بين أعيان الأشراف والنقيب حين اتهموه بسوء مباشرته في بلاد الوقف وعدم التساوي بين المستحقين في النفقة " وانتهى الأمر في هذه القضية بعزل النقيب

---

1 - ابن شاهين، المصدر نفسه، ص109،- ابن الصيرفي، أبناء الهصر – ص 150

2 - ابن حجر، أنباء الغمر (حوادث 870 هـ)ص 172

وأن "يكون السيد الشريف الكردي صاحب السلطان ناظر للبلاد والمال والمصرف ونقيب السلطان"[1].

وتهم هذه النزاعات أوقافا تتركز بمصر القاهرة وما حولها. لكن لا نعرف وضع الأوقاف الأخرى المنتشرة بأرجاء السلطنة وهل كانت مصدرا للنزاعات بين المستفيدين من ريعها لكن الأكيد أن ضخامة هذه الأوقاف وما تدره من مداخيل كبيرة يجعل منها دافعا قويا من أجا تولي منصب النقابة والتنافس في ذلك بين الأسر المتنفذة من الأشراف، وما يجره هذا التنافس من خصومات ومشاحنات تفضي في عديد المرات إلى تدخل السلطة الحاكمة، وهذا يِدي بدوره إلى التدخل في شؤون هذه الفئة وإضعافها من الداخل من خلال استثمار هذه الانقسامات الداخلية والتحكم فيها بالتعيين أو العزل من منصب النقيب.

وعلى الرغم من إشارة المصادر إلى أن من مهام النقيب الدفاع على المصالح المادية للفئة لدى الدولة، فان هذه المصالح غير واضحة ولعل القصد منها رواتب ومنح كانت تدفع لأفرادها في العهود السابقة(العباسية والفاطمية) فهذه المنافع لم يعد لها أثر في العهد المملوكي فاقتصرت على ريع الأوقاف المتأتي من مصادر متنوعة والتي تبقى القاعدة المادية الوحيدة تقريبا التي تجمع بين أفراد هذه الفئة دون غيرها من الفئات الاجتماعية وتنطبق نفس الملاحظة تقريبا على مسؤولية النقيب في الإشراف على الأحوال الشخصية واحترام مدونة السلوك من قبل منظوريهم فلا توفر لنا المصادر التاريخية أي معطيات بشأن هذا الجانب فلم تتوفر معطيات عن دور النقيب في حالات الزواج أو الطلاق أو الميراث على سبيل المثال يهم أبناء أو بنات الأشراف رغم أن المصادر الفقهية تثير مثل هذه النواحي خاصة فيما يتعلق بقضية شرط الكفاءة

1 - ابن حبيب، أنباء الهصر (حوادث 874هـ)ص 149-150.

عند الزواج من بنات الأشراف وهذه المسائل التي يثيرها الفقه لا ندري مقدار اتصالها بالواقع المعيشي كما لا نعثر على أي واقعة تتعلق بسلطة قضائية أو تأديبية للنقيب وهو ما قد يعني أن هذه الوظائف قد تلاشت ولم تعد لها قيمة تذكر.

فهل يعني هذا التهميش لمهام ووظائف النقيب تهميشا لهذه الفئة على المستويات السياسية والاجتماعية الدينية؟

IV- المكانة السياسية والاجتماعية والدينية لفئة الأشراف:

1) المكانة السياسية:

في الوقت الذي لعب فيه الأشراف أدوارا أساسية بل حاسمة في تطور الأوضاع السياسية في العديد من البلاد الإسلامية كما هو الحال بالنسبة للمغرب الأقصى أو في بلاد اليمن بل وفي داخل السلطنة المملوكية وكذلك ببلاد الحجاز حيث حكمت المدن المقدسة لهذا الإقليم أسر من الأشراف العلويين المحليين باسم السلطان المملوكي. إلا أن واقع الحال مختلف تماما تقريبا بالنسبة لمصر والشام. فإذا ما استثنينا تلك المحاولة الجدية التي قادها الأشراف الجعافرة والتي كادت أن تطيح بهذا النظام الجديد، فيمكن القول أن الدور السياسي للإشراف كان ضئيلا وباهتا وما تسنى من نفوذ سياسي لفئة العلماء التي تصدت في العديد من الحالات لتجاوزات الحكم المملوكي بحق عموم السكان يتجاوز بكثير أي نفوذ سياسي توفر للأشراف.

هذا الوزن الضئيل لهذه الفئة يتجلى من خلال المكانة التي حظي بها الأشراف لدى المماليك، فالصلات القائمة بين الطرفين كان يتحكم بها المماليك من خلال التعيين أو الغزل لنقباء الأشراف، كما أن هذه الصلة إجمالا كانت مقتصرة على أعيان الأشراف في العاصمة أو الأقاليم فهؤلاء الأعيان كانوا

واسطة بين نظام الحكم القائم ومنظوريهم. وتراوحت السياسة المملوكية ازاءهم ما بين الاحتواء والتطويع من ناحية والقمع متى استوجبت الضرورة السياسية ذلك من ناحية ثانية. تجلت سياسة القمع العنيف والدموي في الانتفاضة العسكرية الكبرى للأشراف الجعافرة التي انطلقت من الصعيد المصري سنة 651 هـ/1253 م وعمت القطر المصري من أقصاه إلى أقصاه تمكن خلالها الأشراف الجعافرة من تعبئة وتجنيد القبائل العربية المسلحة والفلاحين لمواجهة نظام الحكم الجديد الذي قام بمصر على أنقاض الحكم الأيوبي بها وكادت هذه الثورة أن تطيح فعلا بالحكم المملوكي وقد استغل زعيمها حصن الدين ثعلب تذمر السكان من السياسة الجبائية المرهقة ليقود الثورة داعيا وبصراحة إلى طرد الحكام الأرقاء وعودة الحكم إلى العرب. وعدا هذه المحاولة المسلحة اليتيمة لم يقم الأشراف بعد ذلك بأية ثورة على الحكم المملوكي الذي استخدم كل وسائل القمع التي كانت بحوزته لقمع هذه الثورة وربما كانت القساوة البالغة التي أبداها المماليك تجاه المشاركين في هذه الثورة رادعا للأشراف عن القيام بثورات أخرى إضافة إلى القصور الذاتي لهذه الفئة التي فضلت إجمالا في باقى العهد المملوكي الطويل الخضوع والاستفادة كلما أمكن ذلك من سياسة الاحتواء التي كان يبديها المماليك تجاه أفراد هذه الفئة من خطط إدارية ودينية أو منافع مادية أخرى مثل الأوقاف ذلك إذا ما استثنينا مشاركة لم يكن لبعض الأشراف الدور الأساسي فيها مثل مشاركة أحد الأشراف الوافدين إلى مصر في محاولة انقلابية فاشلة تزعمها الأمير المملوكي بركة وشيخ عرب العائد موسى بن أحمد والشريف العنابي الذي كان " السلطان –برقوق- "يعتقده" وذلك سنة 796 هـ ولا تقدم المصادر معطيات وافية عن هذه المحاولة الانقلابية التي انتهت بإعدام الشريف[1] أو المشاركة في محاولات الأيوبيين لاستعادة مصر من المماليك[2] أو

1 - ابن حجر، أبناء الغمر، ج1ص470

2 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7ص8

تعاون بعضهم مع الغزاة المغول لأرض السلطنة[1] والتعاون مع مغـول العـراق (الدولـة الانتخابية) ضد المماليك[2] عدا ذلك لا نلاحـظ أي نشـاط سـياسي ذي أهميـة يقـوم بـه الأشراف إذ اكتفى هؤلاء إجمالا بتولي المناصب الإدارية أو الدينية التي يعرضها علـيهم رجالات الدولة المملوكية أو القيام بمهام دبلوماسية مثل السفارات التي كان يبعث بها السـلاطين إلى نظـرائهم في المماليـك القريبـة أو البعيـدة[3] وربمـا بلغـي علاقـة بعضـهم بالسلاطين حدا لمرافقة والصحبة[4].

هذا الدور الباهت للأشراف في مجرى المياه السياسية المملوكية الطويلـة زمنيـا يشي بنجاح المماليك في إقصاء القوى المحلية من أي دور فعال على هذا الصعيد فكان التهميش السياسي من نصيب الأشراف وان لم يكونوا الاستثناء فهل سيتمكن هؤلاء من تعويض هذا التهميش على الصعيد الاجتماعي والديني؟

2) المكانة الاجتماعية والدينية:

إن جملة هذه المعطيات يكسـب هـذه الفئـة مكانـة خاصـة لـدى عمـوم السكان المسلمين داخل السلطنة أو خارجها أول هذه المعطيات هـي النسب ذاتـه إذ هم ينحدرون من "دم نبيل" وهو الدم النبوي إذ أن أفراد هذه الفئة يشـكلون ما يمكن تسميته " بنبالة الدم" التي يعـترف بهـا الجميـع. المعطـى الثـاني ويتصـل بالسـابق هـو تأكيـد كتـب الفقهـاء عـلى ضرورة حـب آل البيـت والاحتفـاء بهـم وإظهار التوقير والاحترام لهم وعدم الإساءة إليهم بأي شـكل مـن الأشـكال يسـتند في كل ذلك إلى عدة أحاديث منسوبة للرسول[5] كما أن انفراد الأشراف دون غيرهم بهيكل إداري خاص بهم يعزز هذه المكانة إن تكريم وتوقير آل البيت يتجلى مـن خلال الأوقاف المحبسة عليهم وهـي كـما أسـلفنا القـول أوقـاف كبـيرة ومتنوعـة

1 - ابن الوردي(زين الدين عمر)، تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق ص 283-284

2 - العيني، عقد الجمان.ج1ص65

3 - اليونيني، ذيل مرآة الزمان ج1 ص462/ابن حجر، أبناء الغمر، ج1ص2

4 - السخاوي، الضوء اللامع ج3 ص105وج10 ص32/ابن الصيرفي، أبناء الهصر ص7

5 - دائرة المعارف الإسلامية، المجلد13 ص276-277/ *E.I2* ,vol IX.p345-

لتوفير موارد رزق ثابتة وتكرس تكريم هذه الفئة من خلال الإجراء السياسي الذي اتخذه السلطان الأشر ف شعبان سنة 773 هـ/1371 والقاضي بوضع الأشراف علامة خضراء – وهو لون الجنة - على العمائم تمييزا لهم عن غيرهم حتى يقابلوا بما هم أهل له من التوقير والتكريم[1] وقد أصبح خمل الشارة الخضراء منذئذ تقليدا راسخا لدى الأشراف وعلامة مميزة لهم عن غيرهم من الفئات الاجتماعية إلى العهد العثماني[2] وهو إجراء لا يمكن نعته بالغريب في عصور ميزت فيها فئات اجتماعية ومهنية وملل دينية بزيها الخاص أو بعلامات معينة على هذا اللباس طالما أن اللباس آنذاك يدخل ضمن العناصر المحددة للمواقع الاجتماعية والتوزيع الطائفي للأفراد والجماعات. وبذلك تكون هذه الشارة بمثابة بطاقة هوية يحملها على الرأس الشريف ويعرف بها.

وهذه المكانة المميزة "لأفراد هذه الفئة يتجلى أيضا من خلال الإحجام عن الإساءة لآل البيت ومعاملتهم بكل احترام[3] وحتى أولئك الذين ساهموا أو اتهموا بالمساهمة في التآمر ضد بعض السلاطين كان يؤخذ بعين الاعتبار انتسابهم لآل البيت لكن ذلك لم يحل أحيانا دون معاملتهم بشكل فض خاصة لدواعي سياسية[4] ولعل اشتراط الكفاءة للزواج من بنات الأشراف تدل على هذه المكانة الخاصة لهؤلاء وهذا الأمر يتجاوز ما ورد في المؤلفات الفقهية[5] لتكرس على أرض الواقع ففي دراسة م."ونتر" عن الأشراف في العهد العثماني يشير إلى أن الأشراف الجعافرة كانوا يأنفون من تزويج بناتهم خارج الفئة[6] وهو أمر لا نستبعد سريانه واستمرار العمل به خلال العهد المملوكي.

---

1 - المرجع نفسه، م13،276-277

2 - جميل يوسف نعيسة، المرجع نفسه،ج 2ص450

3 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج3 ص218/اليونيني، ذيل مرآة الزمان ج2ص408 - السخاوي، ج10 ص62

4 - ابن الصيرفي، أنباء الهصر، ص149/-الذهبي،شنرات الذهب،ج8 ص60 -ابن حبيب، تذكرة البنية، ص 290

5 - ابن حبيب، تذكرة البنية'708هـ ص290/ابن الصيرفي، أنباء الهصر ص 149 دائرة المعارف الإسلامية المجلد13 ص 275

6 - WINTER (M), *op cit*, p 20

ويبلغ هذا التكريم ذروتـه في الاحتفـاء بموالـد بعـض آل البيـت والتـي أصـبحت مناسبات دينية واجتماعية عامة وعلى رأسها المولد النبـوي ومولـد آخـر قـد يضـاهيه في الأهمية لدى سكان حاضرة السلطة وهو مولد السيدة نفيسة الذي أقـر رسـميا في سـنة 889 هـ/1448م والـذي رسـم فيـه السـلطان للخليفـة والقضـاة الأربـع وأعيـان النـاس بالحضور فحضرها هناك قراء البلـد قاطبـة... وصـار هـذا المولـد يسـمى بمولـد الخليفـة وتتالى اثر ذلك إقامة هذا المولد[1]. وباعتبار فضل هذه الفئة على بقيـة المسـلمين باعتبـار أنهم أصحاب الدين فمنهم خرج الرسول وباعتبار المجتمع المملوكي كان قائما على ما هـو ديني أي على ما هـو مقـدس فقـد انعكـس ذلـك آليـا عـلى المكانـة الدينيـة فضـلا عـن الاجتماعية لآل البيت، فهذه السـلالة مباركـة كـما هـو الشـأن أيضـا للصـلحاء والأوليـاء فالبركة التي حظي بها النبي لن تضيع أبدا بين الناس بعد وفاته إذ هي تنتقـل إلى كافـة آل بيته ذلك أن المقدس له أرستقراطية تنتقل بالعدوى والوراثة[2] وفي زمـن تفشـت فيـه ظاهرة الأولياء والصلحاء بشكل مرضي، وبالتوازي مع ذلك عرف التصوف ألطرقي انتشـارا واسع النطاق بين مختلف فئات السكان الخاصة منهم والعامة خصوصا بعد المصالحة بين التصوف والشريعة زادت مكانة الأشراف خصوصا أولئك الذين اشتهروا بالصلاح والتقـوى. ففي زمن الأزمات بتتالي النكبات الديمغرافية في سلطنة المماليك بسبب تـواتر الجماعـات والأوبئة التي أنهكت السكان كان يتم الالتجاء والاحـتماء أحيانـا بأشـخاص ينتسـبون لآل البيت ليؤموا الناس في صلاة الاستسقـاء خصوصا إذا كان هذا الشريف يحمل اسم محمد[3] وأسبـغ مؤرخو هذا الـعصر ألقـاب التبجيـل والإجـلال لأشراف انتسـبوا إلى طـرق صـوفية ويبلغ هذا التوقير ذروته إذا ما كان بعـض هـؤلاء عـلى رأس طريقـة مـن الطـرق " فهـذا

1 - ابن إياس، المصدر نفسه، ج3 ص 120

2 - يوسف شلحد، بني المقدس عند العرب قبـل الإسـلام وبعـده،تعريب خليـل أحمـد خليـل، دار الطليعة- بيروت 1996- ص127-128

3 - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج2رقم الترجمة14 ص5

الشريف القادم من بلاد المغرب وأقام ببيروت يقدمه الذهبي كالآتي: "العارف بالله سيدي علي بن ميمون...المرشد المربي، القدوة، الحجة، ولي الله تعالى المغربي التباهي أصله من جبل غمارا بفاس..."[1] أما "أبو الحسن علي بن عبد الله بن عيد الجبار...فهو العلامة المحقق العارف بالله الشريف الحسيب النسيب الحسني الشاذلي قدس الله روحه، أمام أهل الطريقة والحقيقة شيخ الشاذلية"[2].

وتمتع بعض الأشراف من الصلحاء "بكرا مات جليلة"[3] وعد بعض نقباء الأشراف من"كبار الصالحين.[4] ولم تقتصر بركة أتقياء الأشراف وصلائهم على الأحياء بل أن مشاهير أموات آل البيت كانوا مصدرا عظيما لهذه البركة تشد إليهم الرحال. والحقيقة أن ظاهرة المشاهد والمزارات بدأ في النمو والتضخم منذ وقت مبكر نسبيا من تاريخ الدولة الإسلامية وذلك في إطار المواجهة القاسية والدموية للشيعة مع خصومهم الأمويين ثم العباسيين. وكان للخلافة الفاطمية في مصر دور هام في تضخم الظاهرة في إطار دعايتهم الساسية فاعتنوا بأضرحة ومشاهد أشخاص من آل البيت[5] مثل السيدة نفيسة ورقية وعاتكة وزينب. إن هذه السياسة الدعائية جوبهت بسياسة دعائية مضادة من قبل الحكام السنة بإعلاء مكانة رموز سنيه مثل الإمام الشافعي في العهد الأيوبي وبل وتبني بعض المزارات والمشاهد التي تعود إلى آل البيت مثل مشهد السيدة نفيسة بالنظر للمكانة التي أصبحت تحتلها هذه المشاهد في وجدان ومشاعر أهالي هذه البلاد. وأضحت هذه المشاهد والمزارات المنسوبة لأفراد من آل البيت جزء لا يتجزأ من الشبكة العامة للأضرحة والمزارات التي كانت

1 - ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج8(917 هـ)ص81

2 - ابن تغردي بردي، الدليل الشافي، ج2 رقم 779ص826

3 - السخاوي، الضوء اللامع، ج4ص135-136/ابن تغردي، حوادث الدهور، ج2ص342.

4 - لبن بطوطة، رحلة ابن بطوطة دار صادر بيروت ص38

5- Ragib(y) ; les sanctuaires des gens de la famille dans la cité des morts du caire, *R.S.O.* vol Li, fas I-IV 1977-p47-75

تتضخم باستمرار مما استوجب ظهور صنف جديد من المؤلفات هي كتب الزيارة وهي عبارة على أدلة لزوار هذه الأماكن[1].

وأولى هذه المؤلفات والتي ظهرت في العهد العباسي تهم مزارات شيعية أي لأفراد من آل البيت العلويين وذلك حوالي 224 هـ/838 وأولى الأدلة التي وصلتنا تهم مشاهد وأضرحة ومزارات لآل البيت وهو كتاب الزيارات لجعفر بن قولويه 368 هـ/978م وتتالت كتب الزيارات اثر ذلك مثل كتاب الإشارات لمعرفة الزيارات لأبي بكر الهروي في العهد الأيوبي وفي العهد المملوكي كتاب تحفة الأحباب للسيخاوي والكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، لابن الزيات[2] ويهم الكتابان مزارات مصر والقاهرة. وظهرت في العهد المملوكي أيضا كتب الزيارات التي اقتصرت أو كادت على مشاهد ومزارات آل البيت من العلويين لا غير مثل كتاب: مزارات الأشراف لشرف الدين أبو علي محمد بن أسعد الجوالي المعروف بابن النحوي وكتاب مرشد الزوار إلى معرفة قبور الصحابة وأهل البيت الأبرار مجهول المؤلف[3].

هذه الأدلة لمواقع الحج الثانوي يبدو أنها كانت ضرورية وتشبع حاجة فعلية لزوار هذه المواقع بالنظر إلى كثرتها فقلما خلت مدينة من مدن مصر أو الشام من مشهد أو ضريح لأحد أفراد آل البيت. على المكانة الخاصة التي كان يحظى بها هؤلاء لدى عمومي السكان المسلمين سواء أكانوا سنة أو شيعة. ولعل نظام الزيارة لهذه المزارات من قبل النساء بعاصمة السلطنة والذي ذكره الفقيه الناقد ابن الحاج يشي بأهمية مزارات آل البيت في هذا النظام فيوم الاثنين مخصص لمشهد الحسين في حين يخصص يوما الثلاثاء والسبت لمشهد السيدة

---

1 - Ragib(y) ; Essai d'inventaire chronologique des guides à l'usage des pelerins du caire. *R.E.I*, vol XLI, 1973,p259-280

2 - السخاوي(علي بن أحمد)، تحفة الأحباب وبغية الطلاب في التراجم والمزارات والبقاع المباركات، القاهرة 1937.

3 - Ragib(y) ; Essai d'inventaire , p268

نفيسة[1] ويضبط المقريزي في خططه مشاهد لآل البيت بمصر والقاهرة وحدها يأتي الناس للزيارة والتبرك[2] وهي: - مشهد زين العابدين بن الحسين:

- زيد بن علي
- السيدة نفيسة
- السيدة كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق
- سنا وثنا ويقال أنهما من أولاد محمد بن جعفر الصدق

وهي قائمة مختصرة للغاية لا تغطي مزارات آل البيت بمصر والقاهرة. ويشغل مشهد السيدة نفيسة مكانة خاصة ضمن مشاهد آل البيت بمصر والقاهرة بل وضمن مجموع مزارات البلاد المصرية قاطبة في هذا العهد وتعدت شهرتها حدود مصر إلى غيرها من البلاد الإسلامية. وتتربع السيدة نفيسة على عرش" الولاية" بمصر كلها فهي"حامية مصر والقاهرة" إلى جانب "الإمام الشافعي" وانه لمن الطريف حقا أن تتبوأ امرأة هذه المكانة في مجتمع ذكوري كما ذكر ذلك يوسف راغب[3] أن هذه السيدة لم تكن معتبرة في البداية من "أولياء" في العهد الوسيط المتقدم ولم تذكر لها المؤلفات التاريخية التي ذكرتها كرامات ومناقب لكن ترجمتها بدأت في التضخم منذ القرن 12 م فخصص لها الجواني (ت 588 هـ/1192 م) كتابا خاصا بمناقبها ولن تظهر مجددا في كتب التراجم إلا مع القرن 7 هـ/13 م فتحدث عنها مطولا ابن خلكان[4] لكنه لم يذكر لها كرامات. وفي تأليف ابن فضالة تختفي الشخصية التاريخية لتحل محلها الشخصية الأسطورية أو شخصية الولية ومنذئذ لم تخل كتب السير والتراجم والزيارات من ذكر لمناقبها وفي عهد الناصر محمد وبطلب منه ألف كتاب في سيرتها يجهل مؤلفه وخصص لها ابن الزيات والسخاوي في كتابيهما وكذلك

1 - ابن الحاج، المدخل، نشر دار الفكر، بيروت، ج1، ص269

2 - المقريزي، الخطط -، ج2 ص 36-44

3- Ragib(y) ; Al sayyda Nafisa, sa légende, son culte et son cimetière .*S.I.*.XLIV.1976

4 - *Ibid* p 67

المقريزي في خططه ترجمة مطولة كلها تشيد بصلاحها ومناقبها وكراماتها وألف ابن طولون (ت 1545) كتابا عنوانه " الدرة النفيسة في مناقب الست نفيسة" وأضحى مشهدها قبلة الزائرين من مصر وخارجها وسعى أحياء من علية القوم للدفن بجوارها[1]. وخصها السلطان بمولد خاص به سنة 889 هـ/1448 حيث رسم للخليفة والقضاة الأربع وأعيان الناس بحضوره ... وصار يقال له مولد الخليفة وتتالى اثر ذلك إقامة هذا المولد[2].

وبسبب الإشعاع الكبير الذي أصبح يتمتع به هذا المشهد إذ كان قبلة الزوار وأصحاب الحاجات. قامت السلطة المملوكية بخطوة أخرى في اتجاه الأشراف والتقرب من العامة وذلك بإحداث خطة ناظر المشهد النفيسي وبذلك تخول إلى المؤسسة قائمة الذات تسهر على شؤون المشهد (تجهيزات- صيانة –مرتبات-العاملين به، تنظيم الزيارة وجمع النذور والصدقات ...) وكان تنصيب الناظر يتم في موكب رسمي[3] وبعد أن كان نظار المشهد من العلماء والفقهاء فان الحلفاء العباسيين أو أفراد من عائلة الخليفة احتكروا هذا المنصب وربما كان ذلك لتحسين مستوى عيش هؤلاء الخلفاء الصوريين وذلك بالاستفادة من قسم من مدا خيل المشهد المتأتية من النذور والصدقات والهبات، فيذكر المقريزي أن الخليفة المعتضد الذي تولى نظارة المشهد كان في "عيش غير متسع" قبل ذلك ثم "حسنت حاله – بعد تولي هذه الخطة- بما يبيعه من الشمع المحمول إلى المشهد النفيسي"[4] وللدلالة على ضخامة وقيمة تجهيزات هذا المشهد ما ذكره ليون الافريقي عن النهب الواسع الذي تعرض له على يد الجند العثماني عندما دخلوا القاهرة في 1517م[5].

---

1 - *Ibid* p 68-69

2 - ابن اياس، المصدر نفسه، ج 3ص201

3 - ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان – تحقيق حسن حبشي، القاهرة، 1970- ج2ص212

4 - المقريزي، الخطط، ج2 ص223

5 - الوزان (الحسن)، وصف افريقيا، تحقيق محمد حجي ومحمد لخضر الرباط،1980. ج 2ص212

وعلى كل فقد حققت مزارات ومشاهد آل البيت سيما مشهد السيدة نفيسة ما عجز عن تحقيقه أشراف هذا البيت من نفوذ سياسي أو ديني يعتد به فكأن هذا التفوق الذي تحقق عن طريق الأموات هو تعويض وتعزية للأحياء عصرئذ عن تواضع المكانة والدور في دولة كانت الكلمة الفضل فيها لمن يمتلك القوة العسكرية.

الخاتمة:

لئن شكل آل البيت في العهد المملوكي سواء بالمفهوم الواسع أو الضيق فئة الأشراف ورغم أن عديد الروابط والمصالح التي تجمع بين هؤلاء وتجعل منهم فئة متجانسة وموحدة إلا أن ذلك التجانس وتلك الوحدة تبدو هشة وظاهرية إذ أن جملة من التباينات والفوارق كانت تشق أبناء هذه الفئة القائمة أساسا على وحدة النسب المفترض تجعل الأشراف صورة مصغرة للانقسام المذهبي والاجتماعي القائم عصرئذ في المجتمع المملوكي خصوصا الانقسام القائم بين أعيان الأشراف وعامة الأشراف فمع أن الأشراف كانوا منضوين في مؤسسة خاصة بهم هي نقابة الأشراف إلا أن العائلات العريقة كانت مستأثرة بإدارة هذه المؤسسة والانتفاع من وجودهم على رأسها فظهرت سلالات من الأشراف التي توارثت منصب النقيب على مدى العديد من الأجيال.

ولئن تمتع الأشراف بحظوة اجتماعية ومكانة دينية لا يستهان بين سكان مصر المسلمين، وتجلت خاصة في الإشعاع الذي ميز المشاهد والمزارات الشهيرة لآل البيت بالسلطنة إلا أن دورهم في مجرى الحياة السياسية كان باهتا وغير ذي قيمة في ظل نظام يقوم على القوة العسكرية التي احتكرها المماليك دون سواهم،ولعّل تبوّء "السيدة نفيسة" منزلة "حامية مصر والقاهرة" أي "سلطانة المدينة "، قد عوض عن تلك المكانة.

السقاءون في القاهرة المملوكية

(648 هـ - 1250 م / 923 هـ - 1517 م)*

مقدمة:

رغم أن القسم الأكبر من البلاد المصرية يقع في النطاق الصحراوي الجاف مع شريط ساحلي شبه جاف يطل على البحر المتوسط، فان قضية الماء لم تكن إجمالا مطروحة في هذا البلد اذ يشقها النيل من أقصى الجنوب ليصب في البحر المتوسط في أقصى الشمال، وعلى ضفاف الوادي والدلتا يتجمع جل السكان. فكان من المنتظر والحال هذه أن لا يشكل تزود العاصمة المملوكية - مصر والقاهرة - بالماء قضية مقلقة للسلطات الحاكمة والسكان على حدّ السواء باعتبار أن هذه العاصمة تقع "على أرض النيل العظيم ". لكن مع ذلك فإن "الإنسان فيها كان يموت عطشا" كما يقول ابن سعيد المغربي [1]، فكان على سلاطين المماليك والقاهريون تأمين حاجياتهم من "مادة الحياة" هذه أي الماء.

فما هي مصادر تزوّد العاصمة المصرية بالمياه لشتى الإغراض (الشرب والتنظيف والاستخدامات الحرفية والخدمية ...) ؟

وهل تمكنت هذه الحاضرة بالاعتماد على طائفة السقاءين من حلّ هذه المشكلة أو التخفيف من حدتها؟ وكيف نظم هؤلاء أنفسهم لتلبية حاجيات المدينة؟

* نشر هذا المقال ضمن أعمال الندوة الدولية الثالثة التي نظّمتها وحدة ابن خلدون كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة تونس الأولى بعنوان الماء والتعمير ببلاد المغرب في العهدين القديم والوسيط نوفمبر 2007، إعداد الأستاذ محمد حسن، تونس 2009.

1 ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب ""المغرب في حلي المغرب "، تحقيق حسين نصار، دار الكتب، القاهرة 1970، ص. 25.

I - مصادر تزود العاصمة المملوكية بالمياه:

كانت القاهرة الكبرى في حاجة يومية لكميات كبيرة من المياه تستهلك للشرب ولاستخدامها في شتى الأغراض الأخرى، وتوفرت مصادر عدّة للتزود بالماء :

1) حاضرة كبرى ذات استهلاك ضخم:

إن ضخامة استهلاك هذه العاصمة للمياه متأت بالأساس من ضخامة حاجياتها ويعود ذلك إلى اتساع مجالها وكثرة سكانها:

فقد تم آنذاك الالتحام تقريبا بين مدينتي مصر- والمقصود بها الفسطاط والعسكر والقطائع – والقاهرة. فلم تعد توجد تقريبا فضاءات فارغة وبالتالي فان العاصمة المملوكية تعد مجمع عواصم، وتجاوز عمرانها في هذا العهد أسوار القاهرة الفاطمية. وقد شد اتساع مجالها وكثرة سكانها انتباه الرحالة الذين زاروها. فهذا ابن سعيد المغربي الذي أقام بمصر والقاهرة في أواخر العصر الأيوبي يذكر أن "عمارتها واتساعها..." خرجا عن الحد[1]. أما ابن بطوطة الذي زارها في النصف الأول من القرن الرابع عشر فقد أبدى اندهاشه للحشر البشري الذي يعيش فيها، فهي " بلد تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها[2]". ويذكر العبدري الذي زارها في النصف الثاني من نفس القرن بأن سكانها " مثل الرمل ويخيل لرائيها الحشر"[3]. وهذه الشواهد رغم صبغتها الانطباعية فهي ولا شك تؤكد أن القاهرة حاضرة كبرى في العصر الوسيط المتأخر تفيض بسكانها، وتعد بحق من أكبر حواضر العالم الإسلامي وحواضر البحر المتوسط. وبناء على ذلك فإن حاجيتها من الماء ستكون بحجم هذا العدد الكبير من السكان.

1 نفس المصدر، ص. 25.

2 ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم، دار إحياء العلوم، بيروت 1992، ج1، ص. 54.

3 العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود)، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط 1968، ص. 125.

وإذا ما اعتمدنا لغة الأرقام فرغم التباينات التـي يوردهـا المؤرخـون المحـدثون فإنها تؤيد إلى حد كبير ما ذهب إليه الرحالة، إذ أن مارسـال كلارجـي في دراسـته عـن القاهرة يقدر عدد سكانها بنحو 600000 نسمة[1]. غير أن أندري ريمـون يسـتبعد هـذا الرقم ويذهب إلى أن المدينة في ذروة تطورها العمراني والـديمغرافي لم يتجـاوز سـكانها 300000 نسمة وذلك في النصف الأول من القرن الرابع عشر في سلطنة الناصر محمـد بن قلاوون. بل سجل هذا الرقم انخفاضا إلى نحو 200000 نسمة منذ القـرن الخـامس عشر بسبب الكوارث الديمغرافية المتعاقبـة الناتجـة عـن المجاعـات والأوبئـة[2]. ويؤكـد الحسن الوزان هذا الانهيار في نهاية العهد المملوكي وبداية العهد العـثماني بإشـارته إلى تقلص عمران المدينة وخراب الكثير من الأمكنة فيها[3].

ومهما يكن من أمر فان العدد الكبير للسكان وكثافة الأنشطة والفعاليـات الاقتصادية الحضرية وتنوعها يجعل هذه العاصـمة في حاجـة إلى كميـات كبـيرة من الماء يوميا لتلبية حاجيات هذه الأنشطة الحرفية مثـل "المعـاصر والطـواحين ومعاجن الطين"[4] والأنشطة الخدمية التي تحتاج إلى كميات كبيرة من المياه مثـل الحمامات العمومية التي بلغ عددها في أواخر القرن الثالـث عشر مـيلادي نحـو 80 حماما[5]. وقد انخفض هذا العدد إلى نحو 44 حماما فقط في عهـد المقريـزي[6]. هـذا فضـلا عـن المنشـات المائيـة العموميـة الموجهـة للاسـتهلاك العـام في إطـار

---

1 Clèrget (M.), *Le Caire*, I, p 240-241, Raymond (A.)، La population du Caire de Maqrizi à la description de l'Egypte, *Bulletin des Etudes Orientales*, t. XXVIII, 1977, p. 201.

2 - Raymond (A), « La population … », *Op cit*, p. 201-215.

3 الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج1، ص. 203-212.

4 ابن الإخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه روبن ليـوي، كمبريـدج 1937، ص. 239.

5 قاسم (عبده قاسم)، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة- تونس، 1994، ص26.

6 المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروفة بالخطط المقريزية، دار صادر، بـيروت (د. ت)، ج 2، ص. 79 – 85.

مؤسسات الوقف مثل الأسبلة والصهاريج والأحواض المعدة لشرب الحيوانات وغيرها من المنشآت المائية.

فكيف أمنت القاهرة الكبرى حاجياتها من الماء؟

2) مصادر التزود بالمياه:

أ. مصادر ثانوية:

رغم أن مصر والقاهرة تقع قريبا جدا من النيل فإنها تكاد تفتقر إلى شبكة قنوات لإيصال الماء، على عكس مدن مصرية أخرى مثل الإسكندرية، إذ أن "جميع دورها تقريبا مبنية على خزانات مياه يصل ماء النيل إليها بواسطة قناة اصطناعية محفورة في السهل من النيل إلى الإسكندرية ويدخل مارا تحت سور المدينة ليصب في الخزانات..."[1]. هذا في أقصى الذراع الغربي للدلتا، أما في أقصى الذراع الشرقي فان سكان مدينة دمياط كانوا " يستقون من النيل بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل "[2]. وفي الحقيقة هناك استثناءات لكنها قليلة تتعلق بوجود قنوات أو غيرها من المنشآت التي توصل الماء من النيل إلى أماكن بالمدينة من ذلك قلعة الجبل وهي مركز الحكم منذ العهد الأيوبي، فقد تم ربطها بالنهر عن طريق سواق اصطناعية كان يتم تعهدها باستمرار، ففي سلطنة الناصر محمد تم إنشاء أربع سواق لهذا الغرض[3]، كما قام هذا السلطان بحفر خليج عند تشييد خانقاه سرياقوس وتعمير منطقة شمال العاصمة.[4] هذا فضلا على الخليج الكبير- (أو الخليج المصري)- الذي يعود حفره إلى الفترة ما قبل الإسلامية ويزود العاصمة بالماء نحو ثلاثة أشهر عقب فيضان النيل.

1 الوزان، نفس المصدر، ج 1، ص. 195.

2 ابن بطوطة، نفس المصدر، ج 1، ص. 51 .

3 المقريزي، الخطط، ج.2، ص. 145

4 المصدر نفسه، ج 2.، ص. 422-423.

كما توجد في المدينة عدة آبار مثل بئر يوسف بقلعة الجبل، وبئر زويلة، وبئر الوطاويط[1]، وبئر المطرية - الواقع خارج القاهرة -، وهذه البئر الأخيرة ذات مكانة خاصة لدى المسيحيين وكذلك المسلمين فهي بئر مقدسة لاعتقادهم أن مريم أم المسيح وابنها قد أقاما في البناية التي توجد فيها البئر-[2]. فهذه الآبار إضافة إلى كونها ليست بالعدد الكافي الذي يمكن أن يغطي حاجيات المدينة، فان مصدر مياهها هو ما يتسرب من النيل إلى باطن الأرض مكونا مائدة مائية سطحية لكن منسوبها غير ثابت بين الفصول وبين السنين، فضلا عن كون أغلبها ذات مياه لا تصلح للاستهلاك البشري بسبب ملوحتها[3]، وبالتالي لا يمكن الإعتماد عليها في فترات الاضطرابات الأمنية التي تؤدي بدورها إلى اضطراب حركة تموين العاصمة بالماء[4]، وكذلك في الحالات التي يمكن أن يكون فيها ماء النيل غير صالح للاستهلاك لأي سبب من الأسباب مثلما حدث سنة 881 هـ - 1476 م حينما تغير ماء النيل فلم يكن بإمكان المصادر الأخرى تلبية حاجيات السكان[5] مما يجعلها باستمرار رهينة للنيل.

ب. النيل: المصدر الاساسي للتزود بالماء :

نظرا لاعتماد البلاد المصرية ومن ضمنها العاصمة بصفة تكاد تكون كلية تقريبا على النهر، لذلك احتل مكانة خاصة في حياة المصريين منذ أقدم العصور، فهو نهر مقدس لدى القدماء مبارك عند المسلمين، إذ أن مصدره

---

1 المصدر نفسه، ج2، ص. 104، 135، 204.

2 الحسن الوزان، نفس المصدر، ج1، ص. 213؛

Piloti (E), « Traité sur le passage en Terre Sainte (1420-1438) », *In Croisades et pèlerinages, récits chronique et voyages en Terre Sainte XII – XVI siècle* sous la direction de Danielle Régnier Bohler, Paris 1997, pp. 1250 – 1251 ; Thevenot (Jean) ; *voyage du levant*, Maspero, Paris.1980, p. 222.

3 Raymond (A.) ،« Les porteurs d'eau du Caire », *Bulletin de l'institue français d'archéologie orientales*, Tome LVII, 1968, p. 184.

4 ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، 1984، ج. 3، ص. 94، 222.

5 المصدر السابق، ج. 3، ص. 119.

سماوي وليس أرضيا، فمنابعه تقع في" سدرة المنتهى" لذلك كانت له خواص عجيبة حسب بعض المصادر، من ذلك أن ماءه عذب وخفيف[1]، بل إن له تأ ثيرا على مزاج المصريين وطباعهم يجعلهم في حالة مرح وحبور بعيدين عن الهموم والأحزان[2]. لذلك يمكن اعتباره أعجوبة مصر الكبرى لأن وتيرة الحياة في مصر موقعة على فيضان النهر وبلوغه ما يعرف بحد الوفاء أي أن يصل مستوى الفيضان المطلوب 17 ذراعا وبضع أصابع، مما يبشر بموسم فلاحي جيد. وعند بلوغه هذا المستوى يتم "كسر الخليج" في موكب رسمي من قبل السلطان أو أحد ممثليه ايذانا ببدء الموسم الفلاحي الجديد، وتنطلق الاحتفالات "الشعبية" الصاخبة التي يشارك فيها كل السكان مهما اختلفت أديانهم[3]، ويعد هذا اليوم بمثابة العيد القومي للمصريين ويعود هذا التقليد إلى عصور غابرة.

لكن التزود من النيل مباشرة يمثل في حد ذاته مشكلة لم يقع التغلب عليها في هذا العهد وذلك بسبب الابتعاد التدريجي والمتواصل وإن كان بشكل بطيء للنهر عن المدينة. هذا الابتعاد لمجرى النهر كان يتم باتجاه الغرب وسبب ذلك حركة المياه المتواصلة خصوصا في فترة الفيضان، إذ يقوم النهر بترسيب مادة الطمي (الغرين) التي يحملها من الهضبة الأثيوبية على الضفة اليمنى - الشرقية- في نفس الوقت يقوم بتوسيع مجراه عن طريق الانجراف باتجاه الغرب، مما يجعله يبتعد تدريجيا عن المدينة. وقد سجل المقريزي حركة التراجع هذه بحديثه عن " انطراد مياه النيل وانكشاف الأرض"، وقد حدث ذلك في عهود كل من السلطان الأيوبي الملك الكامل سنتي (1230- 1231 م) والسلطان الصالح نجم الدين أيوب في سنة 1243 م والسلطان المملوكي

---

1 البلوي، تاج المفرق في تحليه علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، مطبعة فضالة، المغرب(د .ت)، ج. 1، ص. 217؛ ابن بطوطة، نفس المصدر، ج. 1، ص. 58-59؛ ابن الإخوة، نفس المصدر، ص. 240.

2 Piloti (E)، *Op. cit*, p. 1238-1239.

3 الحسن الوزان، نفس المصدر،ج.1، ص. 214-215.

النـاصر محمـد في سـنة 1313 والنـاصر حسـن في منتصـف القـرن 14 م ثـم في عهـد السلطان فرج في سنة 1404 م[1].

ويتسبب بعد النيل عن المدينة في زيادة صعوبة نقل الماء وبالتالي غـلاء سـعره، فيؤثر سلبا على حياة عامـة النـاس، ويـدفعهم هـذا الوضـع أحيانـا إلى رفـع شـكواهم للسلطة الحاكمة حتى تدخل لحل المعضلة أو التخفيف من حدتها. وقد قدر الرحالـة سيميون الايرلندي الذي زار القاهرة في النصف الأول مـن القـرن الرابـع عشر المسـافة بين النيل والمدينة بنحو نصف ميل، وفي أواخر العهد المملوكي قدر الحسن الوزان هذه المسافة بنحو ميلين[2].

ولكل هذه الأسباب احتاجـت مصر والقـاهرة إلى فئـة مهنيـة تقـوم بتزويـدها بالماء بشكل يومي وقد أمنت فئة السقائين هذه المهمة.

II- طائفة السقاءين: طائفـة مهنيـة قديمـة تتعـزز عـدديا وتنظيميـا في العهـد المملوكي:

يعود وجود هذه الطائفة المهنية إلى فترة سابقة للعهـد المملـوكي بـزمن طويل، فقد سجل مثلا الرحالة المقدسي وجود هذه الطائفة في القـرن العـاشر بالقاهرة الفاطمية[3]، كما سجل هذا الحضـور الرحالـة نـاصر خسرو، وذكـر أن عددهم يبلغ نحو 52000 سقاءا.[4] وبطبيعة الحال فقـد تواصـل هـذا الوجـود في العهدين الأيوبي والمملوكي، ولاحظ الرحالة انتشارهم في أرجاء المدينـة عنـد

---

1 المقريزي، الخطط، ج. 2، ص. 132، 146،167؛ انظر أيضا:

*EI*2, vol. IV, p. 443 ; Raymond (A), « *Les porteurs d'eau…* », *Op. cit*, p. 183-184.

2 Semeonis d'Irlande (S.), « Voyage de Symon Semeonis d'Irlande en Terre sainte, voyage réalisé 1323-1324 », In Croisades et Pèlerinages, récits, chroniques et voyages en terre sainte, p. 223

الحسن الوزان، نفس المصدر، ج.1، ص. 217.

3 المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،. ص. 206.

4 ذكره فولكف (أولج)، القاهرة مدينة ألف ليلـة وليلـة، ترجمـة أحمـد صـليحة، الهيئـة المصريـة العامة للكتاب، القاهرة 1986، ص. 56.

نقل المياه وتوزيعها أو بيعها للراغبين من المارة. فكانوا جزءا من المشهد الحضري للعاصمة المصرية وهو ما يشير إلى أن أعدادهم كانت كبيرة وأنهم ليسوا صنفا واحدا رغم انتمائهم لهذه الفئة المهنية الحضرية:

1) أعدادهم وأصنافهم:

يكتفي بعض الرحالة الذين زاروا القاهرة في العهد المملوكي بذكر كثرة عدد السقائين بهذه الحاضرة، إلا أننا لا نعدم رحالة آخرين قدموا أرقاما بشأن هذا الصنف المهني، غير أن التضارب كبير بين هذه الأرقام، " فيذكر البلوي نقلا عن أحد الثقاة من سكان القاهرة رقما من الصعب جدا الأخذ به ويتعلّق بعدد الجمال المعدة لنقل الماء، إذ تم " إحصاء مائتي ألف جمل الداخلة إلى القاهرة بالماء في كل يوم ماعدا البغال والحمير والسقاءين الذين بالزقوق، وغيرهم فإن ذلك شيء لا ينضبط وولا يحصر" ويضيف أن العدد ينخفض في الصيف إلى 7000 وفي الشتاء إلى أقل من ذلك" [1]. أما ابن بطوطة فيذكر رقما يمكن أن يكون مقبولا وهو 12000[2] سقاء، فيكون هنالك سقاء واحد لكل 25 ساكنا- إذا ما أخذنا برقم 300000 ساكن في أواسط القرن 14 م، ومع ذلك يبقى هذا العدد محل نظر. ويذكر في نفس هذه الفترة أحد الرحالة الأوروبيين أن عدد السقائين بلغ نحو 5000 سقاء سجلوا أنفسهم عند المحتسب بعد أن قاموا بدفع ضريبة معينة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل.[3] وفي أواخر العهد المملوكي يذكر الحسن الوزان أنه شاهد حفلا أقامه 3000 سقاء[4]، وهذا الرقم يمكن الاطمئنان إليه شيئا ما باعتبار الانكماش العمراني والتراجع الديمغرافي الذي شهدته القاهرة المملوكية منذ القرن الخامس عشر كما أسلفنا القول.

---

1 البلوي، نفس المصدر، ج. 1، ص. 217.

2 ابن بطوطة، نفس المصدر، ج. 1، ص. 55.

3 عاشور (سعيد عبد الفتاح)، المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة 1962، ص. 84.

4 الحسن الوزان، نفس المصدر، ج.1، ص. 218.

وعلى كل حال فإن هذه الطائفة كانت تضم عدة آلاف، وتبعا لذلك فإنها تعد من الطوائف المهنية الهامة عدديا على الأقل في القاهرة. وقد قام داخل هذه الطائفة تقسيم وظيفي للعمل فاشتملت على صنفين كبيرين[1]:

- الصنف الأول وهم السقاؤون بالجملة، أو ما تسميهم المصادرأصحاب الروايا- (وهي قرب ضخمة مصنوعة من جلود الجواميس)- والقرب- (وتكون عادة من جلود الماعز)-، وهم الذين يمتلكون دواب النقل من جمال وبغال وحمير وينقلون عليها الماء من النهر إلى زبائنهم.

- الصنف الثاني فهم السقاؤون بالتجزئة، وتسميهم المصادر السقاؤون بالأكواز. وهذا الصنف بدوره ينقسم إلى فئتين وهما: أصحاب الحوانيت، أي أولئك الذين يبيعون الماء للمارة في حوانيت ويضعون مياههم في أزيار، وبلغ عدد حوانيت هؤلاء حسب البلوي نحو ستين ألف حانوت،[2] وقد اشتغل بعض الأعيان بهذه الحرفة ضمن هذا الصنف لكن بصورة اضطرارية وظرفية.[3] أما الفئة الثانية فهم الباعة المتجولون الذين يتنقلون في أرجاء القاهرة، وقد ذكر الرحالة فيلكس فابري بأن عددهم كبير دون أن يذكر رقما محددا لهم. [4] .

إن هذا العدد الكبير للسقاءين بمختلف أصنافهم سيدفعهم إلى تنظيم أنفسهم على غرار أصحاب الحرف والمهن الأخرى في إطار يجمع شملهم وهو ما يعرف آنذاك بالنقابة.

---

1 ابن الإخوة، نفس المصدر، ص. 239-240.

2 البلوي، نفس المصدر، ج. 1، ص. 218.

3 السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع،.ج. 1، رقم322، ص. 177.

4الحسن الوزان، نفس المصدر، ج. 1، ص. 217- 218؛

Fabri (F.), *Voyage en Egypt de Felix Fabri*, 148, Publication I.F.A.O, Le Caire1975, t. 2, p. 569.

2) التنظيم المهني للسقاءين:

تشير بعض المصادر إلى أن السقائين في العاصمة المملوكية كانوا منتظمين في نقابة وألفوا صنفا أو طائفة مهنية على غرار الطوائف المهنية الأخرى المؤطرين في نقابات حرفية [1]. وبالنظر إلى شحّة المعطيات حول هذه النقابة في العصر المملوكي فإننا لا نعلم بالضبط فترة ظهورها وتفاصيل تنظيمها ومهامها. نعثر في كتب "الوفيات " مثل" وفيات الأعيان " لابن حجر العسقلاني و"الضوء اللامع " للسخاوي، على تراجم لنقباء السقائين، وهي قليلة العدد لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، - ولذلك دلالته على مكانة هذه الطائفة المهنية في البنية الاجتماعية بالنسبة لنقباء هذه الطائفة-، من هؤلاء النقباء أفراد من "عائلة شفتر " تولوا رئاسة نقابة هذه الطائفة [2]. وما يمكن استنتاجه من خلال ما توفر من التراجم هو إمكانية احتكار منصب النقيب من قبل بعض العائلات المتنفذة من أصحاب المهنة والأسئلة المطروحة بهذا الخصوص تتعلق بالمقاييس المعتمدة لاختيار أو تعيين النقيب.

فهل هو مقياس الثروة أو الوجاهة أم الاثنان معا؟ أم هي الأقدمية في المهنة؟ وإلى أي صنف من أصناف السقاءين ينتمي النقيب ؟

- وهل أن النقيب يتم باختيار أبناء الطائفة؟ وإذا كان الأمر كذلك فماهي الآلية المعتمدة ؟

- وأي دور للسلطة المملوكية في تعيين أو اختيار النقيب ؟

- ومن يقوم بمهمة العزل والإعادة إلى المنصب إذا اقتضت الضرورة ذلك ؟

---

1 عبد الفتاح عاشور، نفس المرجع، ص. 36-37؛ ضومط (أنطوان خليل)، الدولة المملوكية، دار الحداثة، بيروت، 1982، ص. 219.

2 السخاوي، نفس المصدر، ج. 6، رقم الترجمة 871، ص. 251؛ ج. 8، ص65.

لا نملك في الحقيقة الإجابة عن هذه الأسئلة نظرا لشحة المادة المتعلقة بهذه النقابة ولا نستبعد أن تكون للسلطة المملوكية اليد الطولى في أمر هذه الطائفة على غرار عديد الطوائف الأخرى حتى تضمن رقابة هذه الفئة المهنية الكبيرة العدد.

أما فيما يتعلق بوظائف النقيب فنحن لا نعرف ماهيتها بالضبط لكن يمكن القياس على وظائف النقابات الأخرى مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصية كل طائفة [1]: فمهام النقيب تتمثل في:

- مراقبة أهل المهنة ومنع تسرب الدخلاء إليها ما أمكن.

- تنظيم نشاطهم مجاليا وذلك بتحديد منطقة نشاط كل مجموعة من السقائيين إما اعتمادا على أماكن سكنهم أو الأحياء التي يقيم بها زبائنهم أي تقسيم المدينة إلى قطاعات سكنية. (Secteurs).

- مراقبة عمليات تزويد المدينة بالماء من مرحلة التزود إلى مرحلة التوزيع والبيع.

- فض المنازعات التي قد تنشا بين السقا ئين أو بينهم وبين الحرفاء.

- القيام بدور الوسيط والممثل للسقائين لدى السلطة المملوكية.

وفيما يتعلق بتطورهذه النقابة فلا ندري إن ظل السقاؤون موحدين في نقابة واحدة أم أنهم انقسموا- مع التقدم في الزمن- إلى عدة نقابات كما هو الشأن في العهد العثماني، وقد دلت على ذلك دراسة اندري ريمون. وإذا كان الانقسام قد حصل فهل كان على أساس الأصناف داخل هذه الطائفة، أم على أساس توزعها المجالي؟

1 عبد الفتاح عاشور، نفس المرجع، ص. 36-37.

ونرجح أن يكون تعدد النقابات قد حصل على الأقل في أواخر العهد المملوكي وذلك بناءا على أن هذا التعدد في أوائل العهد العثماني، ما هو إلا امتداد وتتويج لما كان قد استقر من أمر هذا التنظيم المهني في أواخر العهد الذي سبقه. كما أنه ليس بحوزتنا معطيات عن طقوس الترسيم (Rites d'initiation) عند انتماء عنصر جديد إلى هذه الطائفة، أو الزي الخاص الذي يميز السقائيين عن غيرهم من أهل الحرف مثلما هو الحال في العهد العثماني[1]. ويمدنا الحسن الوزان بنص يشير إلى المراهنات التي قد تقع بين السقائين، والاحتفاء بالفائز في المراهنة في حفل بهيج يخترق شوارع المدينة يحضره السقاؤون.[2] وهو ما يدل على أن هؤلاء كانوا على وعي بأنهم يشكلون طائفة مهنية واحدة لأفرادها نفس المشاغل وبموضعهم في البنية الاجتماعية والمهنية وبالتضامن الآلي الذي نجده عادة لدى أصحاب المهنة الواحدة.

وإلى جانب دور النقيب في الإشراف على أهل المهنة، فان السلطة الحاكمة كانت تقوم أيضا بدور الرقابة على السقائين وغيرهم من أصحاب المهن والحرف عن طريق المحتسب الذي كان له حق الإشراف على الاسواق وكان مسؤولا عن الأسعار والنواحي الصحية[3]. وقد حدد ابن الإخوة المهام التي يتوجب على المحتسب أداؤها عند مراقبته للسقائين فهي تتعلق بنظافة الأواني، ونظافة المياه وصلاحيتها، والتصدي لكل محاولات الغش وبسير عملية النقل[4]. ويبدو أن دور المحتسب لم يكن كافيا لمراقبة أهل هذه المهنة لذلك ينصح ابن الإخوة بأن " يعرّف عليهم رجلا أمينا "[5]. فهل يكون المقصود بهذا العريف نقيب السقائين نفسه لكونه أعلم بتفاصيل وخفايا المهنة؟

1- Raymond (A) « Les porteurs d'eau … », p190-191.

2 الحسن الوزان، نفس المصدر، ج. 1، ص. 218.

3 قاسم (عبده قاسم)، نفس المرجع، ص. 21.

4 .- ابن الإخوة، نفس المصدر، ص. 239-241.

5 نفس المصدر، ص. 240.

ومن البديهي القول أن" جيش" السقائين هذا ينتمي اجتماعيا إلى فئة العامة رغم أن بعض النقباء ينتمون إلى فئة الأعيان، وإن كان هذا العدد كما أسلفنا متواضع للغاية[1] قياسا إلى فئات أخرى مثل الأمراء والعلماء والأدباء وحتى كبار التجار. ولعل تثمين الفقيه ابن الحاج لمهنة السقاء جاء ليرفع غبنا عن هؤلاء لحق بهم إذ أنهم يقومون "بتيسير الماء على إخوانهم المسلمين وإزالة النجاسات ورفع الحدث "[2]. وقد حدد هذا الفقيه الناقد في كتاب المدخل مدونة سلوك على السقائيين الالتزام بها حتى لا يخرج على حدود الشريعة الإسلامية حسب ما يراه هذا الفقيه وتمس جوانب عديدة مثل تقيد السقاء بحدود هذا الشرع بأداء واجباته الدينية والحرص على النظافة الشخصية ونظافة الأواني التي ينقل فيها الماء، وعدم الغش في نوعية الماء أي صلاحيته، وإجمالا توفير أدنى شروط حفظ الصحة. كما يحرص أيضا على عدم التصرف في طلبيات الماء المخصصة للحرفاء أو التحيل والغش فيما يتعلق بكمية الماء، أو السعر، وأخيرا التقيد بآداب دخول بيوت الحرفاء [3].

III- تزويد الحاضرة المملوكية بالماء:

تمر عملية التزويد بثلاث مراحل:

1) التزود بالماء:

وتبدأ أولا بتخير مواضع تعبئة الماء فليست كل مياه النيل صالحة للتزود منها، ويبدو أن هناك ما يسمى بالمشارع- (وتسمى أيضا الموارد والمشارب)- وتكون في مواضع معينة على النيل يملأ منها السقاؤون المياه فيذكر المقدسي

1 ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، 1966، ج. 3.، رقم الترجمة 1896، ص. 217.

2 ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، المعروف بالمدخل، دار الفكر، بيروت، (د.ت)،ج. 4، ص. 179.

3 المصدر نفسه، ج. 4، ص. 179-182.

أن للسقائين " مشارع على الشط "[1] وهذه المشارع تتميز بنقاوة وصفاء الماء وصلاحيته للاستهلاك الآدمي. ويكون اختيار المشارع هذه طبقا لطبوغرافية المدينة، وسهولة النقل، وسرعة الوصول إلى الحريف، فضلا عن صلاحية الماء للاستهلاك. وقد توزع السقاؤون على قطاعات سكنية محّددة لنشاط كل مجموعة. ولعل أشهر هذه الموارد في هذا العهد" موردة السقائين" الواقعة جنوب غرب القاهرة باتجاه باب زويلة[2]، ومن الموارد الأخرى" موردة الجبس" و" موردة البلاط" .[3] والحقيقة أن من دواعي حسن تخير مواضع هذه الموارد أن مياه النيل كانت عرضة للتلوث إذ يشير المقريزي إلى ذلك متحدثا عن "البطائح الواقعة بين القاهرة والفسطاط – التي- تمتلئ من رشح الأرض أيام الفيضان وتصب فيها بعض خرارات القاهرة"[4]. كما أن مياه النيل في فترة الفيضان تكون غير نقية بالقدر الكافي باعتبار أن النهر يحمل معه مادة الطمي، فيكون الماء عكرا. كما يصبح النيل اثناء النكبات الديمغرافية مقبرة لقسم من الأموات إذ يلقى بجثثهم في النهر لترسب في قاعه أو يحملها التيار، وقد حصل ذلك في طاعون 1348 م وغيره من الطواعين أو المجاعات الرهيبة- التي تكررت كثيرا في هذا العهد - نتيجة العجز عن مواراة العدد الهائل للموتى[5].

وإضافة إلى كل هذا يرصد الفقيه ابن الحاج العديد من المخالفات التي يرتكبها بعض السقاءين، وهو ما يعده "غشا وارتكابا للاثم يحاسب عليه". ففيما يتعلق بالتعبئة والتزود يعدد بعض ما يراه مخالفات تستوجب الردع من ذلك:

---

1 المقدسي، نفس المصدر، ص. 206.

2 المقريزي، نفس المصدر، ج. 2، ص. 147.

3 ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، 1992، ج. 10، ص. 199؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية، 1970-1974، ج. 13، ص. 186.

4 المقريزي، نفس المصدر، ج. 2، ص. 365 .

5 ابن تغرى بردي، نفس المصدر، ج. 1، ص. 472.

- ملأ بعض السقائين الماء قريبا من حافة النهر وهذا الموضع" قل أن يسلم من الفضلات لما تصرفه بعض المنشات كالحمامات والوراقات" لذلك يلح مثله مثل ابن الإخوة على ضرورة الدخول في البحر حتى يتم الابتعاد عن مواضع الأوساخ[1].

- أو ما يقوم به بعض السقائين (خاصة باعة التجزئة) من خلط مياه الآبار (التي تكون عادة مالحة) بماء النيل فيؤثر ذلك على مذاق و" طهارة" الماء، هو ما يتطلب التأديب في حالة حصول الغش حسب ابن الإخوة[2].

ثانيا لا يكفي حسن اختيار مواضع التزود بالماء فقبل ذلك لا بد من أن تكون الأواني (الروايا، القرب) صالحة لتعبئتها بالماء ويتعلق الأمر هنا أساسا بالمواد الجلدية المستخدمة في صناعة الأواني وكذلك المواد الطبيعية أوالكيمياوية التي تحافظ على متانتها وهي[3]:

- دباغة الراوية أو القربة فإذا كانت الدباغة حديثة فمن الضروري الامتناع عن تزويد الحرفاء بالماء وتحويله إلى المشاغل لأن الماء غير صالح للاستهلاك الآدمي.

ويبدو أن ذلك من المخالفات الشائعة والتي حرص ابن الإخوة على التأكيد عليها وحث السقائين على الإمتاع عن ارتكابها وردعهم بما يتناسب من العقوبة. كما عدد ابن الإخوة جملة من المخالفات الأخرى مثل:

- صنع الروايا من جلود البغال وما شابه ذلك.

- استخدام جلود مسوسة.

---

1 ابن الإخوة، نفس المصدر، ص. 240، ابن الحاج، نفس المصدر،ج. 4، ص. 176.

2المصدر نفسه، ص. 239.

3 المصدر نفسه، ص. 240.

- عدم سلامة الأواني بوجود ثقوب بالروايا والقرب وينتج عن ذلك إنقاص من كمية الماء[1] .

وتتم عملية التزود على مدار الساعة ليلا نهارا فالقاهرة مدينة لا تنام يتصل ليلها بنهارها دون توقف للعديد من الأنشطة لاسيما بوسط المدينة[2].

2) نقل الماء: مكابدة يومية:

اثر ملء الروايا بالماء وحملها على ظهور الجمال والبغال والحمير ينطلق السقاؤون نحو المدينة في المناطق أو القطاعات التي اختصوا بالنشاط فيها، لكن عملية النقل هذه فيها مكابدة يومية نظرا للاكتظاظ وسط المدينة بصورة دائمة وهو ما أشار إليه الرحالة[3] إضافة إلى ضيق أزقة المدينة، كما يعطل حركة السير وهذه الطرق يستعملها البشر والحيوان: الجمال والبغال والحمير، فذكر ابن الحاج أن عدد المكاريين الذين ينقلون زبائنهم للتنقل على ظهور الحمير بأجر داخل القاهرة أو إلى خارجها بنحو 30000 مكار[4]. ويضاف إلى ذلك دواب نقل البضائع الأخرى مثل البغال والجمال المحملة بالتبن أو الحطب أو الحبوب... مما استدعى تحجير دخولها لبعض جهات القاهرة في فترات سابقة [5]. وقد أدى ضيق الطرقات وكثرة مستخدميها من مارة ودواب إلى اختناق حركة السير داخلها. فكان التحرك داخل القاهرة من المشاكل الكبرى لهذه المدينة[6]، ويؤدي ذلك طبعا إلى مفاقمة متاعب أهل هذه المهنة.

---

1 المصدر نفسه، ص. 240، ابن الحاج، نفس المصدر، ج. 4، ص. 177.

2 العبدري، نفس المصدر، ص. 128؛ الحسن الوزان، نفس المصدر،ج. 1، ص. 217.

3 عاشور(سعيد عبد الفتاح)، نفس المرجع، ص. 84.

4 ابن بطوطة، نفس المصدر، ج1.، ص. 55.

عاشور (سعيد عبد الفتاح)، نفس المرجع، ص. 84..

5 المقريزي، الخطط، ج. 2، ص. 117.

6 ابن الحاج، نفس المصدر، ج. 4، ص. 178.

وما بين الموارد التي يقع التزود منها بالماء، ومراكز الوصول بالمدينة تمتد خطوط متحركة للسقاءين ودوابهم في حركة ذهاب وإياب لا تكاد تنقطع طوال اليوم، وعلى مر السنين. وهذه اللوحة تعد أيضا جزءا من المشهد الحضري للقاهرة المملوكية. ويلاحظ خلال حركة الذهاب والإياب تعجل السقائين وإرهاقهم لأنفسهم ودوابهم، وتكون السرعة أكبر عند العودة، كل ذلك بغاية تحقيق أكبر عدد ممكن من الطلبات وبالتالي تحقيق مزيد من الكسب. وقد انتقد ابن الحاج ذلك واقترح أن يكون المشي بالدواب "متوسطا " فلا يسرع -السقاء- في السير بالجمل ولا يبطئ فيضر به، بطول مكث النقل عليه" [1] .

وبما أن التنقل داخل المدينة يتسم بالصعوبة البالغة ولتسهيل ذلك اعتاد السقاؤون من مسافة بعيدة النداء لتنبيه المارة لإفساح الطريق وتجنب التدافع والإحتكاك. هذا النداء يتمثل في الصلاة على النبي وهو الأمر الذي استنكره الفقيه ابن الحاج باعتبار أن "الصلاة على النبي يكون فقط من باب التعبد والتقرب"[2].- ويقترح ابن الإخوة، الذي يؤكد ضمنيا ما ذهب إليه ابن الحاج"، بأن توضع أجراس وصفاقات حديد في أعناق الدواب- (جمال، بغال، حمير...)- "، فيصدر منها صوت يكون منبها للمارة للابتعاد قليلا عن طريق السقاء. لكن يبدو أن هذا الاقتراح لم يؤخذ به والدليل على ذلك استمرار استخدام هذا النداء طيلة هذا العهد وأيضا في العهد العثماني.

وهذا التنقل غير المريح يؤدي إلى التدافع أحيانا ووقوع مشاحنات يؤدي بعضها إلى تبادل العنف وربما إلى سقوط ضحايا، فقد انتهت إحدى المشادات بين سقاء وأحد المارة بمقتل السقاء بطعنة سكين،[3] لكن يبدو أن مثل هذه

---

1 نفس المصدر، ج. 4، ص. 182.

2 ابن الأخوة، نفس المصدر، ص. 240.

3 ابن عبد الطاهر، نفس المصدر، ص. 89.

المشادات العنيفة جدا هي من الحالات النادرة. ومحافظة على نظافة كل ما يعترض السقاء في طريقه، يؤكد كل من ابن الإخوة وابن الحاج على ضرورة إحكام إغلاق الروايا والقرب وتغطيتها بكساء حتى لا يبلل المارة ويلطخ الجدران ويحدث الماء المنساب منها الأوحال في الطرق والدروب مما قد يفاقم من مشكلة المرور.[1] وبالرغم من كل ذلك فبعد عناء كثير أو قليل يصل السقاء إلى وجهته أين يتم تفريغ حمولة الماء.

3) إفراغ الحمولة والتسويق:

تكون حمولة الماء موجهة عادة إلى:

أ. المنشات العامة المرتبطة عادة بالأوقاف:

يقوم السقاءون بتفريغ جزء من الحمولة في خزانات الأسبلة والصهاريج والتي تكون ملحقة بمنشآت متنوعة: جنائزية مثل الترب أو تعليمية، (كتاتيب، مدارس..) أو دينية (مساجد وجوامع) أو أحواض لشرب الدواب وأحواض المشاغل الحرفية.

ب. يوجه القسم الآخر إلى الاستهلاك المنزلي بإفراغ الماء لدى الحريف:

يبدو أن لكل سقاء حرفاؤه "الثابتين" أو" الأوفياء"، فيدخل بيوتهم دون تكلفة أو استئذان[2].

- يتم تفريغ الماء داخل البيت في أزيار تكون من الفخار. ويكون سكب الماء من الراوية إلى القرب ومنها إلى الزير. لكن عملية إفراغ الماء لدى الزبون تعد من وجهة ابن الحاج بالغة الحساسية فلها قواعدها وآدابها التي يجب

---

1 ابن الحاج، نفس المصدر، ج. 4، ص.179؛ ابن الأخوة، نفس المصدر، ص. 240.

2 ابن الحاج، المصدر نفسه، ج. 4، ص. 187 .

التقيد بها بدقة شديدة تلافيا لكل محذور، وهي ملزمة من "وجهة الشرع" لعدة أطراف وهي السقاء أو صبيّه، وصاحب البيت و"حريم البيت".

وبما أن السقاء أو صبيه سيدخل بيوت الحرفاء وإمكانية أن يقع نظره على" الحريم " وربما تطور الأمر إلى أكثر من ذلك فلا بد أن " يحذر السقاء أو صبيه " من التواصل بأي شكل من الأشكال "بالحريم" صونا لحرمة بيت الحريف ملتزما " بمدونة سلوك" وضعها ابن الحاج كان منطلقها وقاعدتها الشرع كما فهمه صاحبها [1] وتتمثل في:

الاستئذان قبل الدخول وعدم انتهاك حرمة البيت ورؤية الحريم، ويجب أن يكون سكب الماء بحضور صاحب البيت وإن تعذر ذلك فبحضور أحد من أقاربه أو من عبيده ممن يوصفون بالأمانة[2]. وفي حالة عدم قدرة السقاء على أن يقوم بنفسه بإفراغ الماء، فيتوجب عليه أن يعين صبيا من صبيانه ممن يثق بأمانته. وتجدر الإشارة إلى عدم الالتزام بهذا من قبل بعض السقائيين، فابن الحاج نفسه يشير إلى ما يسميه بـ "أدلال بعض السقائين على حرفائهم ممن تعودوا التعامل معهم ودخول بيوتهم بدون كلفة ويصل الأمر إلى تبادل الأحاديث مع نساء البيت.[3] التطلع للحريم داخل البيت أو تطلعهن إلى السقاء أو صبيته وبذلك يكون هذا الفضاء المحرم على الأجنبي قد فقد وظيفته. والاطلاع على مفاتنهن وعادة ما يكون بعضهن وحيدات في البيت وبعضهن متبرجات بدعوى أن لا شيء يحدث بينهم ونفي تلك الصلات التي تقع بين السقاء وحريم البيت[4].

1 المصدر نفسه،ج. 4، ص. 175-182.

2 المصدر نفسه،ج. 4، ص. 179.

3 المصدر نفسه، ج. 4، ص. 179-180.

4 المصدر نفسه، ج. 4، ص. 180.

هذه التوجيهات هي صدى لواقع معيش في مجتمع يفصل بين الذكور والإناث واعتبار أن "عالم الحريم" هو عالم موصد أمام الغرباء، لكن هذه الموانع يقع التحايل عليها وتخطيها من قبل السقاء بربط صلات عادية مع "حريم البيت" باعتبار أنه لا يعد من الغرباء، وقد يتعدى الأمر هذا الحد إلى أن يلعب السقاء أو صبيه دور الوسيط في علاقات بعض الحريم بأشخاص آخرين، وتلك وسيلة للتحايل على الرقابة الاجتماعية.

وهذا الأمر خطير للغاية في نظر ابن الحاج لكونه يهدد سلامة العائلة والمجتمع، ويعدّ انتهاكا سافرا للقيم السائدة مما يستوجب التصدي بحزم لهذه الظاهرة. إن عدم احترام السقاء أو صبيه لهذه "الحرمة" يستوجب الردع وأدنى وسائل الردع حسب ابن الحاج هو المقاطعة وترك التعامل معه.

ولا يتعلق الأمر عند حدّ التعامل بين السقاء والحريف على إفراغ شحنة الماء، بل إن عملية البيع تسبب أحيانا في حصول خصومات ومشاحنات بينهما، قد تتعلق بكمية الماء أو بسعره، أو بتوقيت إفراغه في أواني البيت أو لافتقار بعض السقاءين لآداب التعامل مع الحريف مما يستدعي وقف التعامل معه[1]. وتسجل المصادر عديد حالات الغش والتحيل على الحريف من قبل السقاء أو صبيته، أو تحايل الصبي على معلمه وتتعلق بـ:

- التحيل بخصوص كمية الماء المسلمة للحريف إذ رصد لنا ابن الحاج أنواعا عدة من أساليب وطرق الغش التي يرتكبها السقاء في حق حريفه، وذلك بالتنقيص من كمية الماء التي يصبها في أزيار الزبون بعدم ملأ الراوية أو القربة، والتصرف في الكمية "المختلسة" بالبيع أو الهبة[2] دون تفطن صاحب

1 المصدر نفسه، ج. 4، ص. 178-179.

2 المصدر نفسه، ج. 4، ص. 178.

الشأن أو اختلاس الصبي لمعلمه أو للحريف بالتصرف في جزء من ماء - الروايا أو القرب- بالبيع والهبة أو الاستيلاء على الثمن لحسابه[1].

– الغش في نوعية الماء المسلم للحريف بأن يكون قد ملأه ليلا فلا يضمن صلاحيته للاستهلاك الآدمي[2] وكذلك خلط مياه الآبار "المالحة" بماء النيل[3] وهذا يتعلق خاصة بسقائي الاكواز.

– توقيت تسليم الماء باختيار أوقات غير مناسبة مثل التسليم عند القائلة أو عند المساء، ومن المفترض هنا حسب ابن الحاج الامتناع عن تسلمه.

– كيفية دفع ثمن شحنة الماء، إذ يذكر هذا الفقيه أن بعض السقائيين يتسلمون الثمن" معجلا" وفي ذلك إضرار بالحريف من حيث تسليم بقية الشحنات أو نوعية الماء[4]. ونحن لا نعرف بالضبط كيفية الدفع فهل هناك اتفاق بين السقاء والحريف خاصة إذا كان من حرفائه الثابتين، فهل يكون الدفع مسبقا أو فوريا بعد تسلم شحنة الماء أو الدفع المؤجل ؟.

وهذا يجرنا للحديث عن الأسعار والمداخيل المتأتية من هذا العمل.

VI- الأسعار والمداخيل ومهام أخرى للسقائين:

1) الأسعار والمداخيل:

إن المعطيات شحيحة جدا، وما أمكن جمعه من معطيات يهم بعض الأسعار أثناء فترات استثنائية: يبدو أن سعر راوية الماء في النصف الأول من القرن الرابع عشر بلغ نصف درهم وربع حسب المقريزي[5]. لكنها خلال هذا

1 المصدر نفسه، ج. 4، ص. 181.

2 المصدر نفسه، ج. 4، ص. 181

3 ابن الإخوة، نفس المصدر، ص. 239.

4 ابن الحاج، نفس المصدر، ج. 4، ص. 181.

5 المقريزي، نفس المصدر، ج. 2، ص. 167.

العهد الطويل كانت عرضة للارتفاع لأسباب مختلفة. والجدول التالي يبين تطور الأسعار أو غلاء سعر الراوية دون تحديد قيمة هذه الزيادة:

السنة	تطور الأسعار	المصدر
702هـ /1303م	4 دراهم/الراوية	المقريزي، السلوك،، ج1، ص938.
747هـ-748هـ/1345م-1346م	- من نصف درهم وربع إلى درهمين حسب المقريزي ومن نصف درهم إلى درهمين حسب السيوطي	المقريزي، الخطط، ج2، ص167. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص302.
749هـ -1348م	8 دراهم حسب المقريزي و12 درهما حسب ابن إياس	المقريزي، السلوك، ج2، ص786. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص1991.
774هـ - 1373م	5 دراهم	ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص229.
806 هـ - 1404م	ارتفاع سعره؟	المقريزي، الخطط 2، ج2، ص132.
855 هـ - 1450م	أزيد من عشرين درهما؟	ابن تغرى بردي، حوادث الدهور،، ج2، ص318.
892هـ - 1487م	غلاء عام بما فيه سعر الماء؟	ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص237.
893هـ - 1488م	تضاعف سعر الراوية ثلاثة مرات؟	ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص247.

وتتعدد العوامل المؤثرة في تطور الأسعار ويمكن تلخيصها إجمالا في العوامل التالية:

- عوامل طبيعية مرتبطة بما أشرنا إليه سابقا بالابتعاد الثابت والمستمر لمجرى النيل نحو الغرب مبتعدا عن المدينة مسببا مشكلة التزود خلال هذه الفترة الطويلة رغم محاولات بعض السلاطين معالجة هذا الأمر لكن دون نتائج ملموسة:

غير أن عاملا طبيعيا أخر قد يمنع هذا التزود ويتمثل في تلوث الماء كتغير لونه أو مذاقه مثلما حصل في سنة 881 هـ - 1473 م فالتجأ الناس (القاهريون) إلى ماء الآبار رغم ملوحة أكثرها[1].

- عوامل صحية وتتمثل في انتشار الأمراض الوبائية المتكررة بصفة دورية من ذلك طاعون عام 815 ـ-816 هـ/ 1412- 1413 م إذ بلغ سعره خمسة عشر درهما لقّلة السقائيين.

- عوامل اقتصادية – نقدية الناتجة عن التلاعب بقيمة العملة بتخفيض قيمتها أو نتيجة غلاء عام، ففي المحرم-من عام (892هـ -1487م)- " كانت الأسعار مشطة جدا في سائر البضائع، فصارت البضائع من المأكل والمشرب – بسبب الفلوس الجدد – حتى غلاء سعر الراوية" [2].

- عوامل سياسية – أمنية: تتمثل خاصة في تحركات الجند المملوكي وإخلالهم بالأمن في العاصمة بسبب ضعف بعض السلاطين خاصة في العهد الجركسي، وذلك في إطار الأزمة الهيكلية التي دخل فيها النظام المملوكي في عهده الثاني (1382م-1517م). فكان من جملة ضحاياهم - وهم كثر- السقاؤون وأصحاب الطواحين باستيلائهم على دوابهم لاستعمالها في حمل أثقالهم في الحملات العسكرية، أو لاستخدامها في نقل ما ينهبونه من الأسواق أو من أهرات الأمراء وغيرهم، مما يتسبب في شلل الأنشطة الاقتصادية بالمدينة بإغلاق الأسواق والامتناع عن البيع والشراء، وحدوث أزمات ظرفية في التزود بالماء وغلاء في أسعاره، مثلما حصل في شوال 878 هـ - 1473م حينما تم الاستيلاء على بغال السقائيين وفي 890 هـ - 1486 م، وتكرر الأمر

1 نفس المصدر، ج. 3، ص. 119.

2 نفس المصدر، ج. 2، ص. 237.

مما تسبب في نقص التزود وفي محرم 893 هـ - 1488 م تضاعف السعر ثلاث مـرات [1] لنفس السبب.

وبناءا عـلى المصـاعب الجديـة التـي كانـت تـلازم عمـل السـقائين فهـل كانـت مداخيلهم تتناسب مع مشاق هذه المهنة؟ لا تمكننا المصادر من معرفة هـذا الجانـب، غير أن معطى أورده ابن الحاج عن أحد مواطنيه من بلاد المغرب استقر لبعض الوقت بالقاهرة وكان في طريقه إلى الحج واشتغل سقاءا بنقل الماء من النيـل بالقربـة، فـذكر أن دخله اليومي يصل إلى نحو خمسة دراهم، فيكون بذلك دخله الشـهري نحـو 150 درهـما أي مـا يسـاوي حـوالي7 دنـانير وهـو دخـل طيـب ولا شـك لشـخص أعـزب [2]، وبالضرورة فإنه لا يمكن القياس على هذا المثـال فـلا نشـك أن السـقائين مـن أصـحاب الروايـا الـذين يملكـون إمكانيـات أكـبر بكثـير مـن هـذا السـقاء الطـارئ عـلى المهنـة بامتلاكهم الروايا والقرب ودواب النقل سيكون دخلهم أعلى بكثير. كما يذكر المقريـزي أن بعض الفترات كان يرتفع فيها دخل السقاء أنه حدث غلاء كبير بسـبب الاسـتبحار- (أي تجاوز الفيضان المستوى المطلوب- (17 ذراعا). كـان ذلـك سـنة 1323 م بسـبب قلة اليد العاملة في شتى الأنشطة الاقتصادية بالمدينة بما في ذلك حرفة السقاية [3].

صحيح أن مدا خيل السقائيين ترتفع في فترات الأزمـات نتيجـة الغـلاء أو نقص العاملين في القطاع (بسبب الأوبئة والمجاعـات أو غـيرهما مـن الأسـباب)، لكن لا نظن أن الدخل سيكون مرتفعا بالنسبة لسقائي الأكواز إذ أن سعر الكوز في آخر العهد المملوكي حسب الوزان هو نحـو نصـف فلـس[4]. وبالتـالي فنعتقـد أن ما يحصل عليـه هـؤلاء مـن أجـر سـيكون متواضـعا. أمـا بالنسـبة لأصـحاب

---

1 نفس المصدر،ج. 3، ص. 94، 222، 247.

2 ابن الحاج، نفس المصدر، ج. 4، ص. 208.

3 Ashtor (A.), *Histoire des prix et des salaries dans l'Orient médiéval*, Paris 1969, p. 372

4 الوزان، نفس المصدر، ج.1، ص. 218.

"الحوانيت " فمن المحتمل جدا أن يحصل باعة هذا القطاع على مداخيل أعلى من زملائهم أصحاب الأكواز المتجولين باعتبار تجهيزات العمل التي بحوزتهم من" دكاكين وأزيار". ورغم نظافة و"جمال الإطار" الذي كان يقدم فيه هؤلاء بضاعتهم النفيسة خصوصا الباعة المتجولون، ونداءهم عليها لجذب الحرفاء[1]، فإن ذلك لم يمنع المحتسب ابن الإخوة من التشديد على مراقبة نظافة أواني السقائين ومعاقبة المخالفين-كما أسلفنا القول-. بل يصل الأمر إلى الدعوة لمنع السقائين غير الملتزمين" بشروط حفظ الصحة" من العمل باغلاق محلاتهم. كما يحدد بتفصيل لافت حجم الكوز وسعته، ويضيف إلى ذلك جانبا آخر وهو ضرورة مراعاة التراتبية الإجتماعية عند التعامل مع الحرفاء بتخصيص أكواب خاصة بعلية القوم[2]. وقد ترك لنا الوزان وصفا شيقا لهذا الصنف فهم: " يحملون ... على أعناقهم قربا مزخرفة في أفواهها أنابيب من نحاس، وبأيديهم طاسات دمشقية منقوشة نقاشا فنيا، يسيرون وهم ينادون على الماء."[3]

وفي هذه الحاضرة الكبرى لم يكن بإمكان بعض سكانها أو الوافدين عليها اقتناء الماء من باعته لقلة ذات اليد أو لأي سبب آخر فقد كان بإمكانهم الحصول عليه مجانا من الأسبلة والصهاريج التي أنشأها أصحاب الأوقاف، بل إن بعض أهل البر كانوا يوقفون "حوانيت للسقاية" توفر الماء للراغبين من عابري السبيل[4]، كما سخر بعض السقائين المتجولين أنفسهم لسقاية المارة بدون مقابل رغبة في الحصول على الثواب الأخروي.[5]

وكان من مشاغل القاهريين والسقائين تنقية وتبريد ماء النيل حتى يكون مستساغا للشرب وقد ابتكروا لذلك عدة أساليب. فذكر المقدسي أن المصريين

---

1 المصدر نفسه، ج.1، ص. 217؛ Fabri (F.), *Op. cit*, t. 2, p. 569.

2 ابن الإخوة، نفس المصدر، ص. 239.

3 المصدر نفسه، ج.1، ص. 217.

4 المقريزي، الخطط، ج. 2، ص. 209.

5 Fabri (F.), *Op. cit.* , t. 2, p. 569.

كانوا "يلقون في ماء النيل أيام زيادته نوى المشمش ليطفو ويبرد"[1]. ونبّه ابن الإخوة إلى ضرورة أن تكون " الكيزان عنده – أي السقاء – معلقة ليضربها الهواء فتبرد وينبغي أن يتخذ للأزيار أغطية من خوص مصلبة بجريد"[2]. ومن الوسائل الأخرى للتبريد وضع قلال الفخار اثناء النهار على المشربيات – وهي ذات دور وظيفي وجمالي إذ تقوم بدور التهوئة والإنارة من خلال تخريمات الخشب[3] – ليهب النسيم البارد ليبرد الماء ويفقد شيئا من سخونته" [4]، وهي أساليب في تنقية الماء وتبريده ظلت مستخدمة في العهد العثماني.[5]

2) مهام أخرى للسقائين:

كانت تتم الاستعانة بخدمات السقاءين من قبل السلطة المملوكية متى تطلب الأمر ذلك، ومن المهام التي كانوا يكلفون بها القيام بدور رجال المطافئ عن طريق التسخير، وهي ظاهرة قديمة تعود إلى العهد الفاطمي (وربما قبل ذلك) إذ كان مطلوبا منهم آنذاك وضع أزيار على الاسواق مملوءة ماء لاستخدامها عند نشوب الحرائق[6]. وهذا الدور استمر في العهد المملوكي، ففي عصر المقريزي كان مطلوبا من السقائيين وبالتعاون مع أصناف حرفية أخرى التجنّد للمساهمة في إطفاء الحرائق تحت إشراف صاحب العسس (أو والي الطواف). فيقول المقريزي: "وكان فيما أدركناه- سوق الجملون الكبير – شارعا مسلوكا طوال الليل يجلس تجاهه صاحب العسس الذي عرفته العامة في زماننا بوالي الطواف من بعد صلاة العشاء في كل ليلة وينصب أمامه مشعل يشعل النار طوال الليل وحوله عدة أعوان وكثير من السقايين والنجارين

1 المقدسي، نفس المصدر، ص. 206.

2 ابن الإخوة، نفس المصدر، ص. 239.

3 قاجه (جمعة احمد)، موسوعة العمارة الإسلامية، طبعة أولى، بيروت – دمشق 2000، ص. 146.

4 Thévenot (J.), *Voyage du Levant*, Paris, 1980, p. 313-314.

5 Raymond (A.), « Les porteurs d’eau … », *Op. cit*, p. 185.

6 المقريزي، الخطط، ج. 2، ص. 107- 108.

والقصارين والهدادين. بنوب مقررة لهم خوفا أن يحدث بالقاهرة ليلا حريق فيتداركون اطفاءه ..."[1]. فحينما شب حريق ضخم بخط البندقايين وامتد إلى مناطق مجاورة سنة751 هـ - 1350 م بسبب هبوب ريح عنيفة، جند السقاءون لاطفاءه [2].

كما كان السقاؤون في خدمة موسم الحج حيث كان بعضهم ملزما بمرافقة موكب المحمل الذي يتجه الى الحجاز حاملا كسوة الكعبة بمكة.[3] ولا شك أن ركب الحجيج سواء المصري أو المغربي كان يحتاج إلى خدمة السقائيين في رحلتهم إلى البقاع المقدسة.

كما أن الحملات العسكرية سواء داخل البلاد لقمع انتفاضات العربان أو تلك المتجهة إلى الحدود الشمالية الشرقية وتحديدا الإمارات التركمانية ودولة العثمانيين كان للسقائين دور يتمثل خاصة في مصادرة دوابهم وأوانيهم (الروايا والقرب) ليستعملها الجند أثناء هذه الحملات [4] .

---

1 نفس المصدر، ج. 2، ص. 103.

2 المصدر السابق، ج2.، ص. 31، 514..

3 ابن بطوطة، نفس المصدر، ص. 65.

4ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج. 13، ص. 39.

خاتمة:

رغم وقوع العاصمة المملوكية على حافة النيل وهو المصدر الـذي يكـاد يكـون الوحيد لتزويدها بالماء، إلا أنها لم تكن قادرة على تأمين حاجياتها بشـكل يسـير بـل إن التزود بالماء كان يمثل معضلة حقيقية لهذه الحاضرة بفعل كثرة سكانها وكثافة وتنـوع أنشطتها الاقتصادية واتساع مجالها نتيجـة عـدم وجـود شـبكة قنـوات تـربط المدينـة بالنهر.

قبل هذا العهد وبعده كـان السـقاؤون يقومـون بهـذه المهمـة فكـانوا جـزءا لا يمكن إغفاله من المشهد الحضري للعاصمة المصرية. كان هؤلاء يمثلـون طائفـة مهنيـة كبيرة العدد ورغم تعدد أصناف السقائيين داخل هذه الطائفة فـإنهم مثلـوا "جسـما " مهنيا قائم الذات يشرف عليه نقيب والى جانبـه كـان المحتسـب الـذي يمثـل السـلطة يقوم بمراقبة نشاط هذه الطائفة في مختلف مراحله.

ولم تكن عملية تزويد المدينة بالمهمة السهلة اذ كانت صعوبات عديدة تعترض السقائيين منذ مرحلة تعبئة الماء من النيل إلى مرحلة النقل ثم تفريغ الروايـا والقـرب لدى الحرفاء أو في المنشات المائية الخيرية مثل الأسبلة ولعل أخطرهـا المشـادات التـي قد تحدث بينهم وبين الزبائن أو المارة أو اعتداءات الجند المملوكي التي اسـتفحلت في العهد الجركسي. ومع ذلك فان هذه الطائفة ظلت تقوم بنشاطها اليومي دون انقطاع طيلة قرون عديدة، إلا أن هذه المهنة ستبدأ في الانقراض التدريجي منذ أواخـر القـرن التاسع عشر عندما بدأت السلطة الحاكمة في إنشاء شبكة قنوات تؤمن الماء للمدينة - كما هو الحال بالنسـبة لتجهيـزات أساسـية أخـرى- فكـان ذلـك إيـذانا بـدخول هـذه العاصمة طورا حضاريا جديدا.

مدخل لدراسة البغاء
في مصر المملوكية*

المقدمة :

لم يحظ بعد موضوع البغاء – في المجال الإسلامي – بالدراسات الكافية من الوجهة التاريخية، إذ لا يزال من المسائل المسكوت عنها وإن تمت الإشارة إليه باحتشام وقلما التفت الباحثون لهذا الموضوع الذي نرى أنه يستحق الدراسة كغيره من القضايا الاجتماعية. والحقيقة أن صعوبات عدة تعترض الباحثين في هذه المسألة، منها شحة المادة التاريخية، فالمصادر المملوكية رغم وفرتها الكمية لا تلتفت إلى الوقائع الاجتماعية إلا بقدر ما تتصل بالجوانب السياسية وتحديدا بالماسكين بالسلطة السياسية، فهل نتوقع منها حديثا عن البغاء ؟ كما أن النظرة الأخلاقية السائدة عصرئذ ساهمت إلى حد بعيد في تجاهل موضوع البغاء باعتبار أن هذه الظاهرة الاجتماعية هي أحد الأشكال الأكثر تعبيرا عن الدرجة القصوى من الدنس، لذا كان مؤرخو تلك العهود ينأون بأنفسهم غالبا عن ذكر أخباره تجنبا لكل ما يمكن أن يحط من سمعتهم العلمية ومكانتهم الاجتماعية على اعتبار أن الموضوع برمته يدخل في باب " المحظورات " .

وقد طالت هذه النظرة المؤرخين المعاصرين إلا - في القليل النادر - فالتزموا جانب الصمت واتجهت دراسات التاريخ الاجتماعي إلى "القضايا الكبرى" وتجاهلت أو أجلت إلى حين القضايا التي تعد "جزئية" ومنها موضوع البغاء. ورغم سلامة هذا التوجه إلا أننا نعتقد أن البحث في هذه الظاهرة الاجتماعية ربما كان أحد المداخل المناسبة لتبين طبيعة العلاقة بين ما هو "هامشي" وما هو "أساسي ومركزي" في البناء الاجتماعي[1] كما يمكن أن تساعد دراسة الفئات الهامشية بإغناء الدراسات العامة وتدقيقها أو تعديلها كما قد تسمح بالتعرف على "عالم البغاء" الذي يلفه الغموض.

---

* نشر هذا المقال في، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، زغوان -تونس العدد28،أكتوبر2003.

1- Larguèche (D & A); *Marginales en terre d'Islam*, Ceres Production. Tunis, 1992, p14-15

I - الموقف الشرعي من الظاهرة والواقع التاريخي :

ورد لفظ البغاء وبعض مشتقاته في عدة مواضع من القرآن[1] على أننا نعثر في المعجم اللغوي على عديد الألفاظ المرادفة لكنها تتفاوت من حيث شيوع الاستخدام مثل العهر والزنا والدعارة والفجور ...[2] وفي المصادر المملوكية تستخدم عدة مصطلحات كلها تدل على نفس المعنى وهي "العواهر" و" البغايا " وخاصة " الزواني " و" بنات الخطأ " والتسمية الأخيرة واضحة الدلالة فهي تربط البغاء بالخطيئة والإثم واقتراف ما هو حرام من الوجهة الدينية، أما فيما يتعلق بتعريف البغاء، فقد شاع تعريف يكاد يكون متعارفا عليه وهو أن " البغي " هي تلك التي تبيع المتعة الجسدية لعدد من الناس غير محدود ولا منتقى بمقابل مادي[3]. وإذا ما طابقنا هذا التعريف على المجتمعات الإسلامية في كل عهودها فإن السراري والمحظيات لا يدخلن ضمن هذه الفئة.

و قد قنّن الفقه الإسلامي - مثل بقية المعاملات - العلاقات الجنسية وحصرها في نطاق مؤسسة الزواج والتسري واعتبر كل علاقة خارج هذا الإطار شكلا من أشكال الزنى التي تستوجب العقوبة والردع. فالبغاء هو أحد أشكال الزنى [4] ونظرا لأن هذه العقوبة قاسية شدد الفقه في الشروط التي تثبت هذه التهمة، وهي شروط من الصعب توفرها، وبما أن الإسلام قد أباح الزواج بأكثر من واحدة فإنه كان من المتوقع أن تختفي أقدم" مهنة في التاريخ " من بلاد الإسلام إلا أن الواقع لا يؤكد ذلك[5].

---

1 - النور الآية 33 – مريم، الآية 20-28

2 - لسان العرب، مادة: بغي – فحور – دعارة – زنا ... .

3 - سلام خياط، البغاء عبر العصور، إصدار رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، لندن – قبرص 1992، ص18 .

4 - الشافعي (محمد بن ادريس) " كتاب الأم "، تصحيح محمد زهدي النجار مكتبة الكليات الأزهرية 1961 ج6 ص 137 – 155 .

5 - Bouhdiba, (A) , *la sexualité en Islam*, Edition P.U.F. Paris 1982, p228 -

إذا ما اقتصرنا على مصر وبلاد الشام فإن دور البغاء كانت موجودة بمصر عند الفتح الإسلامي لهذا البلد [1] وجاء في خطط المقريزي نقلا عن البيهقي في معرض انتقاده لبعض الظواهر التي رأى فيها مخالفة للشرع في عصره من ذلك " تبرج النساء العواهر "[2] وقد وجدت هذه المهنة متنفسا لها في العهد الفاطمي وذلك فيما ابتكره الخلفاء الفاطميون من أعياد اللهو والمتعة[3]. أما في عهد الدولة الزنكية التي ظهرت في ظروف عصيبة كانت تمر بها المنطقة ورفعت لواء الجهاد ضد الصلبيين واستمدت الشرعية من دفاعها عن دار الإسلام إلا أن ذلك لم يؤد إلى اختفاء نشاط البغايا فبعد وفاة نور الدين زنكي "ظهرت الشرور وكثرت الخمور وكانت لا توجد في زمنه ...، ولا أحد يجسر أن يتعاطى شيئا منها ولا من الفواحش ... وانتشرت الفواحش وظهرت "[4]. وتواترت في العهد الأيوبي مراسيم التقنيين والمنع لهذه المهنة إذ أعاد الملك المعظم العمل " بضمان القيان والخمور والمغنيات وغير ذلك من الفواحش والمنكرات التي كان أبوه – الملك العادل – قد أبطلها "[5]. وفي عهد الملك الجواد بدمشق " أبطلت المكوس والخمور ونفيت الخواطئ[6]. وإذا كان العهد المملوكي (1249م – 1517م) في بعض أوجهه تواصلا للعهد الأيوبي، فكيف تعاملت الفئة الحاكمة الجديدة مع هذه الظاهرة خصوصا وأن المماليك وهم فئة غريبة عن البلاد ومن أصول رقية كانوا يبحثون باستمرار عن ترسيخ حكمهم بإضفاء الشرعية الدينية من خلال اتخاذهم عدة مبادرات في هذا الاتجاه؟

1- سلام خياط، نفس المرجع، ص 48 .

2 - المقريزي، الخطط، ج1 ص 366.

3 نفس المصدر، ج 1 ص 89. / سلام خياط، المرجع نفسه،ص54.

4 ابن كثير (الحافظ عماد الدين)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت – مكتبة النصر، الرياض 1977 ج13 ص 81

5 نفس المصدر، ج 13،ص 150 .

6 ابن كثير،نفس المصدر، ص 154

II- السلوكات الجنسية الشائعة خارج الأطر الشرعية في العهد المملوكي:

يجدر بنا قبل التعرض إلى وضع البغاء في هذا العهد الإشارة ولو بإيجاز إلى أشكال السلوكات الجنسية التي كانت شائعة، وبديهي أن أصناف الممارسات المعترف بها هي تلك التي تتم – كما أسلفنا - في نطاق مؤسسة الزواج والتسري، وقد تبين من خلال المصادر أن ظاهرة تعدد الزوجات كانت شائعة لدى فئة السلاطين والأمراء المماليك فيذكر ابن تغري بردي في معرض حديثه عن زوجة السلطان اينال خوند بنت علاء الدين خصبك أنه " لم يتزوج بغيرها ولا تسرى أبدا أميرا ولا سلطانا "، وهذا شيء لم نعهد مثله في سالف الأعصار، فإن عادة الملوك الزواج بأربع نسوة "[1]، كما كان نظام التسري منتشرا على نطاق واسع بين فئة الأعيان بفضل ازدهار تجارة الرقيق فكان عدد جواري بعض السلاطين يصل إلى بضع مئات[2] من ذلك أن جواري السلطان الناصر محمد بلغ عددهن نحو 1200 جارية[3]. ولما صودر الأمير مقداد بن شماس "كان عدد جواريه أربعمائة جارية وعدد أولاده ثمانين"[4]، أما الوزير النشو القبطي الأصل فكان عدد جواريه حين صودر ستون جارية[5]، فلم يلغ نظام تعدد الزوجات ونظام السراري مهنة البغاء فقط بل تواصل واستفحال سلوكات جنسية أخرى منها الاغتصاب الجنسي. ويبدو أن الاعتداءات الجنسية هي بالأساس من فعل أصناف اجتماعية محددة فيتردد في المصادر ذكر الجند المملوكي خاصة في فترات الاضطرابات والتمرد والحروب[6]. ويبدو أن فئة "الزعر" وهي فئة حضرية هامشية كانت تتحين فرص الانفلات الأمني

---

1 ابن تعري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج2، ص 525

2 نفس المصدر، ص 525.

3 - Abder-araziq (A) ; *La femme au temps des Mamlouks en Egypte* ; Edition (I.F.A.O) du Caire 1973p.49 .

4 ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص36

5 نفس المصدر، ج9،ص135

18- المقريزي، السلوك، ج3،ص773- ابن تغري بردي، حوادث الدهور،ج2،ص448 – ابن طولون، إعلام الورى، ص195.

وضعف قبضة السلطة المملوكية لتشيع أجواء من عدم الطمأنينة والخوف والتحدي، وقد استفحلت هذه الظاهرة خاصة في أواخر العهد المملوكي إذ " شاط الزعر – بدمشق – وهم في أكل طيب وشرب مسكر وفساد في نساء المسلمين وأموالهم ..."[1]، كما كان العبيد من بين هذه المجموعات التي كان بعض أفرادها يتجرؤون على اغتصاب النساء[2]، والقاسم المشترك الذي يجمع بين الأصناف هو الحرمان الجنسي وربما كانت أوضاعهم الاجتماعية وخصوصا المادية تجعلهم غير قادرين على إشباع حاجاتهم الجنسية بالطرق الشرعية، غير أن أفراد من فئات أخرى كانوا يستغلون وجاهتهم وتنفذهم ليمارسوا الاغتصاب[3].

ولئن كان من الصعب تقدير مدى اتساع نطاق الظاهرة غير أن المصادر تؤكد على استفحال ممارسة أخرى هي الشذوذ الجنسي، فمما يرويه المقريزي عن المثالب التي كانت تنسب إلى برقوق وحاشيته أنه" ... اشتهر بتقريب المماليك الحسان وتهمته وتهمة أمرائه بعمل الفاحشة فيهم". وقد أدى استفحال المثليه الجنسية إلى " كساد " سوق البغايا في عهده، فتشبهت البغايا لبوارهن بالغلمان لينفق سوقهن [4] ورصد ابن صصرى هذه الظاهرة في مدينة دمشق فيقول: "... وقد انضافت سيئة أخرى من سيئات الزمان وهي المردان، فكل واحد يريد أن يكون معشوقا ويتمشى في السوق على أهل الفسوق ... حتى صاروا بالسقال والملابس في زي العرائس، يأتون الفاحشة جهرا، ولا ينكر عليهم منكر، وأكثر الناس قد لبسوا ثوب العاري [5] ".

---

1 ابن طولون، نفس المصدر، ص195

2 ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج1، ص182

3 ابن حجر، إنباء الغمر..، ج2، ص19.-ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان،ج1،ص395

4 - المقريزي، السلوك، ج4، ص612. –السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص35.

5 - ابن صصرى،الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية،ص163.

ومما يمكن استخلاصه أن الشذوذ الجنسي كان منتشرا في ذلك العهد بين عديد الفئات الاجتماعية، وإذا كان هذا الشذوذ منتشرا في " الطباق " بين عزاب الجند، ويمارسه أيضا العزاب من الشباب بسبب الحرمان الناتج ربما عن قلة الاختلاط بين الجنسين، فإن انتشاره في غير هذه الفئة وخاصة بين الفئة الراقية من المجتمع يمكن أن يفسر بالرغبة في تنويع اللذات والمتع الجنسية وعدم الاكتفاء بالعلاقات " الجنسية الطبيعية "، ولعله ضرب من ضروب الترف الجنسي .إن هذه المعطيات عن بعض أشكال السلوكات الجنسية تدفعنا إلى القول بأن البغاء سوف يجد مكانه لا محالة في مجتمع مصر والشام في العهد المملوكي، وستجد فيه فئات متنوعة مصدرا لا غنى عنه لإشباع حاجاتهم الجنسية. فما هي السياسة التي انتهجتها السلطة المملوكة تجاه ممارسة البغاء ؟

III - البغاء بين التقنين والمنع :

يفاجأ الباحث في تاريخ البغاء في العهد المملوكي بتقنينه منذ مطلع هذا العهد، فهذه الفئة التي تعد مغتصبة للسلطة كانت تبحث عن غطاء ديني لتثبيت حكمها، ومن ذلك الحرص على تطبيق أحكام الشرع الإسلامي، وبالتالي الحصول على مباركة فئة العلماء وبالتالي باقي فئات المجتمع العامة، فحسب المقريزي أن هبة الله بن صاعد الفائزي الذي تولى الوزارة في عام 648هـ/1249م أحدث مظالم كثيرة، "فضمن المنكرات من الخمر والمزر والحشيش وبيوت الزواني بأموال، وتسمى هذه الجهات بالحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية "[1].

ويفيدنا المقريزي بمعلومات هامة عن كيفية تقنين هذه المهنة في عهده، وذلك بأن تقوم المرأة الراغبة في ممارسة البغاء بتسجيل اسمها عند " ضامنة

1 - المقريزي، الخطط، ج1،ص89-90.

المغاني "، التي تتعهد بدفع مبالغ محددة للدولة نظير تحصيل الضريبة التي تفرض على بعض المهن النسوية مثل الغناء والبغاء[1]، و يضيف بأن دفع للضريبة المقررة على هذه المهنة يمنحها حق العمل بحرية تحت حماية السلطة المملوكية فيذكر بأن " ضمان الأغاني كان بلاء عظيما وهو عبارة عن أخذ مال النساء البغايا، فلو خرجت امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت عند الضامنة وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة "[2]، على أننا نجابه أيضا بتعدد الجهات التي تقوم بجمع هذه الضريبة، ففي معرض حديثه عن الإجراءات المتخذة من قبل السلطان الناصر محمد بهذا الشأن، يذكر المقريزي أنه أبطل رسوم الولاية، و" كانت جهة تتعلق بالولاة المقدمين، فيجيبها المذكورون من عرفاء الأسواق وبيوت الفواحش ولهذه الجهة ضامن وتحت يده عدة صبيان وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم"[3] وفي نفس السياق يذكر أيضا " إبطاله مقرر ما على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة فيؤخذ من كل ذكر وأنثى مقررا معينا "[4] .و في حوادث 680ه / 1281 م سعى نائب السلطان بدمشق لإحداث ديوان المشد لتحصيل الضريبة المقررة على البغايا لكن سريعا ما تم العدول عن ذلك[5]، وكان هذا الديوان في العهد المملوكي يقوم بتحصيل مختلف أنواع الضرائب، وكان لهذا الديوان موظفون وأعوان مكلفون بجباية الأموال الراجعة له بالنظر، وكان يستفيد من موارد هذا الديوان إلى جانب دولة أمراء وجند مستقطعون، ويبدو أن الموارد المالية المتحصل عليها من البغاء كان لا يستهان بها، الأمر

---

1 -Abd araziq (A) op : cit, p. 79.

2 المقريزي، الخطط، ج1، ص106.

3 المقريزي،الخطط 1،ج1،ص 89- ابن تغرى بردي، النجوم الزهرة، ج9 ص46 – ابن كثير، نفس المصدر، ج13، ص 254

4 المقريزي، الخطط،ج1، ص89

5 - العيني، عقد الجمان، حوادث 680 هـ ص269.

الـذي اضـطر السـلطان الظـاهر بيـبرس عنـدما رسـم بمنـع عمـل البغايـا إلى تقـديم "تعويضات " للمنتفعين من الحاشية من هذا الصنف من الجباية [1].

و يذكر الرحالة" فلكس فابري" أنه كـان عـلى البغايـا الإفرنجيـات الـلاتي كـن يستقدمن من بعض بلدان أوروبا دفع رسوم الدخول إلى ثغر الإسكندرية وهي ثلاثون دانقا ومثلها عند المغادرة فضلا عما يدفعنه للوسطاء الذين يقومون بتشغيلهن[2].

وتراوحت سياسة السلاطين المماليك بين تقنين العمل ومنعه، فلم تكـن هنـاك سياسة ثابتة في هذا المجال طوال هذا العهد، ومـا يلاحـظ أن مراسـيم المنـع المتكـررة تعني ضمنيا استمرار عمل البغايا وأن هذه المراسيم كان يتم العمل بها لبعض الوقت، والمعروف أن العمل بهذه المراسيم يستمر لمدة سـنة واحـدة لا غـير، والجـدول التـالي يلخص أوامر ومراسيم المنع طوال هذا العهد، والتي أتت على ذكرها المصادر :

السنة	جهة قرار المنع	المدينة أو الإقليم	نوع الإجراء	المصدر
1259-1260م	السلطان قطز	ثغر الاسكندرية	منع استقدام البغايا الافرنجيات	السلوك، ج 1ق 2ص 206
665ه-1266م	السلطان الظاهر بيبرس	كامل ديار مصر والشام	إبطال ضمان الخمور والحشيش ومنع الخواطي	الخطط، ج1 ص 106
جمادي الأخرة 666ه-1268م	//	مصر والقاهرة وسائر الأعمال المصرية	منع تجارة الخمور وعمل البغايا	الخطط، ج1ص106 - تتمة المتخصر، ج2ص322 - البداية ج13ص254
670ه-1271م	//	مصر والقاهرة	منع بيع الخمور والتشدد في إزالة المنكرات	الخططج1ص106

1 - المقريزي، الخطط، ج1،ص89.

2 Fabri (F) *; le voyage de Felix Fabri (1483)* ; traduit du latin et annoté par R.P Jaques masso (4tomes) II.F. 1975 ; T2 pp 704-707

680ه-1281م	نائب الشام	دمشق	إبطال تضمين الخمور والفواحش	العيني،عقد الجمان، ج2ص269
717ه-1317م		بلاد السواحل (سواحل بلاد الشام)	إبطال الخمور والفواحش	تتمة المختصر، ج2ص379
724ه1323م	السلطان الناصر محمد	مصر والقاهرة	منع تجارة الخمر والبغاء	النجوم الزاهرة، ج9ص46
744ه-1343م	والي القاهرة	مصر والقاهرة	منع تجارة الخمور والفساد	السلوك، ج2ص640-641
778ه-1377م	السلطان الأشرف شعبان	كامل الديار المصرية	إلغاء ضمان المغاني	إنباء الغمر، ج1ص127 -المخطط ج1ص106
801ه-1398	الظاهر برقوق	الكرك والشوبك ببلاد الأردن منية بني خصيب-الأشمونين زفتا – منية غمر ببلاد مصر	إبطال ضمان المغاني	نزهة النفوس والأبدان، ج1ص211 - إنباء الغمر، ج1ص219
823ه-1420م	والي القاهرة	مصر والقاهرة	منع البغايا من العمل	Abder araziq ; *op-cit* p47
909ه-1420م	نائب الشام قانصوه البرج	دمشق	إبطال المحرمات	إعلام الورى. ص 171-172
913ه-1503م	السلطان قانصوه الغوري	مصر والقاهرة	منع عمل البغايا	بدائع الزهور، ج2ص303-304
909ه-1520م	القاضي أحمد المنوفي	منوف العليا	طرد البغايا	شذرات الذهب، ج8ص150

ولنا أن نتساءل في نفس الوقت عن الأطراف التي تقف وراء إصدار أوامر المنع وتلك التي تقف وراء تجميد أو إبطال مفعول هذه المراسيم ؟ من خلال المعطيات المتوفرة فإن مراسيم وأوامر المنع تصدر في جل الحالات عن السلطان نفسه أو نائبه بالشام وقلما كانت صادرة عن جهات أخرى، كما أن هذه الأوامر كانت تهم غالبا مدينة مصر والقاهرة عاصمة السلطنة، إلا أن بعضها كان شاملا لإرجاء السلطنة أو لأحد إقليميها مصر أو الشام، كما أن بعضها كان يهم مناطق معينة من السلطنة.

ويمكن القول أن بعض هذه المراسيم تصدر بدافع الورع والتقوى ومحاربة " الرذيلة " إلا أن الدوافع السياسية هي أيضا ليست بخافية، فسلسلة مراسيم الظاهر بيبرس وإن كنا لا ننفي عنها دوافع الورع والتقوى، فإن أهدافها السياسية أيضا غير مستبعدة إذا ماعلمنا بأن بيبرس قد استولى على منصب السلطنة بعد الانتصار الكبير الذي حققه السلطان قطز، والذي سقط قتيلا غيلة بسيف بيبرس بعد معركة عين جالوت بقليل مما أثار استياء عارما بين الخاصة والعامة من المسلمين، لذلك كان عليه أن يثبت أهليته للمنصب برفع راية الجهاد ضد الصلبيين من ناحية والتصدي لكل ما يعد مخالفا لأحكام الشريعة من ناحية أخرى وهو ما يكسبه بلا شك دعم الأعيان وخاصة العلماء ومن ورائهم جمهور العامة كما أسلفنا القول، كما تم إصدار بعض المراسيم السلطانية في ظرفيه اتسمت بالصراع الدموي على السلطة بين فئات المماليك مثلما هو الحال بالنسبة للظاهر برقوق الذي كان يخوض صراعا مع المماليك الأتراك لتثبيت حكمه[1]. فمن المستبعد أن تكون المراسيم الصادرة عنه بشأن إبطال المكوس ومنها ضريبة البغاء صادرة عن نفس يغمرها الورع وهو المتهم وحاشيته من كبار الأمراء "باللواط وأخذ البراطيل"[(33)]. كما كانت السلطة المملوكية تتعرض لضغوطات قوية من قبل العلماء لإجبارها على إلغاء بعض أصناف المكوس خاصة منها تلك المتعلقة بالنواحي الأخلاقية، فعندما سعى المتنفذون في دمشق إلى "تضمين الخمر والزنا"، سريعا ما تحرك " العلماء والصلحاء لإلغاء الإجراء مما أجبر السلطة المملوكية على التراجع في نحو عشرين يوما"[2]، وعندما سعى الأمير أقبغا آص لإعادة ضمان المغاني بمصر والقاهرة والتي ألغيت في مجاعة 778هـ/1376م، تحركت "جماعات الضغط" من

1- ضومط (انطوان خليل) الدولة المملوكية، دار الحداثة، ط2 بيروت 1982 ص311-314 .

2- المقريزي، السلوك، ج4 ق2 ص618 .

العلماء والأعيان وأفشلوا هذا المسعى [1]. ولمحاصرة عمل البغايا وصل الأمر إلى الـدعوة لمقاطعتهن فهذا الفقيه ابن الحـاج في معـرض نقـده للبـدع والسـلوكيات التـي يراهـا منافية للأخلاق حسب وجهة نظره فيـوصي للخيـاطين بالامتنـاع عـن خياطـة الملابـس للبغايا والمتبرجات من النساء، لأن التعامل معهن والاستجابة لرغبـاتهن، يعـد في نظـره تشجيعا لهن على مواصلة مخالفة الشرع[2]. كما تكررت طوال العهد المملـوكي المراسـيم وأوامر منع خروج النساء ومنهن البغايا إلى الأمـاكن العامـة مثـل المنتزهـات والمقـابر والموالد لأن في ذلك منعا من "تفشي الفساد وانحـلال الأخـلاق" [3]، بـل حملـت البغايـا أحيانا مسؤولية بعض النكبات الديمغرافيـة فحيـنما ضرب الوبـاء مصر عـام 919 هــ-1513م أصدر السلطان أوامره بعد مشورة الفقهاء بمنع البغايا من ممارسة عملهن [4].

وكانت إجراءات المنع تلاقي استحسـان الأعيـان والعامـة بـل إن بعضـها كانـت تنفذ بحماسة منقطعة النظير فحين أصدر بيـبرس أوامـره بإيقـاف البغايـا عـن العمـل وحبسهن، اندفع العامة إلى مهاجمة الخانات التي كن يمارسن فيهـا نشـاطهن وسـلبوا "جميع ما كان معهن" [5]، ولتطبيق أوامر المنع والقضاء "نهائيا " عـلى الظـاهرة وسـعيا لإيجاد حل جذري للمسـألة كانـت البغايـا مخـيرات بـين " الـزواج أو الحجـر "، ولعـل الغاية من الزواج هو الرغبة في إدماجهن في المجتمع، وهـو مـا قـد يعنـي أن المجتمـع المملوكي بكل فئاته كان مستعدا لإنهاء حالة الإقصاء والنبذ الذي كان يتعرض لهـا هـذا الصنف من النساء .

1 - المقريزي، السلوك، ج5، ص4 (حوادث778هـ)-
2 - ابن الحاج، المدخل إلى الشرع الشريف، ج4، ص20.
3 - نفس المصدر، ج1، ص267-268./ المقريزي، السلوك، ج3،ص394.- ابن الصيرفي، نزهـة النفـوس والأبدان،ج1،ص369.
4 - ابن إياس، بدائع الزهور، ج5، ص303-304.
5 - المقريزي، السلوك، ج1، ص553- ابن كثير، نفس المصدر، ج13،ص254.

لكن هل هنالك فعلا فرصة حقيقية للزواج ؟ ومن يقبل على الـزواج مـن هـذا الصنف من النساء ؟

إن إمكانية ذلك غير مستبعدة، ففي بعض حكايات ألف ليلة وليلـة يحصـل أن يتعلق الحريف بالبغي، وتنتهي العلاقة بينهما بالزواج[1]، على أن البغايا كـن معرضـات أيضا للحبس أو النفي الترحيل[2]، لكن كلها على ما يبدو إجراءات غير ناجعة المفعـول، وإن ما نستخلصه من تكرار مراسيم المنع أن هذه الإجراءات كانت ظرفية وأن عمرهـا وإن طال قليلا فهو قصير، لكن ما الذي يجعلها ظرفية ؟

أولا لأن بعض هذه الأوامر مرتبطة بظرفية خاصة، وبزوالها يزول هـذا الإجـراء، وثانيا لأن مجموعات ضغط مضادة وهي تلك الفئة المستفيدة من مهنة البغاء، كانت بدورها تدفع لإعادة البغايا إلى عملهن، فتوقفه يعني نضوب موارد مالية مجزية كانوا يحصلون عليها، فالأمراء المقطعون لم يكن من صـالحهم منـع هـذا النشـاط لـذا كـانوا يسعون لإلغاء قرار المنع كلما كانت الفرصة سانحة [3]، ولعل الدافع الأهم من كل ذلك هو تضرر خزينة الدولة بفقدانها أحد مصادر تمويلها، وأخيرا التعامل بواقعية مع هذه المهنة القديمة التي وإن كانت محتقرة اجتماعيا فهـي مـع ذلـك مطلوبـة ولـو بشـكل خفي في إطـار التقسـيم الـوظيفي للجـنس إذ تسـتجيب لحاجيـات بعـض القطاعـات السكانية .

لكن هل يمكننا على ضوء المعطيات المتوفرة تبين دوافع البغاء وبالتالي التعـرف على أصول البغايا وأصنافهن ؟

---

1 - ألف ليلة وليلة،، المكتبة الثقافية، بيروت،المجلد1،الليلة26وم4، الليلة945.

2 - المقريزي، السلوك، ج4،ص553.- ابـن العـماد الحنبلي،،شـذرات الـذهب في أخبـار مـن ذهـب، ج8،ص150.

3 - العيني، نفس المصدر،حوادث680هـ،ص269.

IV - دوافع البغاء وأصول البغايا وأصنافهن:

لا تسمح المعطيات المتوفرة بالتعمق في هذه المسألة وتجعلنا حذرين فيما يخص النتائج التي يمكن أن نتوصل إليها فلا تمكننا هذه المعطيات الخروج من مستوى التعميمات الصالحة لكل زمان ومكان بحصر دوافع البغاء في الضغوط الاقتصادية والاجتماعية والمتمثلة في الفقر والعوز، ورغم أن هذا الدافع له قيمته في تفسير الظاهرة إلا أنه يبقى تفسيرا جزئيا. ومع ذلك فإن ما بحوزتنا من هذه المعطيات يشير إلى أهمية هذه الضغوط في ظروف معينة، وهي الأزمات الغذائية متمثلة خاصة في زمن المجاعة التي يترتب عنها "ازدهار" مهنة البغاء، وذلك بدفع أعداد غير قليلة من النساء إلى هذه " السوق النافقة " إذ تؤدي المجاعات إلى تفكك الروابط العائلية وإلى سعي أولياء الأمور للتخلص من أبنائهم وبناتهم بالبيع[1] أو قطع الصلة بهم. وتدفع حدة المجاعة إلى إقبال بعض النساء اللاتي فقدن كل سند إلى عرض أنفسهن على كل راغب في المتعة الجنسية، فيذكر الرحالة عبد اللطيف البغدادي بمناسبة مجاعة 597ه-1200م بمصر أن" الجارية الحسناء كانت تباع بدراهم معدودات "ويصف ازدهار البغاء مستنكرا استغلال بعض " من لا أخلاق لهم " ظروف هؤلاء النساء للاستمتاع بهن فيقول: "فمن ذلك اتخاذهم الأحرار متجرا ومكسبا ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى يزعم أنه افتض خمسين بكرا ومن يقول سبعين "[2].

وربما كان الفقر والعوز والتفكك العائلي أيضا وراء وجود صنف من البغايا يطلق عليهن "الزعيرات" كن يتخذن من "سوق الشمع " بالقاهرة مركزا لنشاطهن جانبا إلى جنب مع فئة الزعر"[3]. وهذه الفئة الاجتماعية – الزعر –

1- Chpoutot (M.R.), « Une grande crise à la fin du XIII siècle ,en Egypte », *J.SH.O.* Vol.XXV,part.3,Octobre1983,p.217

2- عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار، تحقيق أحمد غسان سيانو، دار ابن قتيبة، دمشق 1983، ص93 .

3 - المقريزي، الخطط، ج2، ص96 .

هي من الفئات الحضرية الهامشية وهي في بعض أوجهها امتداد لتنظيمات الفتوة، التي ظهرت في القرن 4هـ-10م، وقد كان لهن علامات مميزة تسهل التعرف عليهن، وتدل على انتمائهن إلى صنف متميز من البغايا. وهؤلاء الزعيرات ينتمين إلى الأوساط الاجتماعية الفقيرة بل والهامشية، فهل يكون ذلك سببا قويا لاحترافهن البغاء ؟.ربما كان الأمر كذلك، لكن لا يبدو دائما أن الفقر والحاجة هي الدافع إلى امتهان البغاء، فإن إغراء الكسب المادي المرتفع قد يكون أحد الأسباب الدافعة لانخراط بعض النساء خاصة الجميلات في هذه المهنة، وبالتحديد إلى ما يمكن أن نطلق عليه " البغاء الراقي " الذي يتم في دور خاصة وتكون الأسعار فيها عالية[1]. ومن خلال وصف ما ترتديه بعض البغايا وما يتزين به من الحلي ما يؤكد أن المكاسب مجزية[2]. فقد يكون الفقر في البداية هو الدافع لبعضهن لدخول هذه المهنة لكن استمرار الكسب المرتفع وربما عدم التقيد برجل واحد لممارسة الجنس يكون باعثا على الاستمرار فيها، ولعل إغراء الدخل المرتفع الذي قد تتحصل عليه البغايا والثراء البالغ الذي يمكن أن ينعمن به هو الذي يدفع بالبعض إلى القبول بممارسة البغاء[3] .

قد تكون أيضا نوعية العلاقة الجنسية بين الأزواج أحد المداخل نحو إقامة علاقات غير شرعية " وقد تفطن ابن الحاج إلى هذه الناحية ونبه إلى خطورتها على سلامة العلاقة الزوجية، ويتعلق الأمر بعدم مراعاة الزوج لمشاعر ورغبات زوجته الجنسية ويؤكد على ضرورة إشباع هذه الرغبات مستنكرا أنانية بعض الأزواج الذين لا يلتفتون إلى هذه الناحية. ف "الجماع... هو أكبر الملذوذات والشهوات " وإذا ما " أتى الزوج زوجته – على غفلة قد

1 - القلماوي (سهير)، ألف ليلة وليلة، دار المعارف بمصر 1966 ص242 .

2 - اليونيني (قطب الدين أبو الفضل)، ذيل مرآة الزمان، ج1 ص 553 .

3- Fabri (F.) *;op.cit.p.704.*

يقضي حاجته وتبقى هـي فقـد يشـوش عليهـا ذلـك وقـد لا ينصـان دينهـا "[1]، ولـيس بالضرورة طبعا الانحدار إلى البغاء لكن هذا الأمر أيضا غير مستبعد، فقـد أشـار ليـون الإفريقي إلى ذلك عندما زار مصر في مطلع العهد العـثماني فـذكر أن " نسـاء مصر لا يخجلن مـن الشـكوى إلى القـاضي لعـدم قيـام الـزوج بواجباتـه الزوجيـة كـل ليلـة "، ويضيف " وهذه جملة لأسباب كثيرة في الطلاق والزواج المتجدد ... "[2]. وبالتأكيـد فـإن ذلك مجرد احتمال لا غير.

ومن الثابت من خلال ما تـوفر مـن المصـادر أن البغـاء، هـو بالأسـاس ظـاهرة حضرية، فهل يعني ذلك أن الريف لا علاقة له برفد هذه المهنة بأعداد من البغايا ؟ لا تستبعد ذلك خصوصا في فترات الأزمات الغذائية عندما تغـادر مجموعـات كبـيرة مـن الريفيين قراهم باتجاه المدن للحصول على الإعانات و"الصدقات" مـن المـواد الغذائيـة التي يوزعها أهل اليسار.

و نتبين أيضا من خـلال المصـادر وجـود نـوعين عـلى الأقـل مـن البغايـا: "البغايـا المحليات " أي من " أهل الـبلاد " ونعتقـد – وإن كنـا لا نملـك أرقامـا في هـذا الصـدد – بأنهن يمثلن القسم الأكبر من هذا القطاع السكاني ولعل البغايا الزعيرات يمثلن عينة مـن هذا الصنف، أما النوع الثاني فيضم بغايا من خارج المنطقـة وهـن " البغايـا الوافـدات". ربما كان بعضهن من أصول تركية أو جركسية وهو ما يمكن استنتاجه من اسم إحـداهن بمدينة دمشق ودعى " جان سوار " التي كانت أعظم بنات الخطأ3، ويعـود أصـل بغايـا أخريات إلى أقطار وأقاليم أوروبيـة، ويبـدو أو وجـود هـذا الصـنف بـبلاد المشرق يعـود إلى فترة سابقة للعهد المملوكي ولعلهن إحدى إفرازات الحروب الصـلبية فـرغم مراسـيم منـع اسـتقدام البغايـا الإفرنجيـات والأمـر بترحـيلهن في عهـد كـل مـن قطـز والظـاهر

1 - ابن الحاج،المدخل، ج2، ص 185-186.

2 - الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، ج2، ص218.

3 -ابن طولون، نفس المصدر، ص98.

بيبرس في مطلع العهد المملوكي إلا أن هـذه الظـاهرة تواصـلت ولم تنقطـع. ويـروي الرحالة فابري الذي زار السلطنة في القرن XV م أنه التقى في أحد أزقة الإسـكندرية ببغايا إفرنجيات وكانت صدمته كبيرة عند رؤيتهن وفي وضعيات غير لائقة، ويضيف أنه سمع بوجود أخريات في العديد من مدن السلطنة، مثل " القـاهرة و"دمشـق " و" بيروت " و" طرابلس " ومن خارجها مثل " القسطنطينية ". أمـا البلـدان الأصـلية لهؤلاء البغايا فهي فرنسا وإسبانيا وكلابريا بإيطاليا وغـالبهن مـن " كاتالونيـا وجنـوه وبادوقيا والبندقية وكان عليهن دفع رسـوم الـدخول[1]. إن عـدم انقطـاع توافـد هـذا الصنف يعني أن هناك " شبكات " كانت تقوم باسـتقطاب الفتيـات أو البغايـا مـن بعض أنحاء أوروبا والتكفـل بـنقلهن في المراكـب التجاريـة التـي كانـت تـتردد عـلى موانئ السلطنة مثل الإسكندرية. وفي هذا الصدد يذكر فابري أنـه كـان عـلى البغـي فضلا عن دفع رسوم الدخول وإعالة أنفسهن التنازل عن جزء مـن أجـورهن لهـؤلاء الوسطاء الأوروبيين الذين قاموا بجلبهن [2]، ولا نعثر عن معطيـات تتعلـق بمسـاهمة أطراف أخرى سواء من المماليك أو من أهل البلاد في إدارة هذا النشاط، ولـيس مـن المستبعد وجود مثل هذه الأطراف لتسهيل دخولهن وممارستهن لهذه الحرفة إذ أن تواصل توافدهن يشي بأنها مهنة كانت تدر مـداخيل مرتفعـة عـلى الأقـل للوسـطاء وإلا لما تجشموا مصاعب هذا العمـل ولمـا اسـتمر اسـتقدامهن للعمـل طـوال هـذه الفترة ومن المحتمل أن السلطة المملوكية وبعض الجهات المتنفـذة داخلهـا كانـت لا تمانع في استمرار اسـتقدامهن لمـا يـدره عملهـن مـن مـوارد ماليـة تـذهب للخزينـة ولجيوب هـؤلاء المتنفـذين رغـم المراسـيم الصـادرة بشـأنهن والتـي لم يكـن لهـا أي مفعول في إيقاف هذه " التجارة الرابحـة"، وحسـب فـابري فـإن الحرفـاء هـم مـن كـل الطوائف المقيمة في السلطنة وهو ما يعني أيضا أن هذا الصـنف مـن البغايـا كانـت لـه

1- Fabri (F.) *;op.cit.p.704*

2- Ibid. p 704-705 -

جاذبية وسوق غير كاسدة، فهل ذلك يعود إلى مزايا جمالية أو جنسية يتمتعن بها دون سواهن ؟ وعلى مستوى آخر يمكن تصنيف البغايا إلى صنفين: الأول وهو ما يمكن أن نطلق عليه " بالبغاء العمومي " والذي يتم بموافقة السلطة وتحت نظرها بعد دفع البغي للضريبة المقررة عليها. أما الصنف الثاني فهو ذلك الذي يتم بصفة " غير قانونية " أو غير المعلن لعدم دفع الضريبة وربما كان هذا الصنف من البغاء عرضيا وعابرا أي أنه ليس بالمهنة الرسمية، ويكون مجال نشاط البغايا المراودة في الشوارع والأماكن العامة [1]، ولا ندري إن كانت البغايا الزعيرات ضمن هذه المجموعة أم لا باعتبار إمكانية عدم قدرتهن على دفع هذه الضريبة .

وإذا كانت هذه المهنة تثير الاستهجان والإنكار وإقصاء من تمتهنها، فهل يمكن تحديد الأماكن التي تمارس فيها البغايا نشاطها في مدن كبيرة مثل مصر والقاهرة ؟ وهل يقبل عامة السكان بوجودهن بينهن ؟.حسب المقريزي فإنه بالإمكان وبسهولة تامة مشاهدة البغايا ليس فقط بالقاهرة والمدن الكبيرة، بل أيضا كل من مصر السفلى والعليا[2]. وتعد الأسواق من الأماكن التي تجتذب البغايا نظرا للأعداد الكبيرة من الناس الذين يترددون عليها. فهي من الأماكن المفضلة للمراودة واقتناص الحرفاء ويذكر المقريزي أسواقا محددة كانت مراكز لنشاط البغايا وهي: "سوق الشمع" الذي تختص به الزعيرات و"سوق السلاح" وهو من الأسواق المعروفة بارتياده من قبل طلاب اللذة الحرام إذ يعلق المقريزي بقوله: "و يمر هناك من الخلاعات والمجون ما لا يعتبر عنه"[3].

1 - المقريـزي، الخطـط، ج2، ص96-97 / Abderraziq (A.) , La femme au temps des Mamlouks en Egypte, éd.I.F.A.O.DU Caire,1973,p45-46.

2 - Ibid, p 45-46 .

3 - المقريزي، الخطط، ج2 ص 96.

ومن الأماكن العامة التـي ترتادهـا البغايـا " ربـض اللـوق " بالقـاهرة لكـثرة مـن يرتاده للفرجة على مختلف الألعاب التي تقام به"[1]، ففي الأماكن العامـة بمصر القـاهرة " هناك صنف بغايا قاعدات متربصـات للفسـاد " حسـب العينـي [2]. وكانـت المتنزهـات الكثيرة بمدينة مصر والقاهرة وكذلك القرافة من الفضاءات التي تسمح بسهولة ممارسـة المراودة خاصة في المناسبات والمواسم والأعياد الدينية إذ ترتفع أعداد الذين يقبلون عـلى التردد على هذه المواقع، فتكون إمكانية الاختلاط بين الجنسـين كبـيرة وضرب المواعيـد بين المحبين، ويجـد البـاحثون عـن اللـذة الجنسـية بغيـتهم حيـث تمـارس بنـات الهـوى مهنتهن في الترب المهجورة، والمواضـع المنزويـة مـن القرافـة[3]. وكانـت الموالـد التـي يـتم إحيائها بالزوايا تتخذ أحيانا طابعا احتفاليـا صـاخبا يخـتلط فيـه الـديني والـدنيوي، مـن تلاوة وإنشاد ديني، وشرب للخمر واختلاط بين الجنسين يصل إلى حد ممارسـة الجـنس، يذكر السخاوي أنه: " عندما أبطل الظـاهر جقمـق تحـت ضـغط الفقهـاء" مولـد الـولي أحمد البدوي عمل شخص يسمى رمضان بناحية محل البرج بالقرب من المحلـة الكـبرى المولد ووقع فيه فساد كبير على العادة " [4]، وعندما تم إحياء المولد النبوي بزاوية الشـيخ الأنبابي "وقع فساد كبير" افتضت فيه بكارة عدد من الفتيات، وعثر من الغـد عـلى عـدد كبير من جرار الخمر ملقاة بالمزارع المجاورة للزاوية[5]، ولا نستبعد والحالة هذه أن تكون هذه الفضاءات مجالا خصبا لعمل البغايا، على أن للبغايا " العموميـات " مقـرات ثابتـة يشتغلن فيها ويتردّد عليها "الحرفـاء "، ومـن هـذه المقـرات: الخانـات التـي يـأوي إليهـا الغرباء من المسـافرين والتجـار، فبالإضـافة إلى وظيفـة الإيـواء كـان يقـوم بعضـها عـلى

---

1 - الوزان (الحسن)، نفس المصدر،ج2 ص199.

2- العيني (بدر الدين)، عمدة الساري في شرح صحيح البخاري، الأستانة 1308ه، ج 3 ص230 .

3 - ابن الحاج، المدخل، ج1 ص267-268 .

4 - ابن حجر، المصدر نفسه، ج2، ص363-364.

5 - ابن الصيرفي، نفس المصدر، ج2 ص466 .

الأقل بوظيفة رديفة هي " البغاء"، ويبدو أن هذه الوظيفة قديمة إذ يروي ابن القفطي نقلا عن الطبيب البغدادي ابن بطلان في القرن 4ه-10م أن " بغايا اللاذقية كن يصحبن حرفائهن إلى الخانات حيث يقمن " 1 وظلت الخانات تقوم بهذه الوظيفة حتى العهد المملوكي[2]، واختيار البغايا النزول بها مفهوم فإليها يأوي هؤلاء الغرباء القادمون من أقاليم وأقطار بعيدة تستمر أحيانا عدة أشهر فتكون لهم احتياجات جنسية لا بد من إشباعها.

وإذا كانت الخانات من المقرات الثابتة لكنها غير الخاصة بالبغاء أصلا[3] فإن هناك " دورا ورباعا " كانت تأويهن ويمارسن فيها عملهن بصورة علنية و" قانونية "، وتوجد هذه الرباع في بعض أزقة المدينة[4] ويبدو أنها كانت غير مجاورة لسكنى العائلات وهي إحدى علامات الإقصاء. وكانت بعض جهات مدينة مصر والقاهرة عامرة بدور البغاء فكانت تكثر بقناطر السباع " الرباع التي تسكنها بنات الخطأ "[5]، بل إن بعض متنزهات القاهرة كانت تأوي " أخصاصا " لإدارة البغاء ويقيم بها " أهل الخلاعة من الجنسين ". ويذكر المقريزي أنه لما كثر تجاهرهم بالقبيح قام الأمير أرغون العلائي مع الملك الكامل شعبان في هدم هذه الأخصاص ... قياما زائدا حتى أذن له بذلك .. [6]، كما كانت بركة الرطلي من أرض الطبالة مكانا ممتازا لنشاط البغايا[7] ولعل العزل والإقصاء يبلغان الدرجة القصوى وذلك بظهور أحياء خاصة بالبغايا من ذلك أنه كانت" .. للمغاني ببلاد الريف حارة مفردة يعمل فيها من الفساد جهارا ...

---

1 - ابن القفطي (أبو الحسن علي)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء،، ص195 .

2 - المقريزي، الخطط، ج1،ص89.

3 - نفس المصدر،ج1،ص89.

4 - Abderraziq Fabri (F.) , *op cit* , p 45 .A. (, *op*) *cit* ; p 207- .

5 - السخاوى الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج2، ص 74-75 .

6 - المقريزي، الخطط، ج2، ص186 .

7 - المصدر نفسه، ج11، ص182 .

ومن اجتاز غلطا ألزم بأن يـزني بخاطئـة فـإن لم يفعـل فـدا نفسـه بشيء"[1]. ونجـد في حكايات ألف ليلة وليلة وصفا لهذا الصنف مـن المبـاغي "الخاصـة " التـي يرتادهـا الحرفاء من أهل اليسار من أهل البلد أو من التجار الغرباء فكـان عـلى سـبيل المثـال على هذا التاجر الشاب القـادم مـن العـراق والـذي حـط رحالـه بخـان مسرور بـين القصرين أن يتوجه إلى دار إحدى البغايـا والتـي ضرب معهـا موعـدا بإحـدى أسـواق القاهرة إلى قاعة بركات النقيـب بالحبانيـة [2]. وفي " حكايـة الشـاب العـماني " وصـف لإحدى هذه الدور الخاصـة باللــهو والبغـاء[3] كـما عـلى الحريـف أيضـا أن يصـاحب البغي إلى بيتها، ويبدو أن الأمر يتعلق هنا ليس ببيـوت خاصـة للـدعارة [4] وإنمـا هـي بيوت لبغايا غير " رسميات" وربما انتهت حياة الحريف في مثل هذه البيوت عـلى يـد عصابة تحترف اللصوصية والإجرام [5]، كما كما كان عـلى الحريـف أيضـا أن يصـاحب البغي إلى يتها بالإمكان أن تنتقل البغي إلى دور الحرفاء لكـن العواقـب ليسـت دائمـا مأمونة[6]. وفي سبيل الكسب المجزي كانت البغايا تتجشـمن مشـاق السـفر إلى خـارج المدينة للوصول إلى حرفاء مؤكدين فذكر ليـون الإفريقـي عنـد وصـفه " لبرنبـال " أن بغايا مصر والقاهرة كن يترددن عليها إذ توجد سوق نافقـة تتمثـل في عـمال فلاحـين عزاب جلهم من البربر يحصلون على أجـور عاليـة نظـير درسـهم لـلأرز، وكـان هـؤلاء يعيشـون "حيـاة ماجنـة " لـذلك تتوافـد كـل عـاهرات مصر تقريبـا علـيهم بحيـث أنهم يكونون منهوكي القوى دائما وتذهب جميع أربـاحهم إلى هـؤلاء النسـاء "[7] لكـن

---

1 - ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج2، ص127.

2- ألف ليلة وليلة، الليلة، رقم الليلة 945و947 .

3 - القلماوي(سهير)، نفس المرجع، ص242.

4 -عاشور (عبد الفتاح)، المجتمـع المصري في عصر سـلاطين المماليـك، دار النهضـة العربيـة، 1966، ص128.

5 - اليونيني،نفس المصدر، ص553.-المقريزي، السلوك، ج4،ص426.- عاشور (عبـد الفتـاح)، نفـس المرجع،ص128.

6 - ابن تغري بردي،حوادث الدهور،ج2،ص43.

7 - الوزان (الحسن)، المصدر نفسه، ج2 ص199 .

كيف كانت تتم إدارة هذا النشاط ؟ وهل كانت البغايا تعملن بصفة منفردة أم أن هناك مساعدون من الجنسين لتسهيل عملهن ؟ وبالتالي هل يمكن الحديث عن شبكات دعارة تكون فيها البغي المحور الرئيسي؟

V - إدارة مهنة البغاء:

مما تقدم بشأن البغايا الإفرنجيات فإن استقدامهن كان يتم عن طريق وسطاء أوروبيين ويقوم هؤلاء بالإشراف على عملهن واقتطاع جزء من مداخيلهن ويتقاضون أتعابهم مقابل نفقات الرحلة بخصم جزء من الدخل اليومي للبغي ويعني ذلك توفير الحماية لهن من المضايقات والتجاوزات التي يمكن أن يتعرضن لها من قبل أعوان السلطة المملوكية أو من اعتداءات محتملة من الحرفاء. لكن ماذا بشأن المحليات من البغايا؟ إن دور البغاء الخاصة تستدعي وجود مساعدين من الجنسين للقيام بخدمة الحرفاء، فدور اللهو التي وصفتها حكايات ألف ليلة وليلة فيها خدمات متكاملة تقدم للحريف من بينها الحمام والطعام والشراب[1] ويقوم بالخدمة فيها غلمان وجواري، قد يكون في هذه الحكايات إسراف في الخيال لكن المؤكد أن بعض هذه الخدمات متوفرة.

ومن الثابت أن صنفا من النساء تطلق عليهن تسمية " القوادات " وهن في العادة من العجائز اللاتي كن يقمن بدور الوسط بين الحريف والبغي، يقول العيني: " ومنهن صنف دائرات على أرجلهن يصطدن الرجال ومنهن صنف قوادات يفسدن الرجال والنساء ويمشين بينهن ما لم يرض به الشرع "[2] و عندما تم القبض على عصابة تحترف الإجرام والقتل تحت غطاء البغاء، تبين أن للبغي أعوان إذ تقوم هي بمراودة الحريف وتتوسط إحدى معاوناتها وهي عجوز لتسهيل اللقاء بين الإثنين في بيت البغي، وعند حصول الاتفاق ودخوله البيت يلقي هناك مصرعه على يد رجال أشداء ويتم الاستلاء على ثيابه

1 - ألف ليلة وليلة، ليلة رقم 26 و945 و947 .

2 - العيني، نفس المصدر، ج2، ص430

وأمواله[1]، فهل أن وجود رجال مساعدين للبغي من مستلزمات المهنة ؟. إن شبكة البغاء عادة ما تتطلب وجود من يحمي البغي ويدير عملها ويتطلب ذلك وجود أعوان من ذوي القوة والبأس[2]. وإذا كانت المومس هي المحور الأساسي لهذه المجموعة من المساعدين المحيطين بها، فإن الحريف يبقى هو الطرف الثاني والضروري لاستمرار هذه المهنة، فمن هم هؤلاء الحرفاء؟ ما هي أصولهم الإثنية ؟ وإلى أي الطوائف ينتسبون؟ وإلى أي الفئات الاجتماعية والشرائح العمرية ينتمون؟

يتردد على المباغي جمهور متنوع من الحرفاء وبهذا الصدد يروي الرحالة فابري مستهجنا ممارسة البغايا الإفرنجيات لهذه المهنة وخاصة ببيع المتعة الجسدية " لأعداء الملة النصرانية " إذ أن الزبائن هم حسب الرحالة فابري خليط كبير" من " اليهود والسامرة والنصارى، ومن الملل الأخرى والعرب والمماليك والمغول[3]".

ولئن كان من الصعب تحديد الانتماءات الاجتماعية والشرائح العمرية لطالبي هذا النوع من النساء، فإن المعطيات المتوفرة تبين أن أصنافا معينة كانت تتردد على دور اللهو والبغاء وهم الغرباء عن أهلهم وأوطانهم " من الجند المملوكي المقيم في الطباق، والعمال الزراعيين من البربر الذين شاهدهم ليون الافريقي ببرنبال، والمسافرون والتجار الذي يفدون إلى السلطنة، ويقيم بعضهم في الخانات، وكذلك هؤلاء العزاب من أهل البلاد، وخاصة الفتيان منهم الذين يمثلون القسم الأوفر من الحرفاء إذ أن قطاعات منهم كانت ترتادها[4]، فكان التردد على البغايا متنفسا لطاقاتهم الجنسية المكبوتة في انتظار الزواج، كما أنها بمثابة مرحلة "يتدرب فيها هؤلاء العزاب من الشباب على الحياة

---

1 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج4،ص438.

2 - نفس المصدر، ج2، ص 438 .

3- . – Fabri (F.), *op.cit*,p704.

4 ابن تعزي يرى، حوادث الدهور، ج2 ص438

الجنسية"[1] ومدخلا قد يكون مناسبا لإعدادهم لحياة زوجية وهم مسلحون بتجربة تعينهم على تصريف شؤونهم في هذا الجانب. ويبدو البغاء على هذا المستوى و"كأنه صمام أمان" يحمي المجتمع من المخاطر التي يولدها الحرمان الجنسي، ووجود حاجات جنسية لبعض قطاعات السكان ليس فقط من العزاب بل أيضا هؤلاء الجند والغرباء الذين لابد من إشباع حاجاتهم. ولعل كل هذه الأسباب هي التي تجعل "المجتمع " وإن كان يحتقر البغي، إلا أنه في نفس الوقت قد يتغاضى عن عملها باعتبارها تؤدي "وظيفة اجتماعية" وإن كان يتم استهجانها وتجاهلها. وإذا كانت المتعة الجنسية التي توفرها البغي" سلعة " فما هي الأجور التي يدفعها العملاء ؟

الحقيقة أننا لا نملك معطيات واضحة عن هذا الجانب لكن هناك إشارات عامة ربما تفيدنا في تقدير حجم المداخيل التي يمكن أن يوفرها هذا العمل ونشير قبل ذلك أن الأسعار في هذا المجال تخضع كغيرها من السلع لمجموعة مقاييس: منها السن، واللون، والجاذبية الجنسية بما فيها الناحية الجمالية وإلى كرم الحريف "أو مساومته في السعر". لكن أي أجر يمكن أن يعوض هذا الصنف عن الاحتقار والنبذ والإقصاء ؟ إن السمعة السيئة التي يحظين بها ليست كل شيء،" فعملها " محفوف بالمصاعب بل والأخطار الجدية. إن إجراءات المنع التي كانت تتخذها السلطة المملوكية من حين إلى آخر وإن كانت محدودة الأثر هي رغم ذلك من المصاعب الجدية التي تواجه هذه "المهنة"، مما يعنيه من قطع لمورد الرزق دون أن تكون هناك بدائل جدية بل تتخذ ضدهن إجراءات إضافية أحيانا مثل الحبس والنفي.

وكانت مكاسبهن معرضة للتلف والنهب في اعتداءات جماعية للعامة عند صدور بعض هذه المراسيم بمنع عملهن[2] بل إن البغايا كن معرضات

1 -Bouhdiba (A) ; *op cit*, p 236.

2- المقريزي، الخطط، ج21، ص106 – ابن كثير، نفس المصدر، ج13، ص254 .

لأحكام الإعدام، ومن الحالات التي ذكرتها المصادر حكم إعدام بحق بغي بدمشق -مر ذكرها-، حين أصدر جان بلاط أمره "بصلب جارية بيضاء اسمها حان سوار قيل إنها أعظم بنات خطا بدمشق ..." ولا ندري نوع التهمة الموجهة إليها.

وتتعرض البغايا أيضا إلى اعتداءات عنيفة من قبل بعض الحرفاء تبلغ حد إزهاق أرواحهن، إذ يروي ابن تغري بردي أن "عصابة مؤلفة من ثلاثة أفراد من المماليك اختصت باغتصاب البغايا والاستيلاء على ما بحوزتهن من مال وحلي، "فكان بلبان الزيني يطلب المرأة الجميلة من الخواطي عنده ويفعل فيها ثم يقتلها ويأخذ ما عليها ويساعده في ذلك رفيقاه "[1]، ولعل ذلك يؤكد الثراء البالغ الذي كانت عليه بعض أصناف البغايا، مما يجعلهن هدفا لشتى الاعتداءات بغاية الاستيلاء على ما بحوزتهن من ثروة .

وتترتب عن ممارسة البغاء مضاعفات خطيرة ومن بينها مخاطر الحمل وهو حمل يعد غير شرعي من الوجهتين الدينية والاجتماعية - ولعل ذلك يهم بالخصوص البغايا صغيرات السن غير المدربات على تفادي هذه المحاذير وهو ما يدفعهن لتجنب الفضيحة بقتل المولود[2]. وتعرضت بعض المؤلفات الطبية إلى قضية إسقاط الحمل فتضمنت رسالة للسيوطي - والتي تعد بحق حصيلة الممارسات الطبية الشائعة عصرئذ - مجموعة من الواصفات الطبية لإسقاط الجنين غير المرغوب فيه[3]، ولا شك أن البغايا كن معرضات أكثر من غيرهن لأمراض الجهاز التناسلي أو الأمراض الزهرية وقد تضمنت رسالته وصفات لعلاج بعض هذه الأمراض التي كانت شائعة في عهده[4].

1 - ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج2 ص 438 .

2 - ابن إياس، نفس المصدر، ج3،ص101.

3 - السيوطي، الرحمة في الطب والحكمة، دار المعارف، سوسة1989،ص194.

4 - نفس المصدر،ص194.

الخاتمـة :

إن الإطار الشرعي المـرن لمؤسسـة الـزواج في الإسـلام مـن ناحـة والعقوبـات القاسية التي تنتظر من تثبت إدانته بصورة قاطعة بارتكاب "الزنى"، والبغاء هو أحـد وجوهه لم يؤد إلى اختفاء هذه المهنـة، بـل يمكـن القـول بأنهـا شـهدت "ازدهـارا" في بعض فترات الحكم المملوكي، فقد كانت شـاملة لكـل أقـاليم السـلطنة، ورغـم بعـض الاستثناءات واصل المماليك سياسة قديمة تتمثل في تقنين مهنة البغاء مراعاة لحاجات اجتماعية من ناحية ولاعتبارات مالية من ناحية أخرى. وتنوعت الأصول والانتماءات "العرقية " و"الطائفية" و"الاجتماعية" للبغايا وتعددت أصنافهن، وقد نشأت في هـذا العهد "شبكات بغاء" وخاصـة منهـا تلـك التـي تتعلـق بالبغايـا الوافـدات عـلى أرض السلطنة، وفي المقابل تنوعت أيضـا أصـناف الحرفـاء الـذين يـترددون علـيهن خاصـة منهم العزاب ومن الجند المملوكي والعزاب من التجار والمسافرين ومن عمال يفدون من أقاليم مجاورة. وكان عمل البغايا محفوفا بالمصاعب والمخاطر الحقيقية، وبالرغم من الإقصاء الذي يمارسه المجتمع عـلى هـذه الفئـة الاجتماعيـة والاحتقـار الظـاهري لعملهن والسمعة السيئة التي يحضين بها إلا أن هذا المجتمع كان يقبل ولـو بشـكل غير معلن بهذا العمل وبهذا الصنف الهامشي من الفئات الاجتماعية.

الخاتمة عامة

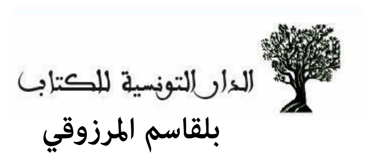
لئن تطرقت هذه الدراسات إلى قضايا وظواهر سياسية واجتماعية محدودة ومحددة، فإنها تندرج ضمن السياق العام ... ولعلها تساهم بالخروج عن الصور النمطية المرتسمة في الأذهان عن هذا العهد وعن الأحكام المسبقة، فمصر بلادا وعبادا وإن كانت جزءا لا يتجزأ من أرض الإسلام فإنها تميزت بشخصية متفردة صنعتها الجغرافيا خاصة النيل ومجموع الحضارات التي تعاقبت عليها، هو تنوع داخل الوحدة وبالتالي فإن الوحدة الظاهرية "لأرض الإسلام" لا يجب أن تحجب عنا هذا التنوع المثري وأن هذا الكيان الضخم شديد التنوع.

وهذا الكيان الذي لم يعد منذ زمن طويل موحدا من الناحية السياسية تعرض إلى هجمة خارجية قوية مند القرن الحادي عشر من الغرب المسيحي سيتعرض إلى هجمة جديدة قادمة من أقصى الشرق والتعاون الذي سعت إليه مملكة الأرمن الصغيرة مع الغزاة الجدد أي المغول فيدخل ضمن مشروع ضخم عملت هذه المملكة على تحقيقه بإقامة تحالف بين المغول والغرب للإجهاز على بلاد الإسلام لكن دون أن توفق في ذلك مما سيكلفها وسيكلف مسيحيي الشرق إجمالا ثمنا باهظا. ولئن قامت دولة المماليك بالدور الحاسم في الشرق الإسلامي للتصدي لهذا الغزو الخارجي، بفضل قوتها العسكرية. وإذا كان السمة الأساسية لنظام الحكم هي طابعه الاستبدادي والذي لم ينفرد به فإن المؤسسة السجنية تكشف عن أحد أوجه هذا الاستبداد، فالسجون المملوكية جسمت بحق هذا الوجه المستبد للسلطة فالعقوبات المسلطة على السجناء اصبغ الكثير منها بالفظاعة وربما ابتكرت أساليب وطرق جديدة للتعذيب، فكان السجن " أشد من الموت " على حد قول المقريزي .

ولئن كانت الطبقة الحاكمة رغم أصولها الرقيـة تتبـوأ أعـلى السـلم الاجتماعـي وقليلة الاندماج في المجتمع الأهلي،فإن فئة الأشراف التي تناقضها من ناحية نبالة الدم والانتماء السلالي فإن هذه الفئة الاجتماعية المنتميـة إلى فئـة الأعيـان والتـي اخترقـت الجغرافيا بانتشارها في أقطار العالم الإسلامي والزمان باسـتمرارية وجودهـا قبـل هـذا العهد بقرون عديدة وتواصل وجودها إلى الآن، وتميزها عن غيرهـا بتنظـيم "نقـابي" لم تكن متجانسة وتمدد على كامل الجسم الاجتماعـي ولم يكـن لهـا دور وتـأثير فاعـل في الحياة السياسية وعوضت عن ذلك بمكانة روحية لم تكن دائما مقدرة مـن قبـل رجـال السلطة في حين حفظت بقية فئات المجتمع من المسلمين "حق " هـؤلاء مـن التـوقير والتبجيل. وإذا كان العامة الذين يؤلفون الكتلة السكانية الأعظم من السـكان إلا أنهـا لا تمثل جسما اجتماعيا واحدا فقد ظلوا كما مهملا لم يعن بهم مؤرخو هذا العهد كـما في غيره من العهود، والسقاءون هم صنف مهني يعمل بحاضرة مصر منذ أزمنة بعيدة هم عينة اجتماعية ومهنية عن وضع بعض فئات العامة الشديدة التنـوع مـن ناحيـة والأصناف المهنية الحضرية من ناحية أخرى

ولعل مجموع هذه الدراسات تكون قد وضحت بعض الجوانب من تاريخ هذا العهد وقدمت إجابات أولية عن بعض المسـائل الأخـرى وقـدمت الإضـافة المنشـودة.

فـهرس



بلقاسم المرزوقي

الكوليزي مدرج - د – الطابق الأول مكتب 130

43 – 45 شارع الحبيب بورقيبة – تونس

الهاتف / الفاكس: 33 98 33 71

البريد الالكتروني:mtl.edition@yahoo.fr



د. بلقاسم طبّابي

- من مواليد 1957 بالرّديف من ولاية قفصة.

حاصل على:

- الأستاذيّة في التّاريخ سنة 1982.
- الدكتوراه في التّاريخ الوسيط المشرقي سنة 1997.

- درّس بالمعاهد الثانوية من سنة 1982 إلى 2002.
- يدرّس منذ سنة 2002 بكلية الآداب بالقيروان.
- له العديد من المقالات المنشورة بمجلات متخصّصة أو ضمن أعمال الندوات الدوليّة.
- مدار اهتمامه التّاريخ الثقافي والاجتماعي للعهد المملوكي.

بصدد النّشر:

- "الموت في مصر والشام في العهد المملوكي".



الثمـــن : 13.000 د.ت

ر.د.م.ك : 5 - 68 - 839 - 9938 - 978

